مارجريت ميتشيل

ذهب مع الريح

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب: ذهب مع الريح (رواية)

الكاتب: مارجريت ميتشيل

ترجمة : صبحي سلامة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ميتشيل ، مارجريت

ذهب مع الريح (رواية)/ مارجريت ميتشيل، ترجمة: صبحي سلامة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٩٦ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٨٩٢٢ / ٢٠٢٠

ذهب مع الريح





من هي ميتشل ؟

ولدت مارجريت ميتشل في ٨ نوفمبر من عام ١٩٠٠ م، وكانت والدتها إيزابيل ستيفن من أصول أيرلندية، ووالدها رجل قانون من اصول أسكتلندية، وكانت العائلة تضم العديد من الجنود السابقين الذين قاتلوا بالحرب الأهلية، وكانت ميتشل في طفولتها مُنبهرة بقصص الحرب التي كان يقصها عليها أقرباؤها، وصادفت ميتشل مشاكل بالمدرسة في المرحلة الابتدائية بسبب كُرهها لمادة الرياضيات التي وجدتها مادة مُعقدة وجعلتها تكره الذهاب للمدرسة، وكانت والدتها تُجبرها وتقودها للمدرسة رغماً عنها، وتمت خطوبتها على أحد شباب مدينتها وكان اسمه كليفورد هينري الذي التحق بالجيش الأمريكي في الحرب العالمية الأولى ولقي مصرعه في إحدى المعارك في فرنسا عام ١٩١٨م.

بعد عام من مقتل خطيبها توفيت والدتها بوباء الإنفلونزا عام ١٩١٩ وأصبحت ميتشل ربة البيت والمسؤولة عن رعاية والدها في عام ١٩٢٢م، وأصيبت (مارجريت) بمرض جعلها تلزم البيت في معظم الأوقات فأخذت تُسري عن نفسها بتنفيذ مشروع روائي ضخم يُصور أحداث الحرب الأهلية بين ولايات الشمال والجنوب، وقد استدعى ذلك منها قراءة مُستفيضة جداً في المراجع التاريخية والاجتماعية ووجدت في ذلك الجو العاصف من الوقائع والعواطف مهرباً من حياة الركود والملل وآلام المرض وأوجاعه، كما قضت في كتابة فصول الرواية

ما بين عام ١٩٣٠ و١٩٣٦م وكانت تُتابع الشخصيات وتكتب الأحداث على غير نظام مُتسلسل فتكتب فصلاً ثُم آخر ثم تعود فتُعدل في الفصول لتُحافظ على التسلسل في النهاية. ولم تكن تحلم بنشر هذا العمل الضخم، ولكن الرواية ما أن نُشرت حتى اعتبرت حدثاً أدبياً مُهماً، وبيع من طبعتها الغالية أكثر من مليون نسخة في ستة أشهر، ومُنحت جوائز عدة أدبية ومنها جائزة بليتزر عام ١٩٣٧ م، وأخرجتها السينما بفيلم يحمل نفس اسم الرواية (ذهب مع الريح) صدر عام ١٩٣٩م وحقق الفيلم أعلى ربح في تاريخ هوليوود، وأحرز الرقم القياسي بفوزه بالكثير من الجوائز، وتُرجمت الرواية لمُعظم لغات العالم. واعتبرها الأمريكيون أشهر رواية في أدبهم في القرن العشرين في وقتها، وحظيت بإعجاب جميع الأمم لطابعها الإنساني.

في الحرب العالمية الثانية تطوعت ميتشل للعمل مع مُنظمة الصليب الأحمر الأمريكية وركزت نشاطها في إيصال الإمدادات الغذائية والطبية لبلدة فيموتييه في فرنسا وحصلت نتيجة لجهودها على لقب المواطنة الفخرية لتلك البلدة الفرنسية في عام ١٩٤٩م.. في ١٦ اغسطس ١٩٤٩م تعرضت مارغريت ميتشل لحادث سيارة عندما كانت تعبر الشارع وتوفيت بالمستشفى بعد خمسة أيام مُتأثرة بإصابتها، وقيل أن سائق السيارة كان في حالة سُكر، وأدين بالقتل غير العمد وتلقى حُكماً بالسجن لأربعين عاماً مع الأعمال الشاقة، وذكر السائق أن ميتشل عبرت الشارع دون أن تلتفت إلى السيارات العابرة. وتوفيت مارغريت

عن عُمر يناهز ٤٨ عاماً ودُفنت في مقبرة أوكلند في أتلانتا، وفي ١٦ مايو من عام ١٩٩٧ م تم تحويل المنزل الذي كتبت فيه ميتشل رواية "ذهب مع الريح" إلى مُتحف، ويقع هذا المنزل في وسط أتلانتا ويحتوي على وثائق وشرائط أصلية لرواية وفيلم "ذهب مع الريح" مع مُقتنيات شخصية لمارجريت ميتشل.

المترجم



الفصل الأول

لم تكن سكارليت أوهارا على شيء كثير من الجمال، ولكن قل أن فطن إلى هذه الحقيقة أحد ممن وقعوا في حبائلها كما وقع الشقيقان التوأمان ستيوارت وبرنيت تارلتون، كان وجهها مزيجاً عجيباً من ملامح أمها الفرنسية الرقيقة، وأبيها الأيرلندي الضخم، ولكنه وجه يلفت النظر بذقنه البارز وفكيه العريضين، عينيه الخضراوين العميقتين اللتين تتألقان تحت ثروة من الأهداب السوداء الطويلة. وقد كان منظرها حين جلست بين الشقيقين التوأمين أمام منزلها في (تارا) في مساء يوم رق نسيمه من أيام شهر أبريل عام ١٨٦١ من المناظر التي يحلم بها الشاعر، ويشتهي أن يُسجلها المُصور.

كان ثوبها الفضفاض الذي يتألف من عشرة أمتار من الحرير الثمين يُحاكي خُضرة حذائها الصغير، ويمتزج مع حشائش الحديقة وكأنه جزء منها.

كان مظهرها الخارجي من صُنع أمها، أما عيناها فكانتا من صُنع الطبيعة، ولا قبل للتهذيب أو الردع أو الصناعة على تغيير نظراتهما. وجلس الشقيقان حولها وراحا يجاذبانها أطراف الحديث. ويحركان سيقانهما الطويلة، ويضحكان في مرح، وعلى الرغم من أن ثلاثتهم كانوا من أبناء الأغنياء الذين ألفوا حياة الترف والنعيم إلا أن وجوههم

وحركاتهم كانت تنم عن النشاط والحيوية والصلابة، شأن الذين يقضون حياتهم في الخلاء ولا يتعبون عقولهم بالدروس والتحصيل. وفي الواقع أن الحياة في مُقاطعة جورجيا العذراء كانت لا تزال في عهدها الأول، وكانت المدنية فيها لا تزال تحبو، فلم يكن عيباً أن يفتقر الرجل إلى بعض الصفات التي تكتسب من الثقافة المدرسية، إنما كان العيب أن يجهل ما هو أجدى وأهم من العلوم النظرية..

كانت أسرتهما تملك من المال والجياد والعبيد أكثر مما تملك أية أسرة أخرى في جورجيا، ولكن نصيبهما من الثقافة كان أقل كثيراً من نصيب أفقر جيرانهما. وقد كان ذلك بعينه هو سبب تسكعهما في (تارا) في ذلك المساء فإنهما طُردا من جامعة جورجيا في اليوم السابق، كما طُردا من ثلاث جامعات أخرى خلال العامين الماضيين، ولحق بهما شقيقاهما توماس وبويد لأنهما رفضا البقاء في جامعة لم تُرحب بأخويهما. ولم ينظر الشقيقان التوأمان لطردهما من الجامعة بعين الجد والاهتمام، فلقد كانت المسألة في نظرهما لا تعدو أن تكون دعابة طريفة جديرة بأن تدخل التسلية على نفوس الذين يسمعون تفاصيلها، وكان ذلك أيضاً رأى سكارليت أوهارا التي لم تفتح كتابا منذ تركت جامعة (لافييت) للبنات، وقالت:

- أعلم أنكما، وكذلك شقيقكما توماس لا تعبئون بالعلم، ولا تُقيمون وزناً للثقافة المدرسية، ولكن ماذا يفعل أخوكم بويدوهو الشغوف بالقراءة والدرس؟! إنكم انتزعتموه معكم من جامعات (فرجينيا)

و(ألباما) و(كارولينا)، وها هو قد غادر جامعة جورجيا تضامناً معكم.

فأجاب بويد بقلة اكتراثه:

- **في استطاعته أن يدرس القانون عند أحد المُحامين، فقد كان محتوماً علينا جميعاً أن نعود قبل نهاية السنة الدراسية.**

- **ولماذا؟!**

- **لأن الحرب قد تنشب بأي يوم، ومن المُستحيل أن نظل بالمدرسة وقتها.**

فقالت سكارليت في ضجر وفراغ صبر:

- **أنتم تعلمون أن الحرب لن تقع، وأن كل ما يُقال عنها مُجرد كلام.**

هتف ستيوارت:

- **كيف ذلك؟ إن الحرب واقعة لا محالة، ومن المُستحيل بعد أن الويلات التي أوقعها بهم الجنرال بوريجار وطردهم من قلعة (سومتر) أن يقعدوا عن القتال إلا إذا أرادوا أن يوصفوا في العالم أجمع بالجُبن والنذالة، أما مسألة الاتحاد...**

قاطعته سكارليت في ضجر:

- **إذا ذكرت الحرب مرة أخرى فإنني سأدخل البيت، لقد مللت هذه**

الكلمة؛ فأبي يتشدق بها ليل نهار، وجميع زائريه وأصدقائه.

وكانت تعني ما تقول لأنها لا تطيق حديثاً لا تكون هي مُحوره. واضطربت أهدابها السوداء الطويلة الساحرة كما تضطرب أجنحة الفراشة، فأُعجب بها الشقيقان وسارعا للاعتذار عما أدخلا على نفسها من سأم...

قالت لتحول مجرى الحديث:

- ماذا فعلت والدتكم عندما علمت بطردكم من الجامعة؟؟

قال ستيوارت:

- إنها لم تجد الفرصة لتقول أو تفعل شيئاً، وقد غادرنا البيت بالصباح قبل أن تستيقظ من نومها.

- ألم تقل شيئاً عندما وقع بصرها عليكم أمس؟

- الحظ حالفنا بالأمس؛ فقد وصلنا البيت باللحظة التي كانت فيها والدتي تُرحب بالجواد الجديد الذي ابتاعته من كانتوكي، ويا له من جواد يا سكارليت يجب أن تُشاهديه، لقد قضم ذراع السائس، وداس اثنين من الزنوج. وأحال الإسطبل لكومة من الأنقاض. وعملت أمي على تهدئته وربتت على عنقه وأطعمته السكر. ولما وقع بصرها علينا هتفت: "يا إلهي... هل عدتما مرة أخرى؟" وأبصرنا الجواد فثارت

ثائرته، وجعل يضرب الأرض بحوافره فصاحت أمي: اخرجوا بسرعة قبل أن يفتك بكم، وسأنظر في أمركم صباحاً. فذهبنا لمخادعنا وانصرفنا في الصباح الباكر، وتركنا (بويد) ليُعالج الموقف معها.

هتفت سكارليت:

- هل تظن أنها ستضربه؟

كانت تعلم – كغيرها من أهل الناحية – أن مدام تارلتون لا تتورع عن ضرب أولادها بالسياط فهي امرأة قصيرة القامة ولكنها على جانب عظيم من النشاط؛ فهي تُشرف على مزارع القطن الواسعة ومئات الزنوج وأولادها الثمانية كما تُشرف على أعظم إسطبل بجورجيا لتربية الجياد وترويضها.

قال ستيوارت:

- لا أظن أنها ستضربه، إنها لا تقسو عليه كثيراً لأنه أكبرنا، ولأنه قصير القامة مثلها، ولذلك تركناه ليوضح لها الموقف.

- هل ستذهب أمك لحفل آل ويلكس غداً ممتطية صهوة جوادها الجديد؟

- إنها تُريد ذلك، ولكن أبي قال لها إنه جواد خطر، كذلك عارضت أخواتي، وطلبن منها الذهاب للحفل في مركبة أسوة بكرائم السيدات.

فقالت سكارليت:

- كل ما أرجوه ألا تُمطر السماء غداً فتفسد الحفلة.

فقال ستيوارت:

- كلا.. سيكون الجو غداً صحواً ودافئاً انظري لقرص الشمس إنه أحمر كالدم، وليس أصدق من غروب الشمس كدلالة على جو اليوم التالي.

قال برنيت:

- وعلى ذكر الحفل.. هل وعدت بمراقصة أحد بها يا سكارليت؟

فأجابت الفتاة في خبث:

- طبعاً. هل كُنت أعلم أنكم ستُطردون من الجامعة؟

فضحك الفتيان وقال برنيت:

- أصغي إليَّ يا سكارليت.. احتفظي لي بالرقصة الأولى، ولستيوارت بالرقصة الأخيرة، وافعلي بعد ذلك ما شئت، بشرط أن تجلسي معنا أثناء الطعام كما حدث بالحفل الأخير.

هزت كتفيها وقالت بلهجة ساحرة:

- كلا.. لا أستطيع أن أعد بشيء.

فنظر ستيوارت لأخيه، وغمز بعينه قائلاً:

- عدينا، فنكشف لك سراً خطيراً.

ففتحت عينيها بغتة وهتفت:

- ماذا؟

قال برنيت:

- هل تعني السر الذي عرفناه أمس في (أتلانتا) يا ستيوارت؟ ولكنك تعلم أننا وعدنا بكتمانه.

- إن الآنسة بيتي لن تغضب إذا...

فقاطعته سكارليت:

- الآنسة ماذا؟

- الآنسة بيتي هاملتون ابنة عم إشلي ويلكس، أنت تعرفينها.. أليس كذلك؟!

- نعم... إنها أحمق عجوز رأيتها في حياتي.

- إننا قابلناها أمس بمحطة (أتلانتا) فقالت لنا إن خطوبة ستُعلن غداً

بالحفل.

فقالت سكارليت بازدراء:

- هذا نبأ قديم.. إنها تعني خطوبة الأحمق شارل هاملتون وهانيا ويلكس، كُلنا يعلم مُنذ أعوام أنهما سيتزوجان يوماً ما.

فسألها برنيت:

- أتعلمين أنه أحمق؟! ومع ذلك سمحت له أن يحوم حولك.

هزت كتفيها وأجابت بقلة اكتراث:

- إنه أتعب نفسه سُدى.

قال ستيوارت بخبث:

- على كل حال أنت أخطأت الحدس، فالقوم سيُعلنون غداً خطوبة أشلي ويلكس، والآنسة ميلاني هاملتون شقيقة شارل.

لم تتحرك عضلة واحدة بوجه سكارليت، وامتقعت شفتيها بالحال، كمن يُصاب فجأة بلطمة قاضية، ولا يشعر للوهلة الأولى بحقيقة ما أصابه، وبلغ من سكينتها أن اعتقد التوأمان أنه ليس وراء صمتها سوى الدهشة والعجب.

قال ستيوارت:

- قد علمت الآنسة بيتي أنه لم يكن بالنية إعلان هذه الخطوبة قبل نهاية العام بسبب حالة ميلاني الصحية، ولكن ما يُقال عن قُرب وقوع الحرب قد حمل الأسرتين على التعجيل بالزواج وستُعلن الخطوبة غداً بعد الطعام، ها نحن قد كشفنا لك عن هذا السر يا سكارليت، هلا وعدتنا بالجلوس على مائدة الطعام؟

- وسترقصين معنا؟

أجابت بلهجة آلية:

- نعم.. نعم.

- ما أظرفك يا سكارليت.. سوف يُجن سائر الفتيان غيرة وحسداً..

قال برنيت:

- لا شك أنك ستسمحين لنا بمُرافقتك إلى هُنا بعد الحفلة.

- ماذا تقول؟

وأعاد برنيت السؤال، فأجابت:

- طبعاً.. طبعاً..

وتبادل التوأمان نظرة فرح ودهشة، ولم يألفا منها مثل هذا اللين وهذا الإذعان. وكانت قد عودتهما أن يتوسلا دون أن ينالا جواباً صريحاً،

وعودتهما أن تُقابل إلحاحهما بالضحك فلقد وعدت بأن تُراقصهما دون سائر الفتيان وبالجلوس بينهما على مائدة الطعام، فما أحلى الطرد من الجامعة إذا كان هذا هو الجزاء!!

وانقضى بعض الوقت، قبل أن يُلاحظا أن الفتاة لا تُعيرهما انتباهاً، ولا تكاد تعي كلمة مما يقولان، وعندئذ أحسا بأن في الجو شيئاً لا يفهمانه وبعد أن تسكعا قليلاً نظرا في ساعتيهما، ثُم نهضا، وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق، وتلاشت ظلال الشجر في ظلام الغسق، فاستأذنا بالانصراف وقبلا أناملها مودعين، وبعد لحظة ابتعدا عن البيت يتبعهما خادمهما الزنجي وكلبهما الضخم وما أن غاب البيت عن بصرهما وراء سُحب الغبار المتصاعدة من الطريق حتى قال برنيت لأخيه:

- ألا ترى أنه كان يجدر بها أن تدعونا لتناول طعام العشاء؟

فأجاب ستيوارت:

- كُنت أنتظر دعوتها، ولكن بغير جدوى.. فماذا تفهم من ذلك؟

- لا أستطيع أن أفهم شيئاً. كل ما أعلمه أنه كان ينبغي عليها أن تدعونا للطعام. لقد رأيناها اليوم لأول مرة بعد غياب طويل.

- اعتقدت في أول الأمر أنها سُرت بقدومنا.

- خُيل إلىَّ ذلك أيضاً.

- ولكنها صمتت بغتة مُنذ نصف ساعة تقريباً كأنها أصيبت بصداع فُجائي.

- لقد لاحظت ذلك، ولكني لم أكترث.

- هل تظن أننا قُلنا شيئا أغضبها؟

وفكراً لحظة، وقال ستيوارت:

- لا أظن أننا أغضبناها، ثم إننا نعلم أنها إذا غضبت هاجت وماجت.

- وهذا ما يُحببها إليَّ، فهي لا تكتم غضبها حتى يستحيل غضبها ناراً آكلة، ولكن لا شك أننا قلنا أو فعلنا شيئاً آلمها كي تتحول بهجتها صمتاً كما حدث. أقسم لك إنها كانت سعيدة عندما رأتنا، وأنه كان في نيتها أن تدعونا للعشاء.

- تُرى هل أزعجها أننا طُردنا من الجامعة؟!

- كلا، إنها قهقهت ضاحكة عندما علمت بالنبأ،وهي تكره الكتب مثلنا.

- إنني لا أفهم هذا اللغز، ولكني آسف على أنها لم تدعنا للعشاء.

الفصل الثاني

بعد انصراف التوأمين في سكون الغسق تنهدت سكارليت، وتهالكت في مقعدها في يأس وجزع. كانت عضلات وجهها متصلبة، وقد أحست كأن فمها يؤلمها من فرط ما ابتسمت رغم إرادتها لتمنع التوأمين من معرفة سرها. وشعرت بأن قلبها قد تضخم حُزناً ويأسا حتى ليضيق به صدرها.

مُستحيل أن يقترن إشلي ويلكس بميلان هاملتون، لا شك أن التوأمين لم يسمعا جيداً، أو لا شك أنهما لم يقصدا غير مُجرد الدعابة، فإشلي لا يُحب ولا يُمكن أن يحب ميلاني هاملتون، لا أحد في الدنيا يستطيع أن يُحب فتاة ضئيلة نحيلة عليلة مثل ميلاني! ثم إن أشلى لم يرها منذ شهور ولم يذهب إلى (أتلانتا) إلا مرتين طيلة هذا العام.. كلا.. كلا.. إن إشلي لا يستطيع أن يُحب ميلاني، بسبب بسيط واضح، هو أنه يُحبها هي، وهي تعلم ذلك علم اليقين.

وسمعت سكارليت وقع أقدام مُربيتها الزنجية تُزلزل درج السلم الخشبي الموصل إلى الحديقة؛ فبسطت أسارير وجهها، واصطنعت الهدوء. كانت المُربية العجوز ثاقبة البصر شديدة الحساسية تُحب آل (أوهارا) وتُخلص لهم. وتقرأ وجوههم كما لو كانت كتاباً مفتوحاً، وقد

تعلمت سكارليت من التجارب أن إثارة فضول هذه الزنجية الأمينة معناه أن ينفضح السر، ويصل لأذني هيلين أوهارا والدتها.. سألتها الزنجية:

- أين ذهب الفتيان؟! يا للعار يا سيدتي، لماذا لم تدعيهما لتناول الطعام. لقد أعددنا لهما مكاناً حول المائدة.

فأجابت سكارليت بقلة اكتراث:

- لقد أتعباني بحديثهما عن الحرب، وكان من المستحيل أن أطبق هذا الحديث أثناء الطعام، لاسيما إذا اشترك فيه أبي.

- لم يكن من الكرم أن تسمحي لهما بالانصراف ساعة الطعام، لقد علمناك غير ذلك يا آنسة، ولكن ما هذه الخشونة التي ألمسها بصوتك.. هل أصابك برد؟!

فأجابت سكارليت في ضجر:

- كلا.

- إذن فادخلي؛ فقد هبط الظلام..

- سأدخل في التو واللحظة.

وانصرفت المربية الزنجية، وبقيت سكارليت في مكانها يائسة حائرة لا تدري أين تتوارى حتى يذهب عنها بعض ما يؤلمها ويحز في قلبها، وأخيراً خطر لها خاطر حمل معه شعاعاً من الأمل، فلقد تذكرت أن والدها قد انطلق بعد ظهر ذلك اليوم لمزرعة جون ويلكس ليبتاع

زنجية تُدعى (ديلسي)، وكان (بورك) خادم أبيها قد اقترن بهذه الزنجية منذ بضعة شهور ولم يكف يوماً عن مطالبة سيده بابتياع (ديلسي) لكي تُقيم معه في مزرعة واحدة.

قالت سكارليت لنفسها: "إذا لم يسمع أبي شيئاً أثناء وجوده بالمزرعة فلا بد أنه لاحظ أشياءً، وإذا خلوت به قبل الطعام فربما استطعت أن استدرجه للكلام".

فقصدت إلى باب الحديقة، ورابطت عند جذع شجرة هناك لانتظار والدها، وجرى خاطرها على الرغم منها إلى أشلي وغمغمت: "يا إلهي.. هل يُمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟!" وتولى عنها بعض ما أصابها من الفزع واليأس عندما وقر هذا النبأ في أذنيها، واحتلت قلبها مرة أخرى تلك الحمى التي طالما ألهبت دمها طيلة العامين الآخرين.. تعجبت.. كيف لم تحب إشلي بكل كيانها قبل هذين العامين؛ فقد قضيا أيام الطفولة معاً، وكانت تراه كُل يوم فلا تعبأ به، ولا تلقى إليه بالاً، إلى أن كان أحد الأيام منذ عامين حين عاد من رحلة في أوربا استغرقت ثلاثة أعوام، وفي ذلك اليوم أحست فجأة بأنها تُحبه، وهي لا تزال تذكر تفاصيل لقائهما، ولما رفع قُبعته مُحيياً عبث النسيم بخصلات شعره الأشقر الجميل قال لها:

- إنك كبرت يا سكارليت.

وأحنى قامته في أدب، وقبل أناملها، وهي إن تنسى فلا تنسى

عذوبة صوته، وكيف وثب قلبها عندما سمعت نبراته. ومنذ تلك اللحظة أحست بأنها تحتاج إليه كما تحتاج لطعام تأكله وإلى ماء تشربه، وخلال العامين الأخيرين كان أشلي يُرافقها لجميع الحفلات والمراقص، ويذهب معها لصيد السمك ويختلف إلى بيتها مرة أو مرتين كل أسبوع. صحيح أنه لم يُغازلها، وأنها لم تر في عينيه قط ذلك البريق الذي عرفته في عيون غيره من الرجال، ولكنها رغم ذلك كانت تعلم أنه يُحبها، وكثيراً ما فاجأته وهو ينظر إليها ملياً وفي عينيه مزيج من الحنين والحزن؛ فكانت تفهم معنى هذا الحنين، وتحار في فهم الحزن الذي يُخالطه، على أن هذا الحُزن المُبهم لم يكن الشيء الوحيد الذي استعصى على فهمها؛ فلقد كان إشلي دمث الخلق شديد الترفع والتحفظ يُفكر كثيراً ولا يستطيع أحد أن يعلم فيم يُفكر، ويلزم الصمت حين يُسرف الجميع في الكلام، ويعرف ـ كغيره من الشباب ـ الصيد والقنص والرقص والقمار والسياسة، ولكنه يختلف عنهم جميعاً في أنه لا يجعل من هذا العبث هدفه وغايته في الحياة، وكانت تُحبه ولكنها لا تفهمه لأنها طُبعت على البساطة والصراحة ونشأت طليقة كالريح التي تعصف بأشجار المزرعة؛ فهي لا تستطيع مهما تبذل من جهد أن تفهم الطباع المُعقدة، وقد كان إشلي من أصحاب هذه الطبائع، ذلك لأنه انحدر من قوم يؤثرون التفكير على العمل، وتنسج أخيلتهم في أوقات الفراغ خيوطاً من الذهب لا صلة لها بالحقائق..

وقد أدهش سكارليت أن تُحبه، وهو الغريب عنها بعقله وتفكيره،

الغامض بميوله وأطواره، على أن هذا الغموض كان في ذاته مبعث فضولها وقد جعله في نظرها أشبه بباب لا قفل له ولا مفتاح؛ فجمعت عزيمتها على أن ترى ما وراء هذا الباب مهما كلفها ذلك من جهد وعناء. ولم تشك لحظة واحدة في أنه سيطلب يدها يوماً ما، ولم تكن لحداثة سنها قد عرفت معنى الفشل أو تذوقت مرارة الخيبة، ولذلك وقع عليها هذا النبأ وقع الصاعقة..

- ولكن لا.. يستحيل أن يكون هذا النبأ المُخيف صحيحاً.

لقد قال لها في الأسبوع الماضي فقط، وهما في طريقهما إلى البيت بعد نزهة في الحقول:

- عندي شيء أريد أن أقوله لك يا سكارليت، ولكنه من الأهمية بحيث لا أعرف كيف أقوله.

فغضت بصرها في حياء، ووثب قلبها سروراً، وأيقنت أن اللحظة السعيدة قد دنت، ولكنه استطرد:

- كلا، ليس الآن.. إننا اقتربنا من البيت، والوقت لا يتسع للكلام.. يا إلهي... كم أنا جبان!!

ولكز جواده في شيء كثير من الحيرة والاضطراب، وتذكرت سكارليت هذه الكلمات التي أدخلت السعادة على نفسها، وفهمت الآن معناها الحقيقي، إذن فقد كان بوده أن يُخبرها بنبأ خطوبته!!.. يا إلهي.. لقد أبطأ أبوها، أفلا يعود أبداً؟؟

وأرسلت بصرها لعرض الطريق في قلق وضجر، ورأت أباها ينهب الأرض بجواده في نشاط الفتيان، وسوطه في يده، وشعره الأبيض يسبح في الهواء. ولم تتمالك رغم قلقها من الشعور بالخيلاء؛ فقد كان أبوها فارساً بارعاً، وقالت لنفسها، وهي تنظر نحوه بإعجاب:

- لا أعلم لماذا يعمد دائماً إلى الوثوب بجواده فوق باب الحديقة كُلما كان ثملاً لا سيما بعد أن سقط في العام الماضي وكُسرت ساقه، وأقسم لأمي على ألا يثب فوق الباب مرة أخرى.

اقترب الجواد من الحديقة، وجمع جسده النشيط حتى أصبح كُتلة من العضلات، ووثب فوق الباب بخفة الطير فأرسل جيرالد أوهارا صيحة حماسية وجذل، وهتف مُحدثاً جواده:

- كنت أعلم أنه لا يوجد بكل جورجيا جواد يُضاهيك

وربت على عُنق الجواد برفق وحنان. وفي هذه اللحظة وقع بصره على ابنته؛ فقطب حاجبيه. واحمر وجهه ووثب عن ظهر الجواد وهو يقول:

- أترقبينني يا بُنية لتشي بي عند أمك كما فعلت أختك سولانج في الأسبوع الماضي؟

قالت تُطمئنه:

- كلا يا أبي.. إنني لست ثرثارة كأختي سولانج. ولكن يُخيل أنك

كسرت ساقك في العام الماضي على أثر وثبة فوق....

فقاطعها:

- متى كان للابنة أن تُنصب نفسها رقيباً على أعمال أبيها!! إنني أكسر ساقي وعُنقي متي شئت، ولا أقبل نصيحة من أحد.

- لم أتوقع أنك ستُبطئ في العودة كل هذا الإبطاء هل اشتريت (ديلسي)؟

- اشتريتها بثمن مُخيف. لقد رغب جون ويلكس في إعطائها لي بغير مُقابل، ولكني لا أريد أن يُقال عني أنني أستغل الصداقة في المعاملات التجارية.. لقد دفعت ثمنها ثلاثة آلاف دولارا.

- لك الله يا أبي.. أتدفع كل هذا المبلغ ثمناً لامرأة زنجية؟؟

فأطرق جيرالد برأسه إطراقة الطفل المذنب، وقهقهت سكارليت ضاحكة، قال:

- لن أسمح لزنجي بعد الآن أن يختار زوجته من مزرعة أخرى.. إن ذلك يُكلف كثيراً، والآن.. هلمي بنا إلى البيت يا بنية لنتناول طعام العشاء.

ولكن سكارليت تسكعت في مشيتها.. كانت تعصر ذهنها في البحث عن وسيلة للتحدث عن إشلي دون أن تُشعر أباها بما يعتمل في نفسها، غير أنها كانت تفتقر إلى الدهاء واللباقة وسعة الحيلة، شأنها في ذلك شأن أبيها؛ فكان من المُتعذر على أحدهما أن يُخفي عن الآخر

خبيئة نفسه.. سألته:

- كيف حال القوم في مزرعة جون ويلكس؟

- إنهم كعهدنا بهم، وقد قابلت هُناك جيمس كالفيرت فقال لي: إن الناس في (أتلانتا) يتأهبون للحرب وأن...

فتنهدت سكارليت، كانت تعلم أن أباها يستطيع أن يتكلم عن الحرب ساعات برمتها فقالت لتُغير مجرى الحديث:

- هل قالوا شيئاً عن حفلتهم غداً؟!

- حفلتهم!! آه.. نعم إن الآنسة.. ما اسمها؟؟! تلك الفتاة النحيفة الرقيقة التي جاءت إلى هنا في العام الماضي! آه.. تذكرت.. اسمها ميلاني هاملتون ابنة عم إشلي ويلكس، إنها عادت من (أتلانتا) مع شقيقها شارل، لكي...

- عادت من أتلانتا!

- نعم، وهي في الحق فتاة وديعة دمثة الخلق.. أسرعي يا بُنية.. إن أمك تنتظرنا بفراغ صبر.

وأحست سكارليت بأن قلبها يغوص. كانت تأمل أن يحدث ما يعيق ميلاني هاملتون عن الحضور، وأغضبها أن يسرف أبوها في إطراء ميلاني، وأغراها الغضب بالخروج إلى الميدان؛ فسألت في صراحة:

- وأشلي ويلكس. هل كان هناك أيضاً؟

فأجاب جيرالد:

- نعم.

ثم وقف بغتة، ونظر إلى ابنته، وحملق في وجهها بحدة وهتف:

- إذا كان غرضك من انتظاري هو الاستفسار عنه. فلماذا لم تقولي ذلك دون الالتجاء إلى اللف والدوران؟!

فصمتت، ولم تجد ما تقوله، وأحست بالدم يصعد إلى وجهها قال:

- نعم.. إنه كان هناك مع شقيقاته، وقد استفسروا عنك. وأعربوا عن رجائهم في ألا يعوقك عن شهود الحفلة عائق، ولكن ماذا بينك وبين إشلي يا فتاة؟

فأجابت باقتضاب:

- لا شيء.. فلتُسرع إلى المنزل يا أبي.

- الآن تُريدين الإسراع للمنزل، ولكني لن أتقدم خطوة واحدة حتى أفهمك. ماذا بينك وبين هذا الشاب؟! هل كان يُغازلك؟! هل طلب إليك الاقتران به؟

- كلا...

- وهو لن يطلب إليك ذلك.

فنظرت إليه بغضب، وهمت بالذود عن كرامتها المخدوشة، ولكنه

عاجلها بقوله:

- صبراً يا فتاة.. وأصغي إلى تتمة الحديث.. إنني علمت من جون ويلكس بصفة خاصة أن ابنه سيقترن بالآنسة ميلاني، وإن النبأ سيُعلن غداً.

وهنا سقط ساعد سكارليت إلى جنبها. إذن فالنبأ صحيح. وأنشب الألم أظفاره في قلبها كأنه مخلب حيوان مفترس، وأحست رغم ذهولها أن عيني أبيها لا تتحولان عنها، وأنه ينظر إليها بمزيج من العطف والحيرة، كان الرجل يُحب ابنته، وقد أزعجه وهمه أن تورطه في البحث لها عن مخرج من متاعبها حين كان في استطاعتها أن تجد النجدة عند أمها.

قال لها:

- هل كُنتِ تطاردين فتى لا يُحبك، بينما يترامى سائر فتيان الولاية على قدميك؟!

فطغت كبرياؤها على ألمها وهتفت:

- كلا.. إنني لم أطارده.. فقط أدهشني نبأ هذه الخطوبة

فصاح بصراحته المعهودة:

- أنت تكذبين.

ولكن سُرعان ما غلبت عليه عاطفة الشفقة فاستطرد:

- معذرة يا بُنية.. مهما يكن الأمر فإنك ما زلت بمُقتبل العمر، وهُناك عشرات من الفتيان يخطبون ودك.

- كانت أمي بالخامسة عشرة عندما تزوجت.

- أمك تختلف عنك فهي لم تحظ بالمُعجبين مثل هذا العدد الذي تحظين به. رفهي عنك يا بُنية.. سأذهب بك في الأسبوع المُقبل لعمتك في (شارلستون)، ولن تمر بك بضعة أيام هُناك حتى تنسي إشلي.

هل يظنها أبوها طفلة يكفيها الحصول على لعبة كي تنسى متاعبها قال لها:

- لو كُنتِ على شيء من الحكمة لاقترنت بأحد التوأمين مُنذ زمن طويل، فكري بالأمر ملياً، وإذا راقك ذلك فإنني أبني لك في الحال بيتاً أنيقاً، وأجلب لك...

- كفى.. كفى.. لا تُعاملني كأنني طفلة. لا أريد الذهاب إلى شارلستون ولا أريد الاقتران بالتوأمين.. لا أريد سوى...

وأمسكت لسانها في الوقت الملائم فرمقها الرجل بنظرة إشفاق قائلاً:

- لا تُريدين سوى إشلي، وليس في مقدورك تحقيق مطالبك، ولكن ثقي بي أنه لو تقدم في طلب يدك لترددت كثيراً قبل أن أوافق... إنني

أريد ابنتي أن تكون سعيدة، وأنت لن تكوني سعيدة معه، فالسعادة لا تتوفر إلا من تزاوج الأشباه.

أرادت أن تصيح به وتقول: "ولكنك سعيد وليس بينك وبين أمي شبه"، ولكنها لزمت الصمت؛ خوفاً من أن يُقابل وقاحتها بلطمة قوية..

قال ببطء:

- لا يوجد شبه على الإطلاق بيننا وبين آل ويلكس، إنهم قوم على جانب عظيم من غرابة الأطوار، ومن الخير لهم أن يتزوجوا من أبناء عمومتهم، ليحتفظوا فيما بينهم بغرابة أطوارهم.

- ولكن... إن إشلي...

- اصمتي، إنني أحب إشلي ولا أوجه إليه نقداً، وغرابة الأطوار ليس معناها السفه، فهو ليس مُغفلاً كآل كالفيرت الذين يُقامرون بكل ما يملكون، وليس قاسياً كآل فونتان الذين يفتكون بالرجل لمجرد الشبهة بأنه سخر منهم، كذلك لا أعتقد أنه إذا تزوج ذهب يقضي وقته في مطاردة النساء ولكنه غريب الأطوار من نواح أخرى، وليس من الميسور لإنسان أن يفهمه، وإلا فحدثيني هل تفهمين معنى شغفه بالكتب والموسيقى والشعر والتصوير وغير ذلك من الحماقات؟!

أجابته في ضجر:

- إذا اقترنت به، فسأصرفه عن كل ذلك.

- ليس في مقدور المرأة أن تُحول الرجل عن سبيله، ثُم إن هذا الغموض وراثي بآل ويلكس، فانظري إليهم كيف يُضيعون أموالهم بالطواف بنيويورك وبوسطن لشهود معارض التصوير والمسارح وابتياع الكتب الفرنسية والألمانية، بينما ينصرف عُقلاء الناس إلى الصيد والقنص وركوب الجياد ولعب الميسر.

- لا أعرف أحداً بهذه الناحية يُجيد ركوب الخيل مثل إشلي، أما عن لعب الميسر فأعتقد أنه ربح منك في الأسبوع الماضي مائتي دولار.

فعض جيرالد شفته وقال:

- تباً لجيمس كالفيرت، إنه ملأ الدنيا بنبأ هذه الخسارة، أنا أعلم أنه يُجيد ركوب الخيل وجيد في لعب الورق، ولكنه لا يفعل شيئاً من ذلك باهتمام وعناية، ولذا قلت إنه غامض غريب الأطوار.

هُنا صمتت سكارليت وغاص قلبها بين جنبيها، ولم تجد ما تدفع به عن إشلي، فقد قال أبوها عنه ما تعتقد هي أنه حق، وفهم أبوها صمتها وقال بحنان:

- ماذا ستصنعين بزوج مثل إشلي؟ إن أفراد أسرتنا جميعاً يعيشون في عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه سائر الناس.. ماذا بك يا بنية.. هل تبكين؟!

مسحت دمعة غادرة أفلتت من عينها وأجابت بشجاعة:

- كلا.

- أنت تكذبين، ولكن هذه الكذبة لا تُغضبني، وذلك لأنها تدل على الكبرياء، وإنني أريدك أن تحتفظي بكبريائك غداً بالحفل كي لا يُصبح اسمك مُضغة بأفواه الناس وحتى لا يُقال: إنك تقتلين نفسك حُزناً على شاب لم ينظر إليك قط. والآن هلمي بنا للمنزل.. سنتكتم هذا الحديث عن أمك وستكتمين عنها أنني وثبت من فوق الباب.

وتأبط ساعدها وسارا معاً جنباً إلى جنب حتى دخلا المنزل، وحينئذ صادفتهما هيلين أوهاراً وهي مُتأهبة للخروج والمُربية تسير في أثرها حاملة حقيبة صغيرة سوداء اعتادت هيلين أن تضع فيها الأربطة والعقاقير الطبية لإسعاف الزنوج؛ فقالت هليين أوهاراً لزوجها:

- يوجد مريض في بيت (سلاتاري)، ويجب أن أذهب بالحال.

صاح جيرالد:

- يا إلهي. ألا تعودين المرضى إلا في هذه الساعة حين يجب أن نتناول العشاء، وحين أريد أن أسرد عليك ما يُقال عن الحرب في (أتلانتا)؟! اذهبي يا هيلين، ولا تقضي الليل كله هناك، إذاً ليس ثمة فائدة من بقائك.

تناولت سكارليت طعام العشاء مع أبيها وأختيها سولانج وكارين، واحتكر جيرالد الحديث طوال السهرة، وكانت الحرب كما هي العادة مدار حديثه.

ولكن سكارليت لم تع كلمة واحدة من حديثه، فلقد كانت مُنصرفة بكل حواسها وتفكيرها إلى ما يجب عليها عمله في اليوم التالي، ولما قصدت لغُرفتها وجلست أمام النافذة كانت الخطة التي تفتق عنها ذهنها قد نضجت وبات لا ينقصها إلا التنفيذ، فلقد كانت خطتها غاية في البساطة؛ فهي قد وضعت هدفها نصب عينيها، ووجدت أن أفضل طريق للوصول لغايتها هو أنها اعتزمت أولاً أن تكون شديدة الحرص على كرامتها وكبريائها. كما أوصاها جيرالد أن تفعل وأن تصطنع النشاط والمرح ما استطاعت وأن تكون طروباً لعوباً، بحيث توقع الفتنة في قلوب طلاب الزواج من فرانك كنيدي العجوز الذي يهيم بأختها سولانج، إلى شارل هاملتون الخجول (شقيق ميلاني).. نعم.. ستجعل هؤلاء العُزاب جميعاً يدورون بها ويتساقطون عليها.. كما يتساقط النحل على خلية العسل، وحينئذ لا بد أن ينضم إشلي إلى زمرة المعجبين بها؛ فتنتهز إحدى الفرص لتخلو به بعيداً عن المدعوين، وإذا تعذر على إشلي أن يخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل فليس أبسط من أن تُقابله في منتصف الطريق.

سيرى إشلي جيش المُعجبين بها وستأكل الغيرة قلبه وسينظر إليها في عتب ويأس، وستكون سعادته أكبر من يأسه متى جعلته يكتشف أنها لا تُحب سواه، ولم تتمالك نفسها من الابتسام حين تصورت الانقلاب الذي سيطرأ عليه متى علم أنها تُحبه، وخفق قلبها بشدة عندما تخيلته جاثياً تحت قدميها وصوته الرقيق يضرع إليها أن تقترن به، وتخيلت

الموقف، كما لو كان واقعاً تحت حسها وبصرها، ستقول له بطبيعة الحال أنها لا تستطيع الاقتران برجل أُعلنت خطوبته فيُكرر الاستعطاف وتتظاهر أخيراً بالاقتناع ويُقررا الهرب لأتلانتا، وهناك.. أيمكن أن تصير زوجته بهذه الساعة في مساء اليوم التالي!!

وفجأة.. مرت بجسدها رعدة قوية.. هب أن هذه الخطة لم تنجح، وأن إشلي لم يطلب إليها الفرار معه؟! ولكنها هزت رأسها بحزم وقالت:

- ليس ثمة ما يدعو للفشل إذا كان يُحبني، وإني واثقة من أنه يُحبني.

وحولت وجهها الشاحب نحو الحقول، وتألقت عيناها تحت أشعة القمر، ولم تُعلمها أمها أن الآمال شيء وتحقيقها شيء آخر، ولم تُعلمها الحياة أن السبق لا يكون دائماً للأسرع، فوضعت خطتها بثقة فتاة في السادسة عشرة من عُمرها تعتقد أن الثوب الأنيق والوجه الفاتن يكفلان الظفر بالقدر.

نظرت سكارليت لنفسها بالمرآة لترى منظرها الجانبي، فلم تجد في جسدها وقوامها ما تخجل منه فهي متوسطة القامة معتدلة الكتفين، بارزة الصدر، لها خصر نحيل تحسدها عليه جميع الفتيات في المُقاطعات الثلاث المجاورة، وقد أخذت عن أمها رقة أناملها ودقة قدميها وجمال ساقيها؛ فبوسعها الآن أن تتخير ثوباً يُبرز فتنة جسدها لكي تضمن النصر في المعركة المُقبلة.

ولحسن الحظ أن أمها قررت التخلف عن الحفلة، وهكذا

سينفسح لها السبيل لاستخدام كُل سلاح للإغراء وضعته الطبيعة بين يديها دون أن تحسب حساباً لنظرات أمها الثاقبة النافذة، أو لزمجرة مُربيتها الزنجية العجوز، وحملت إليها المُربية طعام الإفطار، وأشفقت سكارليت أن يُتلف الطعام نحول خصرها ويذهب برشاقتها فقالت:

- كلا، لن أتناول طعاماً الآن.

قطبت الزنجية حاجبيها قائلة:

- إن الفتيات اللاتي لا يأكلن كثيراً يُصبن بالهزال ولا يجدن أزواجاً.

- الحق أنني سئمت كُل هذا النفاق من أجل الحصول على زوج، إذا امتنعت عن الطعام في إحدى الحفلات قال الرجال: إنني مريضة، وإذا أقبلت عليه قالوا: إنني شرهة، وإذا دُعيت إلى الرقص تعين عليَّ أن أجيب الدعوة مرة، وأعتذر بالتعب مراراً، بينما أكون على استعداد للرقص طول الليل، وإذا حدثني أحد الحمقى من الرجال حديثاً أعرفه تعين علي بدافع اللياقة أن أتظاهر بالجهل إرضاءً لصلف الرجل وكبريائه، وغروره بسعة علمه، إنني ضقت ذرعاً بهذا النفاق.. وسوف يأتي يوم أضرب فيه باللياقة عرض الأفق فأقول ما أشاء، وأفعل ما أريد، أحب الناس أو كرهوا، عاونيني على ارتداء هذا الثوب الأبيض.

فرفعت الزنجية الثوب بين يديها وتأملته قليلاً، ثُم هتفت بلهجة الاستنكار:

- أترتدين هذا الثوب الفاضح؟ إنه يكشف عُنقك وصدرك وساعديك

ويكاد يُشبه الثياب التي يذهب الناس بها إلى الشواطئ.. كلا.. كلا.. سأستطلع رأي والدتك قبل أن أسمح لك بارتداء هذا الثوب.

فقالت سكارليت ببرود:

- إذا قلت لها كلمة واحدة فإني لا أذهب إلى الحفل، ولا أتناول طعاماً.

فتنهدت الزنجية، ولزمت الصمت.

الفصل الثالث

أخيراً تحركت المركبة في الطريق إلى مزرعة جون ويلكس حاملة جيرالد أوهارا وبناته الثلاث: سكارليت وسولانج وكارين، وكان وجه جيرالد يتهلل بشراً لمجرد التفكير في أنه سيقضي النهار بين رجال يشاطرونه حماسته، ويفهمون حديثه عن الحرب وسيقضي السهرة بين كؤوس الشراب وموائد الميسر، وتأمل الرجل بناته الثلاث وهن في ثيابهن الحريرية الملونة الفضفاضة أشبه بزهور تفتحت أكمامها ولم يتمالك من الشعور بالزهو والخيلاء لأنه أنجب أولئك الفاتنات الصغيرات. ونسي الحديث الذي دار بينه وبين سكارليت في الليلة السابقة وأصبح لا يذكر إلا أنها فاتنة ورشيقة، وأن عينيها اليوم أشد خضرة من سهول أيرلندا.

أما سكارليت فإنها نظرت لوالدها من ركن عينيها وشعرت نحوه بالحنان والإشفاق، كما تشعر الأم نحو ولدها المدلل، وكانت تعلم أنه سيُسرف في الشراب في تلك الليلة حتى يفقد صوابه، وسيحاول في عودته أن يثب فوق كل حاجز.. وسيحتقر الجسور والكباري ويُرغم جواده على اجتياز الأنهار والقنوات سابحاً وسيتلف ثوبه الأنيق ومتى استيقظ في الصباح أرغى وأزبد وسرد على هيلين قصة طويلة عن سقوط جواده في النهر في الظلام الدامس، وهي قصة لا تخدع أحداً.. ولكن الجميع يتظاهرون بتصديقها، فيشعر بالسرور والارتياح والخيلاء، لأنه

استطاع بدهائه أن يخدع الجميع.

قالت لنفسها وقلبها يزخر بالعطف عليه:

- إنه رجل ساذج طيب القلب، لا يسع الإنسان إلا أن يُحبه.

كانت تشعر بأنها فاتنة، وبأن إشلي سيكون لها قبل أن تغيب شمس ذلك النهار، ورقص قلبها طرباً حين تخيلت إشلي وقد أردفها على ظهر جواده في المساء. وانطلق بها في ضوء القمر وسط هذه الحقول المزدهرة، في الطريق إلى «جونزبورو» أو «أتلانتا». حيث يعقدان قرانهما. وسيقع النبأ على هيلين أوهارا وقع الصاعقة متى علمت أن ابنتها قد هربت مع خطيب فتاة أخرى، ولكنها ستصفح وتغفر متى وجدتها سعيدة هانئة، وسيرغي جيرالد ويزبد، ولكنه سيغتبط آخر الأمر بمصاهرة آل ويلكس.

قالت لنفسها: "على كُل حال هذه أمور يُمكن تسويتها بعد الزواج".

ورفعت عن جبينها خصلة من الشعر عبث بها النسيم، وقالت لنفسها وهي تجيل حولها عينين تتألقان بنور السعادة:

- قد يمر بي خمسون ربيعاً ولكني لن أنسى ما حييت هذا الربيع، وسأقول لأحفادي أنه أجمل من كُل ربيع سيشهدونه.

كان جون ويلكس يُقيم حفلاته في الحديقة المُترامية الأطراف التي

تُحيط ببيته الفخم، ولكي يكسب هذه الحفلات طابع الولائم الخلوية، ويسمح لمدعويه بأكبر قسط من الحُرية. فلما اقتربت المركبة من البيت كانت الحديقة تزخر بالرجال والنساء والأطفال والزنوج، وقد انتشر المدعوون تحت الأشجار وراحوا يتحادثون ويتضاحكون وذهب الزنوج يذرعون الحديقة حاملين المرطبات وكؤوس الشراب. وخُيل لسكارليت أن جميع أهل «جورجيا» قد دعوا إلى هذه الحفلة، فها هو مستر تارلتون الشيخ واقف بين ولديه بويد وتوماس، وبالقرب منهم ولداه التوأمان اللذان لا يفترقان ستيوارت وبرنيت، وذلك هو مستر كالفيرت، وولداه، جيمس وريفورد، وابنته الشقراء كاترين، وهذا هو الدكتور فونتان، ومستر مونرو... و... و... وعشرات من الأسر جاءت من فايتفيل و(جونزبورو) و(أتلانتا) و(ماكون).

كان جون ويلكس وابنته هانيا يستقبلان المدعوين بباب الحديقة فلما أبصرا بالمركبة تقدم مستر ويلكس، وهو مُتهلل الوجه، وشد على يد جيرالد بحرارة، وبسط ساعده لسكارليت. ووثبت سكارليت من المركبة، وحانت منها التفاتة لأختها سولانج ورأت على وجهها ابتسامة عريضة، وفهمت سر هذه الابتسامة، حين رأت فرانك كنيدي، يُهرول نحو المركبة لتحية سولانج.

فجأة تذكرت سكارليت خطتها، فسيطرت على شعورها وحيت فرانك كنيدي بابتسامة، سمرت الرجل في مكانه قبل أن يصل لأختها، وما كادت تسير في الحديقة بضع خطوات، حتى خف التوأمان لتحيتها

بحماسة، وأقبلت عليها بنات مستر مونرو ليبدين أعجابهن بثوبها الأنيق، ثم أسرع آخرون لاستقبالها، والتحدث إليها، ولم تلبث أن وجدت نفسها وسط حلقة كبيرة من الأصدقاء والمُعجبين، وجميعهم يتحدثون إليها بأصوات أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً، كأنما يحرص كل منهم على أن يحتكر انتباهها.

- ولكن أين إشلي؟ أين إشلي.. وأين ميلاني؟

إنها تختلس النظر حولها في البحث عنهما، إذ التقت عيناها بعيني رجل لا تعرفه، كان مُستنداً لجذع شجرة وهو يرمقها بنظرة جائعة وقحة أشعرتها بمزيج من الخجل والخيلاء، الخجل لأن ثوبها لا يكاد يستر صدرها وظهرها، والخيلاء لأنها أثارت إعجاب رجل لا تعرفه، وكان هذا الرجل يُناهز الخامسة والثلاثين من عمره طويل القامة متين البناء، ولم تذكر سكارليت أنها رأت من قبل رجلاً له مثل كتفيه العريضين، وساعديه المفتولين، وابتسم الرجل عندما التقت عيناه بعينيها، فانفرجت شفتاه عن أسنان بيضاء كأسنان الحيوان، وأبسطت أسارير وجهه الأسمر وتألقت عيناه السوداوان الجريئتان كما تتألق عينا القرصان إذا رأى سفينة تستحق أن تُغنم، أو امرأة تستحق أي تُسبى.

كانت ابتسامة تنم عن البرود والوقاحة والسخرية، وأحست سكارليت بأن هذه الابتسامة جديرة بأن تكون إهانة لها، ولكنها مع ذلك لم تشعر بأنها أهينت. أشاحت بوجهها دون أن تبتسم له، وقالت تُحدث التوأمين:

- يجب أن أرتب شعري؛ فانتظراني حتى أعود.

ثم استطردت بلهجة الدعابة:

- وحذار أن تلوذا بفتاة أخرى، وإلا كان انتقامي شديداً

وأسرعت للبيت وهي توزع نظراتها الفاتنة وبسماتها الساحرة يميناً وشمالاً، وما إن وضعت قدمها على درج السلم، حتى سمعت صوتاً خافتاً خجولاً يناديها؛ فنظرت خلفها، ورأت شارل هاملتون شقيق ميلاني، وكان شاباً حسن الطلعة تتلاعب على جبينه الناصع خصلة مُتمردة من شعره الأشقر الجميل، وقد كان –ككل شاب خجول – يُعجب بالفتيات الجريئات المُمتلئات بالحيوية أمثال سكارليت، فلما تحولت إليه، احمر وجهه خجلاً، وتضاعف خجله، واحتبست أنفاسه عندما رآها مُقبلة، ويداها مبسوطتان لتحيته.. هتفت:

- أهذا أنت أيها الغلام الجميل؟! يُخيل إليَّ أنك قطعت المسافة من «أتلانتا» لهنا، خصيصاً لكي تُحطم قلبي المسكين.

تجمد الشاب في مكانه، ولم يجد ما يفعله أو يقوله، أكثر من أن يتناول يديها بين يديه، ويُحملق في عينيها الخضراوين المتألقتين، وهكذا كانت الفتيات يتحدثن لغيره من الفتيان، أما هو فكان محروماً من مثل هذا الحديث. وكانت الفتيات يعطفن عليه، ويُعاملنه برفق كأخيهن الأصغر، ولكن لم تُحاول إحداهن قط أن تُداعبه، أو تُشجعه على مغازلتها وأولئك اللائي حاولن ذلك، ولاحظن خجله وتلعثمه انصرفن عنه

يائسات قانطات..

وها هي سكارليت تُداعبه، وتتهمه بتحطيم قلبها، وحاول أن يقول شيئاً فلم يسعفه ذهنه، ولم يسعه إلا أن يُباركها في سره لأنها استمرت في حديثها دون أن تدع له فرصة للكلام.. قالت له:

- انتظرني هنا حتى أعود؛ لأنني أريد أن أجالسك على مائدة الطعام، وحذار أن تتورط في مُغازلة الفتيات؛ لأنني شديدة الغيرة.

مست سكارليت ساعده بمروحتها في دلال وتحولت لتصعد درج السلم، وحينئذ التقت عيناها مرة أخرى بعيني ذلك الرجل الغريب الأسمر الذي كان يرقبها في الحديقة، ولم يكن ثمة شك في أنه سمع الحديث الذي دار بينها وبين شارل لأنه ابتسم بخبث وحدجها بنظرة خالية من الاحترام الذي ألفته.

ولما دخلت إحدى الغرف المخصصة للزائرات في الطابق الأول، وجدت كاترين كالفيرت تُصلح زينتها أمام المرآة، وتعض شفتيها لتُزيدهما احمراراً، فسألتها سكارليت وهي تُرتب شعرها:

- هل تعرفين هذا الرجل يا كاترين؟

أومأت بإصبعها من النافذة إلى حيث كان الرجل الأسمر ذو النظرات البهيمية الجريئة؛ فهتفت كاترين:

- ألا تعرفينه؟ إنه رايت بتلر

فرفعت سكارليت حاجبيها ولم تُجب.. خُيل إليها أنها سمعت بهذا الاسم مُقترناً بإحدى الفضائح، ولكنها لم تذكر شيئاً بدقة.. قالت كاترين:

- إن الرجل جاء من (جونزبورو) ليبتاع قطناً من فرانك كنيدي، ولم يجد كنيدي من اللياقة أن يترك ضيفه وحيداً، فاصطحبه معه لهذه الحفلة، رغم أنه يعلم أن جميع الناس ينفرون منه، وأن أحداً لا يستقبله في بيته.

فحركت هذه الكلمات فضول سكارليت، وسألت باهتمام:

- ولماذا؟!

- إن سُمعته غير مُشرفة، وقد تبرأ منه أهله وقاطعوه بسبب تلك الفتاة التي أبي أن يقترن بها.

- أوضحي أكثر.. إنني لا أعرف هذه القصة.

- يُقال إنه اصطحب إحدى فتيات (شارلستون) لنزهة في الخلاء ولم يعد بها إلا في صباح اليوم التالي، ولما سُئل زعم أنه ضل بها الطريق وسط الغابة ولك أن تتصورى ماذا.

فقاطعتها سكارليت بحدة:

- إنني لا أتصور شيئاً.. أنبئيني بما حدث.

- إنه رفض الاقتران بها، قائلاً أنه لم يمسها، وأنه لا يرى لماذا يجب أن يقترن بها، فدعاه أخوها لمبارزته وكان جواب رايت بتلر أنه يُفضل

القتل على الاقتران بفتاة حمقاء، وقد تمت المبارزة في ذات اليوم. فقُتل شقيق الفتاة، واضطر بتلر لمغادرة المدينة. ومنذ ذلك الوقت وهو منبوذ مكروه، وجميع الأسر تتجنبه، وترفض استقباله ...

فسألتها سكارليت في همس:

- وهل حملت منه الفتاة؟

فهزت كاترين رأسها وأجابت:

- لا أعلم، ولكن سُمعتها ضاعت على كُل حال.

هُنا فكرت سكارليت فجأة:

- حبذا لو وقع لي مع إشلي ما وقع لتلك الفتاة مع بتلر، فإشلي من الشهامة والنُبل بحيث لا يأبى في مثل هذه الحالة أن يقترن بي.

حان موعد الغداء، ووزعت الموائد الصغيرة بجوانب الحديقة، وجلست سكارليت أمام إحدى الموائد يُحيط بها سبعة من المُعجبين بها، ومع ذلك وعلى الرغم من أنه لم يجتمع لفتاة أخرى مثل هذا العدد من المُعجبين فإنها كانت تشعر في قرارة نفسها بالشقاء والتعاسة، فلقد فتنت كُل شاب في الحفلة عدا إشلي.

وعاودتها مخاوف الأمس، فراح قلبها يهرول ويبطئ، ووجهها يحتقن ويمتقع، كلما حدث ما ينعش آمالها أو يعصف بها، ولم يحاول إشلي قط أن ينضم لحلقة المُعجبين بها، بل ولم يبادلها كلمة واحدة.

وعندما قابلها صُدفة وشد على يدها مُحيياً كانت ميلاني تستند لساعده، وميلاني فتاة صغيرة الحجم نحيفة الجسم يُخيل للناظر إليها أنها طفلة تخطر في ثوب أمها، وتكاد من فرط حيائها وخجلها أن تفر من كل إنسان، ولكنها كانت (كما تبدو من مظهرها) بسيطة كالأرض، طيبة كالخبز. وقد ابتسمت في خجل حين صافحت سكارليت، وعبرت لها عن إعجابها بثوبها الأبيض الأنيق، وبلغ من حُنق سكارليت وموجدتها، ورغبتها المُلحة في الانفراد بإشلي أن احتبست أنفاسها، ولم تُسعفها قريحتها بكلمة مُناسبة ترد بها على هذه المُجاملة.

كان وجه ميلاني يُضيء كُلما تطلعت لإشلي والواقع أنه لو كان هناك قلب مُحب تنعكس إحساساته على وجه صاحبه فهو قلب هذه الفتاة الصغيرة الرقيقة، وعبثاً حاولت سكارليت أن تُشيح بوجهها، وتتجنب النظر إليهما، وكانت تُسرف في مداعبة جلسائها، وتضحك بصوت يتجاوب صداه في جوانب الحديقة. ولكن لم يبد على إشلي أنه يُلقي إليها بالاً أو يشعر بوجودها، فلقد كان مُنصرفاً لميلاني ويُبادلها النظرات والبسمات.

فاز شارل بأكبر نصيب من رياء سكارليت واهتمامها المُصطنع، فثبت لجانبها وأبى أن يتزحزح من مكانه رغم الجهود التي بذلها التوأمان ستيوارت وبرنيت، ورفض أن ينظر نحو (هانيا) التي كادت أن تنفجر باكية.

وأخيراً، رُفعت الموائد وانتشر المدعوون بالحديقة وعادوا

لأحاديثهم وهرجهم مرة أخرى، ثُم ما لبثت أصواتهم أن خفتت تدريجياً وأصابهم الخمول بتأثير حرارة الشمس والطعام. وثقلت جفون السيدات. وانتظرن بفارغ الصبر أن يُدعين للراحة داخل البيت استعداداً لحفلة المساء.

فجأة، ارتفع صوت جيرالد أوهارا وهو يقول بحماسة مُحدثاً جون ويلكس:

- ماذا تقول؟ أتأمل بالسلام بعد أن أصليناهم ناراً حامية في قلعة (سومتر) كلا.. كلا.. يجب أن يثبت الجنوب بحد السيف إنه لا يقبل الإهانة، وإنه لا ينفصل عن الاتحاد الأمريكي كرماً من الاتحاد وإحساناً ولكنه ينفصل بقوة سلاحه، وبسالة رجاله.

فعلت هذه الكلمات بنفوس الرجال فعل النار بالهشيم، فذهب عنهم الخمول وهبوا من أماكنهم، وتأهب كُل منهم للمساهمة برأيه بحديث الحرب، وكانوا في الصباح قد اجتنبوا أحاديث السياسة والحرب نزولاً على إرادة صاحب البيت حتى لا يدخل السأم على نفوس السيدات، ولكنهم ما كادوا الآن يسمعون كلمات جيرالد أوهارا، حتى ضربوا بإرادة صاحب البيت عرض الأفق، قال قائل:

- إنهم يُريدون الحرب وسنُذيقهم أهوالها.

وهتف آخرون:

- يجب أن نُقاتلهم.

- سنجتاح ولايات الشمال قبل انقضاء شهر واحد.

- إن الرجل من أهل الجنوب كُفء لعشرين من أهل الشمال.

- هل رأيتم.. كيف احتقر إبراهام لنكولن مندوبينا وسخر منهم؟

ولم يتحمس شارل هاملتون مع المُتحمسين، ولم يبرح مكانه، وانتهز فرصة انفراده بسكارليت، وقال بجرأة لا عهد له بها:

- لقد قررت إذا نشبت الحرب أن أنخرط بسلك الجندية وانضم لفرقة الفرسان التي ألفها جيمس هامبتون في ولاية كارولينا الجنوبية.

قالت لنفسها: "ماذا يُريد مني هذا الأحمق، هل يُريدني أن أهتف له؟"

ولم تجد ما تقوله أو تفعله أكثر من أن تنظر إليه وتُعجب لحماقة الرجال الذين يتوهمون أن النساء يُقمن وزناً لمثل هذه الشؤون. وظن الفتى أن نظرتها تنم عن الدهشة والإعجاب، فاستطرد بسرعة وجرأة:

- إذا ذهبت إلى ميدان القتال؛ فهل تأسفين لفراقي؟

- سوف آسف كل ليلة.

وغابت سخريتها على فطنته، فاحمرّ وجهه سروراً وغبطة وتناول يدها بين يديه وقال وقد أذهلته جرأته ولطفها:

- هل تبتهلين إلى الله من أجلي؟

فقالت لنفسها: "يا إلهي... ما أشد حماقته!" ثم أجابت:

- طبعاً... طبعاً.. سوف أبتهل من أجلك ليل نهار.

فتريث قليلاً ليلتقط أنفاسه ويُسيطر على حواسه، ثُم أجال حوله نظرة سريعة.. كانا وحدهما، ومن المؤكد أنه لن تسنح له فرصة أخرى كهذه، قال بسرعة قبل أن تخونه شجاعته:

- أريد أن أقول لك شيئاً يا سكارليت، إنني أحبك...

ولكنها لم تسمعه، إما لأن صوته ذهب خافتاً مُختلجاً، أو لأنها كانت في شغل عنه بالبحث عن فجوة بين جموع الرجال تُرسل منها البصر إلى حيث كان إشلي وميلاني.

قال في همس، وهو ثمل بنشوة الفرح لأنها لم تضحك ساخرة، ولم تصرخ وتُصب بالإغماء كما خُيل إليه أن الفتيات يفعلن في مثل هذه الظروف:

- نعم.. أنا أحبك.. وأنت.. وأنت.

وأسعفه لسانه لأول مرة في حياته:

- وأنت أجمل وأرق، وأعذب فتاة عرفتها، لا أمل لي في أن تُحبي رجلاً مثلي، ولكن إذا قُلتِ لي كلمة تشجيع فإنني أفعل كل ما يحببني إليك.. سوف...

وكف عن الكلام؛ لأنه لم يعرف ماذا يستطيع أن يفعل لكي تُحبه،

أو لكي يبرهن لها على قوة عاطفته فقنع بأن قال في بساطة:

- فهل تقبلينني زوجاً لك؟

انتبهت سكارليت فجأة وأفاقت من ذهولها عندما سمعت كلمة «زوجاً»، وكانت في تلك اللحظة تُفكر في زواجها من إشلي، فنظرت لشارل ولم تستطع إخفاء احتقارها، ونفورها، لماذا اختار الأحمق هذا اليوم بالذات ليُطارحها الغرام؟ وهي توشك أن تفقد عقلها هما ويأساً؟ ونظرت في عينيه السوداوين الضارعتين، ولم تر فيهما السعادة التي تجرف قلبه، واللهب الذي يسري في دمه، وفقط رأت أمامها فتى في العشرين من عمره قد احمر وجهه خجلاً حتى بات كقطعة من البنجر يصب في أذنيها عبارات الغرام في وقت شُغل فيه عقلها وحواسها بأمور أهم.

ودت لو كان في استطاعتها أن تقول له كم هو أحمق، ولكنها تذكرت بالوقت المناسب الكلمات التي علمتها هيلين أوهارا أن تلجأ إليها بمثل هذه الأزمة، فنكست رأسها في حياء مُصطنع وغمغمت:

- إن طلبك يدي يُشرفني يا مستر هاملتون، ولكنك فاجأتني به، فلا أعلم ماذا يجب أن أقول.

وهو جواب يدل على البراعة واللباقة؛ لأنه يُرضى خيلاء الرجل، ويُبقيه في ذات الوقت مُعلقاً بخيط الأمل، هتف الشاب بحماسة:

- سأنتظر إذن حتى تُفكري في الأمر، وتسألي قلبك، وتسبري غور

مشاعرك، وفقط أضرع إليك أن تقولي لي هل أستطيع أن أرجو؟

وفي هذه اللحظة، نفذت نظراتها الحادة إلى حيث كان إشلي، فرأته يتطلع لميلاني ويبتسم لها.. يا إلهي!.. ألا يكف هذا الأحمق عن الكلام؟.. لعلها تسمع ما يقول إشلي لصاحبته؟.. هتفت به بشيء من الغلظة والخشونة:

- صه...

فذُهل الشاب وخجل، ولاحظ أن عينيها لا تتحولان عن أخته ميلاني فابتسم وارتفع عندئذ صوت جيمس تارلتون وهو يقول:

- وأنت يا إشلي.. ما رأيك؟

فنظر إشلي لميلاني مُعتذراً، ثُم نهض واقفاً. وخيل لسكارليت وهو يدنو من حلقة الرجال وأشعة الشمس تنعكس على شعره الأشقر أن ليس بين القوم من يضارعه أناقة ورجولة، وصمت الرجال حتى الشيوخ منهم انتظاراً لرأيه.. قال:

- إذا اشتبكت ولايات الجنوب في حرب، فلا شك أنني أحارب معها، ولكني كأبي أرجو أن يتركنا أهل الشمال في سلام، فلا نضطر لحمل السلاح.

ارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار من كُل ناحية، وابتسم إشلي برفق واستطرد:

- نعم.. نعم.. أعلم أن أهل الشمال أهانونا، وكذبوا علينا ولكن لو كنا في مركزهم وحاولوا هُم أن ينسلخوا عن الاتحاد الأمريكي، ما فعلنا بهم غير ما فعلوه بنا؛ فالأفضل لنا جميعاً أن نُقلع عن هذه الحماسة الجوفاء، ونتجنب الحرب ما استطعنا لذلك سبيلاً، فالحرب هي على شقاء العالم وبؤسه وآلامه، وعندما تضع الحرب أوزارها يتساءل الناس في الغالب لماذا نشبت، ولماذا اندلعت نيرانها؟

كان إشلي معروفاً بالشجاعة، ولولا ذلك ما قنع الشباب المُتحمس بتقطيب حواجبهم، وجمع قبضات أيديهم، وصاح ستيوارت تارلتون وعيناه تتألقان:

- ماذا تقول يا رجل، باستطاعتنا إبادتهم في أقل من شهر، بل وبمعركة واحدة.

هُنا سمع القوم صوتاً هادئاً يقول:

- هل تسمحون لي بكلمة أيها السادة؟

فتحولوا جميعاً للمُتكلم ورأوا رايت بتلر مُستنداً لجذع شجرة، ويده في جيب سرواله، وعلى وجهه وبعينيه دلائل الاحتقار وقلة الاكتراث، قال:

- هل فكرتم في أنه لا يوجد بولايات الجنوب مصنع واحد للأسلحة؟ وهل سألتم كم يوجد بولايات الجنوب من مصانع الفولاذ، ومغازل القطن؟ وهل فكرتم في أننا لا نملك سفينة حربية واحدة، وولايات

الشمال تستطيع أن تحصر موانينا في خلال أسبوع وتمنعنا من بيع قطننا بالخارج؟ أنا واثق أنكم فكرتم في كُل هذا.

لاحظت سكارليت ما تنطوى عليه كلماته من الهزء والسخرية، ولاحظ ذلك الحاضرون فصعد الدم لوجوههم، وكشروا عن أنيابهم، وانتقل جون ويلكس من مكانه بخفة ولباقة، ووقف إلى جانب رايت بتلر كأنما يُذكر القوم بأنه ضيفه.. ويجب ألا يُصيبه أذى في بيته.

- إن عيبنا أننا لا نقوم برحلات كثيرة، فماذا رأيتم في أسفاركم؟! إنكم رأيتم الفنادق والمتاحف والملاهي وبيوت الميسر، وعدتم لبلادكم وأنتم تُقسمون بأنه لا يوجد في الدنيا مكان أفضل من ولايات الجنوب. أما أنا فقد قضيت عدة أعوام في الشمال، ورأيت أشياء كثيرة ومناجم الحديد والفحم، وأنا واثق أنهم سوف يضربوننا الضربة القاضية قبل انقضاء شهر واحد.

وصمت، وساد السكون لحظة، ثُم امتلأ الجو بغمغمة استنكار وغضب، وكأنه قد هز بيده فجأة خلية نحل. وشعرت سكارليت في قرارة نفسها بأن هذا الرجل لم يقل إلا حقاً ومع ذلك أما كان من الكياسة والأدب أن يُجنب القوم سماع هذه الحقيقة المؤلمة.

وشق سيتوارت تالتون لنفسه طريقاً ولحق به برنيت على الأثر، وتوقع الجميع عراكاً لا شك فيه وتزاحمت النساء بفضول ليشهدن كيف يكون العراك بين الرجال، قال ستيوارت بصوت أجش:

- ماذا تعني يا سيدي؟

فأجاب رايت بتلر في أدب، وهو ينظر إليه بعينين ساخرتين:

- الاسم؟ إنني أعني ما عناه نابليون حين قال "إن الله مع الفريق الأقوى"

ثُم تحول إلى مُضيفه، وقال في أدب مُصطنع:

- إنك وعدتني بأن تسمح لي بزيارة مكتبتك يا سيدي، فهل أكون مُتطفلاً إذا رجوتك أن تبر بوعدك الآن؟ ذلك لأن أعمال تضطرني إلى العودة إلى جونزبورو بعد ظهر اليوم.

وأسرعت خانيا ويلكس إلى حيث كان سيتوارت تارلتون جامداً في مكانه لا يتحرك، ولم تسمع سكارليت ماذا قالت هانيا، ولكنها رأت النظرة التي ارتسمت في عينيها وأحست بما يُشبه وخز الضمير، لو أنها لم تُشجع ستيوارت على مُغازلتها حين قابلته في إحدى الحفلات منذ عام.. إذن لاقترن الشاب بهانيا منذ وقت طويل. ولكنها لم تلبث أن هزت كتفيها. هل الذنب ذنبها، إذا كانت الفتيات الأخريات لا يعرفن كيف يحتفظن بأصدقائهن؟!

وفجأة قصدت السيدات للبيت التماساً للراحة والنوم في مخادعه الفسيحة، ومشى إشلي إلى حيث كان شارل هاملتون وسكارليت أوهارا وقال وهو يشيع بتلر بنظرة غامضة:

- يا له من شيطان وقح.. إنه يُذكرني بأسرة بورجيا.

- إنني لا أعرف هذه الأسرة.. هل هُم أحد أفرادها؟

- إن بورجيا هو اسم أسرة إيطالية اشتهرت بشرورها.

- آه.

هزت كتفيها، وتطلعت لإشلي وعلى شفتيها أعذب ابتسامة، وكان ينظر لشارل وعلى وجهه آية إدراك وإشفاق، فهبطت سكارليت السلم بخفة وسرعة ووَقفت عند الطابق الأول، وأرهفت أذنيها؛ لم تسمع غير لغط مُبهم وضحكات خافتة منبعثة من الطابق الثاني حيث اضطجعت الفتيات في التماس الراحة والنوم استعداداً للسهرة التي جرت العادة أن تستمر حتى شروق صباح اليوم الجديد..

وكانت سكارليت قد استوثقت من أن ميلاني وهانيا وكلوديت تارلتون قد خلعن ثيابهن وتحررن من قيود الزينة وتمددن بأسرتهن فخرجت تبغي لقاء إشلي مهما كلفها ذلك، وأرسلت بصرها من النافذة التي تطل على الحديقة ورأت إشلي واقفاً بباب الحديقة يودع بعض الضيوف الذين رغبوا في الانصراف. فهبطت السلم مُسرعة، وقلبها يثب بين ضلوعها. يجب أن تراه، وأن تخلو به، ولكن كيف وأين؟

دخلت غُرفة المكتبة، وحاولت أن تُهدئ توتر أعصابها وخفقان قلبها وأن تتذكر الخطة التي وضعت تفاصيلها بالأمس والكلمات التي عنيت باختيارها لتقولها لإشلي حين تنفرد به، ولكن الذاكرة خانتها

واستولى عليها الذعر والهلع. يا إلهي ألا يُبطئ قلبها في ركضه.. إنه يثب في صدرها وينبض بأذنيها ويمنعها من التفكير، وتضاعف خفقان قلبها حين سمعت وقع أقدام إشلي وهو يصعد السلم.

كم تُحبه وتُحب كُل ما يتصل به من رأسه الأشقر لحذائه اللامع ومن ضحكاته لصمته، ليته يقتحم عليها الغرفة الآن ويحتويها بين ساعديه ويوفر عليها عناء التفكير فيما يجب أن تقوله.

مر إشلي بباب الغُرفة ولمحها وقال بصوت خُيل إليها أنه الموسيقى وسط الهدير الذي يملأ أذنيها.

- سكارليت! أهذه أنت؟!

ونظر إليها بإمعان، ثم استطرد بلهجة الدعابة:

- عمن تتوارين؟... عن شارل؟.. أم عن ستيوارت؟

إذاً قد لاحظ كيف ازدحم الرجال حولها، وكيف تنافسوا عليها؟ ولم تقو على الكلام، ومدت يدها إليه وجذبته لداخل الغُرفة فدخل وقد تولاه الدهشة والفضول. ولم يرها لامعة العينين، موردة الخدين، لاهثة الأنفاس كما يراها الآن. أغلق الباب وراءه بحركة آلية، وتناول يدها بين يديه وسأل بصوت خافت:

- ماذا؟

ارتجفت عندما لمس يدها، ولكنها لم تُوفق لصياغة أحدها في

كلمات، ولم تستطع إلا أن تنظر إليه بعينين ضارعتين كأنها تتوسل إليه أن يقول شيئاً، قال:

- ماذا...؟ هل تُريدين أن تبوحي لي بسر؟

هُنا انحلت عقدة لسانها، ونسيت فجأة كُل ما تعلمته عن الكرامة والحياء وأجابت:

- نعم، أريد أن أبوح لك بسر... إنني أحبك.

أعقبت هذا الاعتراف فترة سكون شامل، خُيل معها أن كُلاً منهما قد كف عن التنفس، ثُم زال عنها الذُعر والفزع فجأة، وأفسحا سبيلاً للسعادة والخُيلاء. لماذا لم تفعل قبلاً ما فعلته الآن، أليست الصراحة أجدر وأيسر من أساليب اللف والدوران التي تلجأ إليها جميع النساء. ونظرت في عينيه، ورأت فيهما الدهشة وشيئاً آخر.. شيئاً رأته في عيني أبيها يوم سقط عن ظهر جواده وكُسرت ساقه.

وبعد ثوان مرت كأنها دهور ابتسم إشلي ابتسامة مرحة وقال:

- ألا يكفي أنك غزوت اليوم جميع القلوب؟ وبعد، فأنت تعلمين أن قلبي لك منذ زمن طويل.

ولكنها كانت تتوقع جواباً غير هذا، جواباً أفصح وأصرح، هتفت:

- لا محل الآن للدعابة يا إشلي.. أحقا أن قلبك... أواه يا إشلي.. إنني.

ولم تتم عبارتها لأنه وضع يده على فمها بسرعة، وغمغم:

- لا تقولي كلاماً كهذا يا سكارليت، ستكرهينني عما تقولينه لي.

ولكنها حركت رأسها بعنف قائلة:

- لن يكون في مقدوري أن أكرهك، إنني أحبك، وأعلم أنك تحبني.. لأن..

ورأت على وجهه مسحة بؤس وشقاء لم ترها على وجه إنسان قبلاً؛ فصمتت لحظة، ثم استطردت:

- قُل إنك تُحبني يا إشلي... ألست تحبني؟

فقال في أدب:

- نعم... إنني أحبك.

ولو قال أنه يكرهها ويحتقرها ما حزت كلماته قلبها كما حزت هذه العبارة الفاترة، تعلقت بساعده لتمنع نفسها من السقوط، ولم تنطق بكلمة أخرى. قال إشلي:

- ألا نستطيع أن ننصرف من هنا وننسى للأبد هذا الحديث؟

- كلا، لا أستطيع. ماذا تعني؟ ألا تُريد أن... أن تقترن بي؟

- إنني سأقترن بميلاني.

ووجدت نفسها عندما ملكت حواسها جالسة في مقعد كبير

وإشلي مُمسك بيديها وهو يقول كلاماً، وشعرت بأن في ذاكرتها فراغاً، وأن ذهنها قد خلا من الأفكار والتأملات التي كانت تزدحم فيه مُنذ لحظة، ولم تترك كلمات إشلي في نفسها ووعيها من الأثر إلا ما تترك قطرات الماء على لوح من الزجاج، وكان يتحدث إليها في رفق ودعة وإشفاق، كما يتحدث الأب لولده ليُرفه من ألمه ولم تلق كلماته أذناً صاغية، أو نفساً واعية، قال:

- سيُعلن أبي خطوبتنا الليلة، وسنتزوج قريباً، وكان يحسن بي أن أقول لك ذلك. ولكني حسبتك تعلمين، بل كُنت أحسب أن كل إنسان يعلم، ولم يخطر لي ببال إنك، ثم أن لك عشاقاً كثيرين، وفي مُقدمتهم ستيوارت الذي...

ودبت الحياة في جسدها من جديد، وبدأت تحس، وتدرك. قالت:

- ولكنك قلت في التو واللحظة أنك تُحبني...

فضغط يدها بين يديه بقوة وأجاب:

- أتريدينني أن أقول لك أشياء تؤلمك أيتها العزيزة؟!

فلم تُجب... قال:

- إنك ما زلت طفلة ساذجة لا تعرفين معنى الزواج.

- ولكني أعرف أنني أحبك.

- الحب وحده لا يكفل السعادة لاثنين مثلنا يختلفان طبعاً وخُلقاً،

ومثلك من تريد الزوج على أن يكون لها جسداً وروحاً وقلباً وفكراً، فإذا لم يكن لك ما تريدين. امتلأت حياتك شقاءً ومرارة. وإني ضنين بكياني. لا أنزل عنه لكائن من كان، فإذا جمع الزواج بيننا صارت حياتك جحيماً لا يُطاق، واستحال حُبك لي إلى مقت وكراهية. فستكرهين الكتب التي أقرأها والموسيقى التي أحبها. لا لشيء إلا لأنها تصرفني عنك بعض الوقت، ومن المحتمل...

- هل تحبها؟؟

- إنها مثلى، ومن ذوى قرابتي، وفي عروقها مثل الدم الذي يجري في عروقي. وكلانا يفهم صاحبه، ويجب أن تعلمي أيتها العزيزة أن الزواج لا يُمكن أن يجلب السعادة، ما لم يتشابه الزوجان.

- ولكنك قلت إنك تحبني.

- ما كان يجب أن أقول ذلك.

وخيل إليها أن شيئاً في عقلها قد انفصم، وبدأت نار الغضب تستعر في دمها. صاحت:

- ما دامت نذالتك قد طوعت لك أن تقول ذلك، فإن...

فامتقع وجهه وقاطعها:

- نعم، كان من النذالة أن أقول ذلك، لقد أخطأت بحقك. وأخطأت بالأكثر في حق ميلاني، ولكن كيف لي أن أنكر أنني أحبك لحيويتك

الجارفة التي افتقر لكل ذرة منها، أنت التي تجدين في مقدورك أن تُحبي وأن تكرهي بعنف يستحيل عليَّ أن أضارعك فيه؟ إنك جارفة كالنار والهواء، بينما...

- إنك جبان وتخشى الاقتران بي، قُل إنك تُؤثر الحياة مع تلك المخلوقة البلهاء التي لا تستطيع أن تفتح فمها إلا لتقول «نعم» أو «لا».. قُل...

- لا يجب أن تتحدثي هكذا عن ميلاني.

- أيها النذل... أيها الجبان... إنك جعلتني أعتقد بأنك ستقترن بي.

- كوني مُنصفة يا سكارليت. هل حدث يوما أنني...

- نعم... لم يحدث يوماً أن تجاوزت الصلة بينهما حدود الصداقة البريئة، ولكن الصدمة التي أصابت كبرياءها في الصميم قتلت فيها كل شعور بالإنصاف. فأحست بأنها امرأة مُهانة، وإنها طاردت هذا الرجل فأذلها، وأعرض عنها، ودمغها للأبد بميسم العار.

وثبت على قدميها، وصاحت وشرر الغضب يتطاير من عينيها:

- سأمقتك ما حييت أيها النذل، أيها الوضيع، أيها ...

وبحثت في ذهنها عبثاً عن شتمة قبيحة تُعبر عن مبلغ ازدرائها واحتقارها.

قال راجياً: "سكارليت... بحق السماء"...

ولكنها عاجلته بصفعة كانت لها في الغرفة الهادئة فرقعة كفرقعة السوط.

تركت يدها على وجهه الأبيض علامة حمراء، ولكنه لم ينطق بكلمة، وتناول يدها ورفعها لشفتيه وقبلها، وانصرف، وأغلق الباب وراءه في هدوء.

تهالكت سكارليت على المقعد، وقد خارت قواها، وسمعت وقع أقدامه وهو يبتعد، وهالها ما فعلت؛ لقد فقدته إلى الأبد.. إنه سيمقتها ويحتقرها وسيذكر كُلما وقع بصره عليها إنها ترامت على قدميه فرغب عنها وزهد في فتنتها وجمالها.. وضرب بتوسلاتها عرض الأفق، وكان هدوء الغرفة لا يُطاق، حتى همت بأن تصيح لتُبدد السكون الذي يُحيط بها.

يجب أن تفعل شيئاً، أو تُجن.. ووقع بصرها على آنية من الخزف؛ فتناولتها بسرعة، وقذفت بها الموقد بعنف. فانفجرت بصوت مدو، وانتثر حطامها، وحينئذ سمعت صوتاً من جوف أحد المقاعد يقول بلهجة الاستنكار: "إن هذا لكثير"...

لم تشعر سكارليت طيلة حياتها بمثل الرعب الذي شعرت به عندما سمعت هذا الصوت.. خارت قواها، وارتجفت ركبتاها، وجفّ لعابها، وقبل أن تملك حواسها نهض رايت بتلر من مقعد بين خزائن الكتب، وصعدها بعينيه الساخرتين، وقال وعلى شفتيه ابتسامة عريضة:

- بحسب الإنسان مضايقة أن يوقظ من نومه ليسمع مثل الحديث الذي سمعته في التو واللحظة، أما أن تستهدف حياته بعد ذلك للخطر ويستهدف رأسه للأواني المتناثرة فذلك كثير!

لم يكن المتكلم شبحاً، كان رجلاً بلحمه وعظمه، وقد سمع هذا الرجل كل شيء، جمعت قواها المتخاذلة، ولمت بقايا كبريائها المهانة، وهتفت:

- سيدي.. كان ينبغي عليك أن تُشعرنا بوجودك.

فحدجها بعينين جريئتين ضاحكتين وأجاب:

- أحقاً تقولين؟؟ ولكنك أنت التي اقتحمت الغرفة عليَّ. لقد شعرت بأن القوم يتململون مني، ويرغبون في عدم وجودي بينهم، فانزويت في هذه الغرفة آملا ألا يُزعجني أحد، ولكن.. وا أسفاه..

وهز كتفيه العريضتين وضحك بصوت خافت. جُن جنون سكارليت عندما فكرت في أن هذا الرجل الفظ الوقح عرف سرها وسمع كلاماً تتمنى الآن لو أنها ماتت قبل أن تنطق به. صاحت في غضب:

- إن الجواسيس...

- إن الجواسيس يسمعون في بعض الأحيان أشياءً غاية في الطرافة والأهمية، وقد أقنعتني تجاربي الطويلة في الجاسوسية بأن...

فقاطعته ببرود:

- سيدي.. إنك لست رجلاً مُحترماً.

- هذه ملاحظة في محلها، ولكنك كذلك لست سيدة مُحترمة.

وضحك واستطرد:

- لا توجد سيدة محترمة تقول ما قلت أو تفعل ما فعلت، وأنا عادة لا أكترث للنساء، ولا أُعجب بهن، إنني أعلم فيم يفكرن، ولكنهن لسن من الشجاعة أو فساد التربية بحيث يكشفن عما يدور في خلدهن، أو يعتمل في نفوسهن لحقير مثله.

قاطعته في غضب:

- إنك لست جديراً بأن تمسح حذائه.

- ماذا أسمع!! لقد حسبت أنك ستمقتينه مدى الحياة.

وغاص في أحد المقاعد، وراح يضحك بصوت خافت، ووجدت أنه لم يبق لها إلا أن تنقذ ما يُمكن إنقاذه من كبريائها، وسارت للباب بخطوات واسعة وأغلقته وراءها بعنف، وصعدت درج السلم مُسرعة، وما أن بلغت باب الطابق الأول حتى خارت قواها وأحست بأنها ستفقد الرشد فاستندت لحاجز السلم. إذا أغمى عليها، وسقطت فماذا يقول القوم؟! ستذهب الظنون في أمرها كل مذهب، وقد يفضح إشلي أو ذلك الرجل الخبيث رايت بتلر سرها، فتسخر منها الفتيات. كلا.. كلا.. لا يجب أن تفقد الرشد بحال..

وتماسكت، وحاولت أن تُسيطر على مشاعرها وتُهدئ خفقان قلبها وتكسو ملامحها مسحة من الهدوء والرزانة حتى لا تقرأ الفتيات في وجهها شيئاً مما حدث. وحانت منها التفاتة إلى النافذة المُطلة على الحديقة، ورأت الرجال يتهادون ويسمرون بين الأشجار؛ فغبطتهم، وشعرت بالغيرة والحسد، ما أجمل أن يكون الإنسان رجلاً، فلا يستهدف لمثل هذه المذلة التي استهدفت لها منذ دقائق.

وسمعت في هذه اللحظة وقع حوافز جواد يقترب بسرعة، ثم رأت فارساً يقتحم طريقه داخل الحديقة، لعله ضيف جاء متأخراً، ولكن لماذا اقتحم بجواده حقول الزهر التي كانت دائماً موضع عناية هانيا ويلكس وخيلائها؟

لاحظت أنه وثب عن ظهر جواده بسرعة وأمسك بساعد جون ويلكس وراح يتحدث إليه باهتمام شديد، وما لبث سائر المدعوين أن داروا بالرجلين، وجعلوا يمطرون الفارس بالأسئلة، وفي حركاتهم وعلى وجوههم دلائل الاهتمام والانفعال، وأسرع أكثر الرجال لجيادهم فامتطوها وانطلقوا ينهبون الأرض نهباً.

قالت لنفسها: "لا شك أن حريقاً شب في مكان ما". لم يكن يُهمها أن تحترق الولاية كلها، إنما المهم أن تتسلل لفراشها قبل أن يفتضح سرها وتفطن الفتيات لغيابها.. أتى صوت هانيا ويلكس، وكانت تقول:

- إن سلوك سكارليت اليوم كان مُلفتا للأنظار...

فوثب قلب سكارليت بين جنبيها، وطغت في ذاكرتها كلمات سمعتها منذ دقائق:

- إن الجواسيس يسمعون في بعض الأحيان أشياء غاية في الطرافة والأهمية.

وخطر لها لأول وهلة أن تفتح الباب وتدخل، وتخجل هانيا، على أنه لم تكن هناك قوة في الوجود تستطيع أن تحركها من مكانها عندما سمعت على الأثر صوت ميلاني وهي تقول:

- لا تقسي عليها يا هانيا، لئن كان لها عيب فهو إنها مرحة عابثة لعوب.. وأقول لك أنني أحبها.

فعضت سكارليت على شفتيها حتى أدمتها، وكان هذا الإطراء آلم لنفسها من وخز هانيا، ذلك لأنها تربت على إساءة الظن بجميع النساء عدا أمها.

جمعت أطراف ثوبها حتى لا يسمع له حفيف، وهبطت السلم بسرعة. وقد اعتزمت أن تُطلق ساقيها للريح حتى تصل إلى بيتها. ولكنها ما كادت تهبط السلم وتقترب من الباب حتى خطر لها خاطر آخر، لماذا تعود إلى بيتها؟ ولماذا تفر؟

كلا يجب أن تبقى وأن تصمد لأعدائها وتحمل عارها بصبر وجلد

حتى لا تفسح لغريماتها سبيل الفوز والشماتة، وحتى لا تُهيئ بفرارها غذاءً للحقد الذي يملأ قلوبهن، فقالت بحزم:

- سأبقى هنا، ولن أعود للبيت، وسأجعلهن يندمن.

وما أن استدارت حتى وجدت خلفها شارل الذي جمع أطراف شجاعته وقال

- ما رأيك أن نشن حربا ضروسا لن تدوم إلا شهراً أو بعض شهر ريثما نُرغم أبراهام لنكولن ورجاله على السجود، وأكبر الظن أنه لن يكون هُناك رقص هذا المساء. فقد انطلق الرجال إلى (جونزبورو) للانضمام إلى فرقهم.

فهتفت سكارليت: أحقا تقول؟! وكان اضطرابها قد زال واسترد ذهنها صفاءه وبدأت أفكارها تتركز وتنتظم في مجرى واحد وهو "نعم".. لماذا لا تقترن بهذا الفتى الساذج الجميل؟ إنها فقدت إشلي، ولن يهمها الآن من يكون زوجها. قال شارل:

- إنني حائر لا أعلم هل أنضم لجيش الكولونل جيمس هامبتون أم ألتحق بحرس مدينة (أتلانتا).

فرمقته سكارليت بعينيها الرائعتين، وهتف وقتها:

- هل تنتظرينني حتى أعود يا سكارليت؟؟ لست أطمع في سعادة أعظم من أن أعلم أنك تنتظرينني.

نظر لشفتيها وهو مُحتبس الأنفاس كأنه ينتظر من فهما كلمة الموت أو الحياة، وأجابته سكارليت بصوت هادئ:

- كلا.. لا أريد أن أنتظر.

لم يُصدق أذنيه، وتأملته سكارليت خلسة من تحت أهدابها، ورأته يفتح فمه ويُطبقه مراراً، وذكرها منظره بضفدعة تُنقنق، وهتف وقد صعد دمه لوجهه:

- أتحبينني حقاً؟؟ أيمكن هذا؟؟

ولكنها لم تُجبه، فتملكه مزيج من الفرح والحيرة، رُبما لا يخلق بالرجل أن يلقي مثل هذا السؤال على فتاة؟؟ ولم تكن شجاعته قد ساقته لمثل هذا الموقف من قبل، فلم يدر ماذا يجب أن يفعل، وأحس برغبة شديدة في أن يصيح ويغني. ويُقبلها وينطلق في الحديقة بأقصى سرعته ليُنبئ كل من يُصادفه بأنها تحبه، بيد أنه لم يفعل أكثر من أن ضغط أصابعها حتى غاصت خواتمها في لحمها، وهتف:

- هل تؤثرين أن نعجل بالزواج يا سكارليت؟!

فحولت وجهها ولم تجب، وفهم شارل هذه الحركة على أنها حياء وخجل:

- ومتى أفاتح أباك؟؟

فأجابت وهي تريد أن تخلص أصابعها من قبضته بأي ثمن:

- خير البر عاجله.

فوثب من مكانه بحماسة، وهتف بلهجة خطيرة:

- كلا... كلا... لا طاقة لي على الانتظار، سأبحث عن أبيك في الحال.

الفصل الرابع

لم ينقض أسبوعان حتى أصبحت سكارليت زوجته، ولم ينقض شهران حتى أصبحت أرملة، وهكذا تخلصت بسرعة من المأزق الذي تورطت فيه بعجلتها وقصر نظرها، ولكنها لم تعرف بعد ذلك طعم الحرية وراحة البال اللتين كانت تنعم بهما قبل الزواج، وقد كان جزعها وحيرتها لا حد لهما حين اكتشفت على الأثر أنها ستُصبح أماً، وفي الأعوام التالية كانت سكارليت تحاول عبثا أن تذكر تفاصيل الحوادث التي مرت بها في ذلك العهد؛ فقد اختلط كل شيء في ذهنها واتخذ صورة كابوس مُفزع لا أصل له ولا حقيقة، وقطعت سلسلة ذكرياتها بقعة بيضاء تُمثل الفترة التي انقضت بين لقائها بشارل واقترانها به.

ولم تتجاوز فترة الخطوبة أسبوعين، وفي الظروف العادية كانت فترة الخطوبة تمتد عاماً وأكثر، ولكن ولايات الجنوب كانت تغلي كالمرجل، والحوادث تتوالى بسرعة البرق وتقوض العادات والتقاليد التي اصطلح عليها الناس في عهد السلام، وعبثا دقت هيلين أوهارا كفيها ونصحت لابنتها بالتمهل والتفكير؛ فقد صمت سكارليت أذنيها عن صوت العقل، وصممت على الزواج، والزواج بأسرع ما يمكن. ولم يسع هيلين إلا أن تصمت وتحني رأسها للعاصفة، كما فعلت غيرها من الأمهات

بين عشية وضحاها، استحال هدوء البلاد لحركة محمومة لم ير

الناس لها مثيلاً من قبل، فامتلأت الطرقات بالمركبات والخيل، وشغلت القطارات ليل نهار في نقل الجند والعتاد إلى (أتلانتا) و(فرجينيا)، وتحولت الحقول لميادين للتدريب، ونشطت النساء لصنع الملابس العسكرية، وجوارب الجند، والأربطة.

كانت تعلم أن الزوجين يتقاسمان الفراش نفسه، ولم تكن تجهل ذلك، ولكنها لم تُحاول قط أن تُطبق هذه القاعدة على نفسها، فلما رأت هذا الشاب الغريب الذي تنفر منه بقلبها وشعورها وهو يسعى لفراشها بينما قلبها يتحطم ألماً وشقاءً أدركت لأول مرة ماذا جلبت على نفسها بعنادها وصلفها وسوء تقديرها، ومشى شارل للفراش مشية المُتردد، فرمقته بنظرة بغض واستنكار وقالت بصوت أجش:

- إذا اقتربت خطوة أخرى صرخت بأعلى صوتي.. اغرب عني وحذار أن تمسني.

وهكذا قضى شارل هاملتون ليلة الزفاف قابعاً في مقعد بأحد أركان الغرفة، ولكنه لم يغضب، ولم يحزن فقد كان يفهم أو ظن أنه يفهم مبلغ حياء عروسه ورقة شعورها.

ومرت حفلة زفاف سكارليت كما تمر الأحلام الثقيلة، وأعقبتها حفلة زفاف إشلي وميلاني في اليوم التالي؛ فكانت كابوساً مُزعجاً، وقد ارتدت سكارليت لهذه الحفلة ثوبها الأخضر الفضفاض، ووجدت نفسها وسط زحام كالذي شهدته في الليلة السابقة. وعندما وقع بصرها على

ميلاني هاملتون وقد أضاء وجهها الساذج النحيل بنور الرضا والسعادة، أحست بأن كل سعادتها في الحياة قد تبددت، وذابت ذوبان الشموع التي تسطع في جوانب المكان.

عندما عادت إلى البيت، وإلى غرفتها، ورأت شارل مُقبلاً عليها في خجل ووجل، وهو يبتهل إلى الله في سره ألا يضطر لقضاء الليلة الثانية في المقعد كما قضى الليلة الأولى انفجرت باكية واستمرت تبكي وهو يواسيها ويُرفه عنها حتى نضب معين دموعها، فألقت برأسها على صدره وأطلقت العنان لتأوهاتها وزفراتها.

ولكن الحرب كانت على الأبواب، ولا محل للمآدب والمراقص والرحلات، وهكذا لم يمض أسبوع بعد الزفاف حتى رحل شارل لينضم لجيش الكولونل جيمس هامبتون، وبعد أسبوعين لحق إشلي بفرقته وأقفرت البلاد من عنصر الشباب.

وفي خلال الأسبوعين اللذين تخلفهما إشلي بعد رحيل شارل لم تُتح لسكارليت فرصة لمقابلته أو التحدث إليه على انفراد، بل ولم تتمكن من أن تهمس في أذنه كلمة واحدة عند رحيله.

كانت ميلاني تلازمه كظله، وقبل أن يتحرك القطار قالت له:

- يجب أن تُقبل سكارليت يا إشلي. إنها الآن أختي.

فانحنى إشلي، ومس وجنة سكارليت بشفتيه الباردتين فلم تحرك هذه القبلة الفاترة جانحة من جوانحها. إن لم يكن لسبب آخر، فلأن

ميلاني هي التي اقترحتها وأوصت بها. قالت لها ميلاني:

- إنني سأقيم مع عمتي (بيتي) في (أتلانتا) فيجب أن تأتي لزيارتنا أيتها العزيزة، فإنه يسرنا أن نعرف المزيد عن زوجة شارل.

في الأسبوع السادس تسلمت سكارليت رسالة بإمضاء الكولونيل هامبتون تتضمن أرق عبارات العطف والتشجيع والعزاء فقد مات شارل على أثر إصابته ببرد تطور لالتهاب رئوي. وهكذا لم يعصف الموت بآمال الفتى التعس في السعادة والحب فحسب بل عصف كذلك بكل ما كان يرجوه من مجد وشرف في ساحة القتال.

وضعت سكارليت طفلها ولما كان من التقاليد المألوفة أن يُطلق على الأطفال أسماء القادة فقد سمي الطفل «جيمس هامبتون» نسبة إلى قائد أبيه. وعندما علمت سكارليت بأنها حامل بكت حُزناً ويأساً، وتمنت أن تموت، ولكنها حملت الطفل ووضعته بأقل ما يمكن من العناء، وغادرت فراشها بسرعة حتى قالت لها مربيتها سراً

- إن السيدات يجب في مثل هذه الحالة أن يتظاهرون بالألم والضعف. وأن يلازمن الفراش مدة أطول.

ولم تشعر سكارليت نحو طفلها بشيء من الحب والحنان، وإن حاولت أن تخفي هذه الحقيقة، فقد كانت زاهدة في قدومه، فلما جاء لم تُصدق أنه طفلها وأنه جزء منها، وعلى الرغم من أنها استردت صحتها وغادرت فراشها بسرعة مُخجلة؛ فإنها ظلت من الناحية العقلية والفكرية

عليلة مذهولة، فذهب نشاطها وانحطت قواها المعنوية. ولم تجدها نفعا أدوية الدكتور فونتان وعقاقيره، حتى اضطر الطبيب الشيخ أن يعترف بعجزه. وأن يسر لهيلين أوهارا بأن المرض نفساني أكثر منه جسماني، وأن سببه الحزن واليأس وانكسار القلب، وهي أدواء لا حيلة له فيها.

استبد بها الضجر حتى زهدت في الطعام وشحب لونها، وضاق صدرها، وعبثاً حول أبوها أن يُدخل التسلية والعزاء على نفسها بما كان يُجلب لها من الهدايا، وعبثاً حاولت مُربيتها أن تُغذيها بالشهي من الطعام. واستولى القلق على أمها ففزعت للدكتور فونتان مرة أخرى، وهز الطبيب كتفيه وقال:

- دعيها ترحل لمكان آخر، فقد يُفيدها تغيير الجو الذي تعيش فيه.

وهكذا رحلت سكارليت وطفلها إلى (شارلستون) حيث تُقيم خالتها، ولكنها لم تلبث أن عادت قبل شهر من الموعد المُحدد لرحلتها، ورفضت أن تذكر سبباً لعودتها المُبكرة، وكانت خالتها قد رحبت بها وأكرمتها، ولكنها وهي امرأة متقدمة في السن هادئة الطباع، كانت تقضي جل وقتها في التحدث لزوجها الشيخ عن ماض بعيد لا تذكره سكارليت ولا تعبأ به، فما لبثت الأرملة الشابة أن ملت هذه الحياة الهادئة الخالية من أسباب المرح والتسلية وقررت أن تعود أدراجها في الحال.

ذُعرت هيلين أوهارا حين وجدت ابنتها أشد شحوباً وأكثر ذبولاً

وأضيق صدراً، وقضت أكثر من ليلة قلقة تُفكر وتعصر ذهنها في البحث عن وسيلة للترفيه عن ابنتها، وكانت ميلاني وعمتها بيتي قد كتبتا إليها مراراً ترجوانها أن تسمح لسكارليت بزيارتها في (أتلانتا)، وقد قالت العمة بيتي برسالتها الأخيرة:

"الآن.. وقد ذهب شارل العزيز، فإنني وميلاني نعيش وحدنا في بيتنا الكبير، ونشعر بأن حياتنا تكون أطيب وطمأنينتاً أتم إذا انضمت إلينا سكارليت، وربما وجدت هذه البنية العزيزة بعض ما ترجو من عزاء وسلوى في تمريض الجرحى أسوة بميلاني، يُضاف لذلك أنني وميلاني نتحرق شوقا لرؤية الطفل العزيز".

فكرت هيلين أوهارا في هذه الدعوة مليا، وقررت أن هذه قد تكون الفرصة الوحيدة لإنقاذ ابنتها، وفي اليوم التالي حزمت سكارليت أمتعتها مرة أخرى، ورحلت بطفلها وخادمتها الزنجية (ديلسي) إلى أتلانتا، وكانت تنفر وتمتلئ نفسها مرارة من مجرد التفكير بالإقامة مع زوجة إشلي تحت سقف واحد.

الفصل الخامس

وصل القطار إلى (أتلانتا) في الصباح بعد ليلة عاصفة مُمطرة، ووقفت سكارليت على سلم المركبة، ونظرت للأوحال المُتراكمة بالطريق، وعز عليها أن يتلوث ثوبها الأسود الحريري الطويل، وأنها تهم بالهبوط من المركبة، إذا بزنجي مُتقدم في السن مُجعد الوجه، نحيف الجسم، يتقدم إليها، وقبعته في يده. سألها:

- هل أنت الآنسة سكارليت؟! أنا (بيتر) خادم الآنسة بيتي.. لا تلوثي حذاءك بالوحل.. دعيني أحملك.

وحملها رغم شيخوخته ونحافته كما يحمل طفلاً رضيعاً ووضعها في إحدى المركبات وتبعتهما ديلسي والطفل، ذكرت سكارليت وهي بين ساعدي بيتر، أحاديث شارل عن هذا الزنجي الشيخ وعن إخلاصه للأسرة. قال لها أنه رافق أباه في الحرب المكسيكية، وأنقذ حياته حين أصيب بجرح عميق، وتعاون مع العمة بيتي على تربيته هو وأخته ميلاني بعد وفاة والديهما وأن العمة بيتي تثق بها ثقة عمياء، ولا تبرم أمراً إلا بمشورته، فهو الذي تصح بإرساله إلى جامعة «هارفاد».

ووجدت سكارليت ما يُؤيد هذا الكلام حين سمعت الزنجي يقول:

- كانت سيدتي تريد أن تستقبلك بنفسها، ولكنني نصحتها بالبقاء حتى لا تتلف الأحوال ثيابها.

عبثاً حاولت سكارليت أن تجد حولها أثراً للمدينة الصغيرة التي كانت تعرفها حق المعرفة، فقد أصبحت (أتلانتا) أشبه بطفل نما فجأة حتى صار عملاقاً، وكانت المدينة تظن كأنها خلية نحل، والعمل يجري فيها ليل نهار لتحويل المراكز الزراعية إلى مراكز صناعية.. قالت سكارليت لنفسها وهي تحس بالحياة تنبض في شرايين المدينة كما ينبض الدم في شرايين جسدها:

- ستطيب لي الإقامة هنا بغير شك، وسط هذه الحركة وهذا النشاط.

وراح بيتر يوضح لها ما ترى، ويشير إلى المصانع والمسالك التي أنشئت حديثاً، وإلى الخطوط الحديدية التي مُدت بعد إعلان الحرب. وللفنادق الجديدة التي تزخر بالنزلاء الذين جاؤوا لزيارة أقاربهم الجرحى. قال لها فجأة:

- انظري.. إن مدام باركر ومدام إيلزنج تقرئانك التحية.

وتذكرت سكارليت أنها رأت في حفل زفافها سيدتين بهذا الاسم، وقد قيل لها يومئذ أنهما من أخلص أصدقاء العمة بيتي، فنظرت إلى حيث أشار بيتر، ورأت السيدتين في مركبة أمام أحد الحوانيت، وهما تُلوحان لها بأيديهما.

كانت مدام باركر امرأة طويلة القامة ضخمة الجسم قد خط الشيب شعرها، أما مدام إيلزنج فهي أصغر سناً، وأنحف قواماً، وعلى وجهها مسحة من جمال رائع قديم. صاحت مدام باركر وهي تبتسم:

- لقد قلت لبيتي إنني أريدك للعمل معي في مستشفاي، فلا تعدي مدام (ميد) بشيء.

فابتسمت سكارليت، ولم تفهم ماذا تقصد إليه السيدة.

***

الفصل السادس

ذهبت (سكارليت) إلى (أتلانتا)، وهي خالية الذهن لا تدري كيف ستكون إقامتها هناك، بيد أنها ما كادت تصل للبيت حتى بدأت ميلاني والعمة بيتي حملة بارعة مُنظمة لحملها على الإقامة معهما دائماً، وتسلحت المرأتان بكل حجة ممكنة. فهما يُريدانها لشخصها لأنهما يُحبانها، والبيت واسع رهيب، ووجودها فيه يشجعهما، ومكانها الطبيعي هو بين أهلها، وقد مكنتها الإقامة بين أهل شارل وفي البيت الذي نشأ وترعرع فيه من أن تفهم المزيد من أمر هذا الشاب الذي جعل منها زوجة وأرملة وأماً بمثل تلك السرعة، وتُدرك لماذا كان المسكين حيياً خجولاً، قليل الثقة بنفسه، والواقع لو أن شارل قد ورث عن أبيه شيئاً من شجاعته وجسارته ورجولته، فإن هذه الصفات جميعاً كانت جديرة بأن تنمحي في جو الأنوثة الذي نشأ فيه وترعرع ذلك لأنه كان شديد الإخلاص والطاعة لعمته بيتي، وكانت صلته بميلاني أوثق مما ينبغي أن تكون الصلات بين الأخوات، ولم يكن في الدنيا أسلس قياداً، وأكرم نفساً، وأرق قلباً من العمة بيتي وميلاني؛ فنشأ على غرارهما ولم يجد من نفوذهما ما يدعم رجولته، وقضى أيام الطفولة والشباب في بيت أكثر نعومة من وكر الطير، بيت يفتقر لرائحة التبغ والخمر، وإلى الصوت الجهير يأمر فيُطاع، ولمظاهر الكد والنشاط والنضال.

في هذا البيت الهادئ وبهذا الجو الوديع وبرعاية ميلاني والعمة

بيتي، تخلصت سكارليت من ضجرها واستردت صحتها وعاودها نشاطها وحيويتها، والواقع كانت ميلاني وعمتها تتفانيان في إرضائها وإسعادها وتتناسيان أحزانهما لترفها من حزنها وتهتما بثيابها وطعامها ونُزهتها، وبكل صغيرة وكبيرة تتصل برفاهيتها، وعلى الرغم من ذلك كان من المُتعذر على سكارليت أن تقاوم شعورها نحوهما؛ فكانت تحتقر العمة بيتي لسذاجتها وبلاهتها وتمقت ميلاني مقتاً أخذ يشتد مع مرور الأيام حتى كانت تضطر في بعض الأحيان أن تُغادر الغرفة فجأة عندما تتحدث ميلاني عن إشلي، أو عندما تتلو رسائله بصوت مُرتفع.

على أن الحياة كانت في جُملتها سعيدة وادعة لا يُنغصها بالنسبة لسكارليت إلا وجودها تحت سقف واحد مع المرأة التي تزوجها إشلي، وإلا عملها في المستشفى، فكانت تمقت التمريض، ولكنها لا تجد مفراً من أداء الواجب الذي اضطلعت به على سبيل التسلية بينما اضطلعت به سائر نساء (أتلانتا) وفتياتها بحماسة تقترب من التعصب، وقد انضمت لكلٍّ من اللجنة التي ترأسها مدام باركر واللجنة التي ترأسها مدام ميد، ومعنى ذلك أنها كانت تعمل في مستشفيين أربعة أيام في الأسبوع من الصباح الباكر حتى المساء في جو تنبعث منه رائحة الجروح العفنة والأشلاء المُمزقة، وبين وجوه بيضاء من فعل الألم أو صفراء من فعل الملاريا. وكان من المُحتمل أن تصبر على هذا العمل المقيت، لو أنه سمح لها كذلك بأن تستخدم جمالها وفتنتها للترفيه عن الناقهين، فقد كان بين هؤلاء كثير من الشباب ذوو الطلعة الحسنة، والأصل النبيل،

ولكن ذلك كان محظوراً عليها لأنها أرملة ولأن العناية بالناقهين كانت موكولة للفتيات اللاتي مُنعن من التمريض حتى لا تقع عيونهن على مناظر تُخجل العذارى، وقد استطاعت أكثر أولئك الفتيات (وجميعهن دون سكارليت جمالاً وفتنة) أن يجدن لأنفسهن أزواجاً بين الناقهين.

وفي أحد الأيام كانت النساء الثلاث يتناولن طعام الإفطار حين فوجئن بزيارة مدام باركر، ومدام إيلزنج، وكانت الأولى تشتغل منذ بضعة أيام في إعداد سوق خيرية لمساعدة المستشفيات، وقد أضافت سكارليت وميلاني لمعروضات السوق طائفة من الأشغال اليدوية سهرتا في صُنعها بضع ليال، وكان من أعز أماني سكارليت أن تشهد هذه السوق والحفلة الراقصة التي ستتلوها، ولكنها اكتشفت أن ذلك يكاد يكون مستحيلا لأنها ما زالت ترتدي ثياب الحداد، وما زالت فجيعتها على زوجها ماثلة في الأذهان.

قالت مدام باركر وهي تنقل البصر بين النساء الثلاث:

- قد أذيعت الآن قائمة الخسائر، وكان اسم مستر والاس ماكلير بين الجرحى.

فهتفت العمة بيتي:

- مسكين.. وهل إصابته خطيرة؟

فقلبت مدام باركر شفتها وقالت:

- لا أعلم.. إنما المُهم أن زوجته وابنتيه قد رحلن للشمال لإحضاره ويجب أن نجد الآن من يحل محلهن بحفل هذا المساء.. أصغي إليَّ يا بيتي وأنت يا ميلاني، إنني أعتمد عليكما للخروج من هذا المأزق.

فهتفت العمة بيتي بلهجة الاستنكار:

- ولكن.. أنت تعلمين أننا لا نستطيع الاشتراك في مثل هذه الحفلة.

فصاحت مدام باركر في ضجر:

- لا تقولي أنك لا تستطيعين، إننا لا نريدك على أن ترقصي، ستكون كل مهمتك مراقبة الزنوج الذين يُقدمون المرطبات، وكل مهمة ميلاني أن تشترك في بيع المعروضات.

فقالت ميلاني:

- ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك، إنه لم ينقض على موت شارل أكثر من...

قاطعتها مدام باركر:

- إنني أفهم شعوركما ولكنني أفهم كذلك أنه لا توجد تضحية تعز على الوطن.

- إننا على استعداد لبذل كل معونة، ولكن أليس في مقدورك تدبير بعض الفتيات الحسان للنهوض بهذا العمل؟!

فقلبت مدام باركر شفتيها وقالت:

- لست أدري في الحق ماذا أصاب فتياتنا في هذه الأيام. إنهن لا يعرفن الواجب، ولا يقدرن التبعات، وقد ذهبن جميعاً ينتحلن الأعذار بيد أنني أعرف السبب الحقيقي، إنهن يخشين أن يحول عملهن في السوق دون اشتراكهن في الحفلة الراقصة، ويخشين في الغالب أن تحجب الموائد ثيابهن الأنيقة. كم أتمنى لو أن ذلك المُهرب.. ماذا يدعى؟!

فأجابت مدام إيلزنج:

- إنه يُدعي الكابتن بتلر...

- آه.. نعم.. الكابتن بتلر.. كم أتمنى لو أنه عني بتهريب المزيد من الأدوية والعقاقير وحاجات المستشفيات، واقتصد في تهريب الأزياء الجديدة وأدوات الزينة!! والآن يا (بيتي) إن الوقت لا يتسع للجدل.. لا بد أن تأتي.. سوف يفهم كل إنسان غايتك النبيلة من الاشتراك في الحفل.

فقالت سكارليت وهي تصطنع الجد والاهتمام:

- أظن أننا يجب أن نذهب يا عمتاه؛ فذلك أقل ما نستطيع عمله من أجل المرضى، والمستشفيات.

ولم تكن مدام باركر قد ذكرت اسمها أو وجهت إليها الدعوة، أو

خطر لها رغم ورطتها أن تلتمس لمثل تلك الحفلة العامة معونة أرملة لم يمض على موت زوجها أكثر من عام؛ فنظرت إلى سكارليت بحدة، ولكن هذه احتملت النظرة ببساطة وسذاجة، واستطردت:

- نعم، أظن أنه ينبغي علينا أن نساعد على إنجاح هذه الحفل الخيري، وسأشترك مع ميلاني في بيع المعروضات؛ فما قولك في ذلك يا ميلاني؟

كان الظهور في حفلة عامة بثوب الحداد أمراً لا تستطيع ميلاني أن تهضمه أو تتصوره، ولكنها لمحت الرغبة الكامنة في نفس سكارليت؛ فهزت كتفيها وأجابت:

- على رسلك.

وفي المساء وقفت سكارليت خلف إحدى موائد الهدايا والمصنوعات المعروضة للبيع، وهي لا تكاد تُصدق حواسها، ولكن الشموع كانت تسطع أمام عينيها، والقاعة الفسيحة المُزينة بكل أنواع الزهور تزخر بالرجال والنساء من جميع الطبقات، وفرقة الموسيقى تعزف بالأنغام الشجية، والقوم يترنمون بأرق الأناشيد الوطنية، فلم يكن ثمة شك في أنه حفل عام، ومن أعظم ما رأت (أتلانتا).

غاصت في أحد المقاعد وراء المائدة، وراحت تتأمل الفتيات وهُن يخطرن في ثيابهن البديعة التي يرجع الفضل في وجودها لجرأة الكابتن بتلر المهرب المشهور الذي عرف كيف يتحدى الحصار البحري طيلة

الشهور الأخيرة، وكيف يجلب لجيش الجنوب الأسلحة والذخائر، ولنساء الجنوب أحدث الأزياء، وأجمل أدوات الزينة.. ولم تتمالك نفسها وهي ترى الوجوه الضاحكة، والعيون الفاتنة والثياب الأنيقة التي تكشف عن سواعد الفتيات وظهورهن من أن تشعر بالحنق على زوجها الشاب الذي أورثها الحداد وختم حياتها حين كان يجب أن تبدأ..

على أن جو القاعة كان مشحوناً بشيء لم تفهمه سكارليت، فلقد رأت بوجوه القوم وبنظراتهم وحركاتهم حماسة لم تشعر بها، ولم تجد لها صدى بنفسها، ولاحظت بقلب حزين أنها لا تُشاطر أولئك النسوة الفاتنات خيلاءهن واستعدادهن للتضحية بكل شيء في سبيل قضية الوطن، فقضية الوطن لا تعني بالنسبة إليها شيئاً، والحرب ليست في نظرها إلا مذبحة عامة يُقتل فيها الرجال بغير شفقة وتُنفق فيها الأموال بغير حساب، وتهدر فيها راحة النساء، ومُتعهن، ومباهجهن.

تُرى ماذا يقول القوم إذا أدركوا ما يدور بخلدها، ويعتمل في نفسها، وكم تكون دهشتهم إذا وقفت فوق المائدة وهتفت بأن الحرب يجب أن تضع أوزارها لكي يعود كُل إنسان لبيته وأسرته، وحقله، ويعود السلام، وتعود الحفلات؟!

ولكن ما شأنها هي والحفلات!! لقد انتهت حياتها، فهي ليست عذراء لكي ترقص وتغازل، وليست زوجة لتجلس مع الزوجات وتنتقد العذارى الراقصات، وليست من الكبر لتكون أرملة.

وانتبهت من تأملاتها فجأة، وهي تشعر شعوراً غامضاً بأن هناك من يرقبها، ووقع بصرها في الحال على رجل طويل القامة أسمر الوجه، عريض الكتفين، أنيق الثياب، قد وقف على قُرب منها وراح يلتهم وجهها بعينين ناهبتين، وخُيل لسكارليت أنها تعرف هذا الرجل، ولكنها لم تذكره ولا تعلم أين قابلته، وكان أول رجل منذ بضعة شهور يرمقها بمثل هذه النظرة، وأبدى نحوها مثل هذا الإعجاب. فابتسمت له ابتسامة مرحة، قابلها بانحناء قامته حتى كاد رأسه أن يمس ركبتيه، ولكنه ما كاد يرفع رأسه ويمشي نحوها برشاقة الهنود الحمر، حتى رفعت يدها لفمها لتكتم صيحة ذُعر أوشكت أن تفلت من شفتيها، ذلك لأنها عرفته، وكان أول ما خطر لها أن تُطلق ساقيها للريح وتهرب، ولكن الذُعر شل حركتها، وسمرها بمكانها حتى وقف الرجل أمامها وجهاً لوجه، وقال بأدب:

- لم يكن لي رجاء في أن تذكريني يا آنسة أوهارا.

كان صوته هادئاً يسر الأذن أن تسمعه، فنظرت إليه سكارليت ضارعة، واحمر وجهها خجلاً وحياءً، ولم يخطر ببالها قط حين جاءت لهذه الحفل أنها سترى ذلك الرجل المقيت الذي شهد موقفها الأخير مع إشلي ويلكس، وكانت ميلاني تجلس أمام المائدة المجاورة، فما كادت تسمع صوت الرجل حتى حولت وجهها، ولأول مرة في حياتها حمدت سكارليت الله على وجود غريمتها.

هتفت ميلاني وهي تبتسم وتبسط يدها إلى الرجل:

- يا إلهي. من ذا الذي أرى؟ مستر رايت بتلر. أليس كذلك؟ إننا تقابلنا في...

فأكمل عبارتها، وهو ينحني فوق يدها: .

- في ذلك اليوم السعيد الذي أعلنت فيه خطوبتك، لقد كان كرماً منك أن تذكريني.

- وماذا جاء بك إلى (أتلانتا) يا مستر بتلر؟

- يُخيل إليَّ أنني مُضطر إلى التردد على هذه المدينة بين وقت وآخر. فقد وجدت أنه لا يكفي أن أُحضر البضائع، بل يتعين عليَّ كذلك أن أُشرف على توزيعها.

فقطبت ميلاني حاجبيها ورددت:

- تُحضر البضائع.

ثم أشرق وجهها فجأة بابتسامة مرحة واستطردت:

- هل أنت الكابتن بتلر المشهورة الذي سمعنا عنه كثيراً في هذه الأيام؟! يا إلهي.. إن كل فتاة هنا تدين لك بالثوب الذي ترتدينه، هذا هو مُحطم الحصار يا سكارليت.. ألا يسرك أن... ماذا بك؟؟ هل أنت مريضة؟!

وأحست سكارليت بالقاعة تدور حولها، وبالأرض تميد تحت قدميها، فتهالكت في مقعدها، وأخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة، وخف

إليها بتلر وهو يقول بلهجة جدية دون أن تنطفئ من عينيه جذوة المرح والسخرية:

- إن الجو خانق هنا، فلا عجب إذا أصيبت الآنسة (أوهارا) بدوار... هل أرافقك إلى النافذة يا آنسة؟

فأجابت سكارليت بخشونة أدهشت ميلاني:

- كلا.

قالت ميلاني:

- إن اسمها الآن مدام هاملتون.

ورمقت سكارليت بنظرة تفيض عطفاً وحناناً؛ فقال بتلر:

- وهل يُساهم زوجاكما بهذا الحفل؟! سيكون من دواعي سروري أن أجدد التعارف معهما.

رفعت ميلاني رأسها بكبرياء وأجابت:

- إن زوجي يُقاتل بفرجينيا، أما شارل...

وتهدج صوتها؛ فقالت سكارليت باقتضاب:

- إنه مات في ميدان القتال.

فهتف بتلر في تأثر:

- أرجو المعذرة، فلم يبلغني نبأ هذه الكارثة، ولكن اسمحا لي أن أقول لكما أن من يموت في سبيل وطنه هو حي أبداً، وحسبكما ذلك عزاءً.

فابتسمت ميلاني رغم الدموع التي تملأ عينيها، وأحست سكالريت بالغضب والكراهية ينهشان قلبها، وكانت عبارته لبقة، ومن الطراز الذي تنتظره المرأة من الرجل المهذب في مثل هذا الموقف، ولكنها شعرت بأنه لا يعني كلمة مما يقول، وبأن وراء هذه اللباقة سُخرية سافرة من شخصها، ومن شعورها، فقد كان يعلم علم اليقين أنها لم تُحب زوجها قط. أقبلت جماعة من الفرسان لابتياع بعض المعروضات، فانصرفت ميلاني لخدمتهم، وبقيت سكارليت بمكانها لا تجسر على التطلع لوجه الكابتن بتلر، فسألها في رفق:

- هل مات زوجك منذ وقت طويل؟!

- نعم.. منذ عام تقريباً.

- معذرة، فقد كنت مسافراً مُدة طويلة، هل دامت حياتكما الزوجية مُدة طويلا؟!

فأجابت على كره منها:

- لم تتجاوز الشهرين.

- هذه مأساة بغير شك.

قبحه الله، لو لم يعلم سرها لعرفت كيف تصعقه بنظرة، أو بكلمة ولكنها كانت موثقة اليدين، لا تستطيع إلا أن تبتلع غضبها وتصمت، فسألها:

- وهذه أول مرة تظهرين في إحدى الحفلات العامة بعد وفاته؟!

فأجابت بسرعة:

- أعلم أنني خرقت التقاليد المألوفة، ولكن بعض الفتيات اعتذرن في آخر لحظة، فتطوعت مع ميلاني لأداء...

فقاطعها:

- لقد أحسنتما صُنعاً، فلا توجد تضحية تعز على الوطن.

قال مُتأملاً:

- كُنت دائماً أرى أن تقاليد الحداد عندنا التي تفرض اللون الأسود على الأرملة بقية حياتها وتُحرم عليها ضروب التسلية واللهو البريء لا تقل قسوة ووحشية عن تقاليد الهنود، هل تعلمين ماذا يصنع الهنود بالأرامل؟!

فهزت رأسها، واحمر وجهها خجلا من جهلها. قال:

- إن الموتى في الهند يُحرقون، ولا يُدفنون، وإذا مات الزوج تعين على امرأته أن تُلقى بنفسها فوق الجثة لتُحرق معها.

- ما أفظع هذا، ولماذا يفعلون ذلك؟ وهل يقف رجال البوليس مكتوفي الأيدي؟!

- هذه هي تقاليدهم، والتي لا تحرق نفسها ينبذها ذووها، ويلفظها المُجتمع، وتتحدث عنها السيدات المحترمات، كما يتحدثن عن امرأة مُتبذلة، كما يُمكن أن تتحدث عنك النساء لو أنك جئت الليلة في ثوب أحمر، وافتتحت حفلة الرقص، وأنا شخصياً أعتقد أن تقاليد الهنود أهون وأرحم من تقاليدنا التي تدفن الأرامل وهُن على قيد الحياة.

- كيف تجسر على القول بأنني دفنت حية؟!

- ما أشد حرص النساء على السلاسل التي تكبلهن!! قد يخيل إليك أن تقاليد الهنود متناهية في القساوة، ولكن حدثيني هل كنت تجدين الشجاعة على الظهور في هذه الحفلة، لو لم يكن الوطن بحاجة إلى خدماتك؟

- كلا طبعاً، وإلا كان ذلك إهانة لذكرى، وإلا توهم الناس أنني لم أكن أحب.

واستقرت عيناه الساخرتان على شفتيها فلم تقو على إتمام عبارتها، وكان يعلم أنها لم تُحب شارل، ولا يُمكن أن يخدعه رياؤها إذا زعمت غير ذلك. قال دون أن يحول عينيه عن شفتيها:

- تكلمي، إنني أنتظر بفراغ صبر.

فأطرقت برأسها، وغمغمت:

- الحق أنك وغد.

فقال بهمس:

- لا تخافي أيتها الحسناء إن سرك الأثيم في مأمن معي.

فهمست في حدة:

- قبحك الله، كيف تقول كلاماً كهذا.

- أردت أن أزيل مخاوفك، وأريح بالك، ماذا كنت تريدينني أن أقول غير ذلك؟ هل أقول أيتها الأنثى الجميلة، أسلميني نفسك وإلا فضحت سرك؟

فنظرت إليه، ورأت بعينيه نظرة دُعابة كنظرات الطفل الشرير، ولم تتمالك نفسها من أن تضحك، وبهذه اللحظة، صمتت الموسيقى فجأة وساد السكون، وتحولت الأنظار لحيث وقف الدكتور (ميد) فوق منصة مرتفعة، وتهيأ للكلام، وقال بصوته الهادئ الرزين الذي طالما أشعل الحماسة في قلوب سامعيه:

- يجب علينا جميعاً أن نشكر السيدات الفاضلات اللائي هيأن بجهودهن النبيلة ووطنيتهن المُلتهبة أسباب النجاح لهذه السوق الخيرية.

فارتجت جوانب القاعة بالتصفيق، واستطرد الدكتور:

- إنهن لم يدخرن وقتاً ولا جهداً، وهذه الأشياء الجميلة المعروضة على الموائد يتضاعف جمالها في ناظرنا، لأنها صُنعت بأيدي نسائنا الفاتنات، وذلك لا يكفي وأولئك السيدات النبيلات اللاتي يتعهدن مستشفياتنا ويرفهن عن جنودنا، ويُضمدن جروح أبطالنا يعرفن حق المعرفة ما نحن بحاجة إليه، ولا سبيل الآن لتعداد حاجاتنا، ويجب علينا أن نحصل على مزيد من المال لابتياع الأدوية والعقاقير، ومنكم أطلب هذا المال، فإنني أسألكم التضحية، ولكنها تضحية ضئيلة تافهة إذا قيست بتضحيات رجالنا البواسل في ميادين القتال، أيتها السيدات، إنني أطلب حُليكن، فالوطن يطلب هذه الحُلى، وأنا واثق أن مطلب الوطن لن يُقابل بالأعراض، وسنبيع اللآلئ، وسنصهر الذهب، وسنبتاع الأدوية والعقاقير لنجدة الأبناء البررة الذين خفوا لنجدة الوطن.. أيتها الآنسات والسيدات، سيمر بكن الآن اثنان من جرحانا البواسل، وفي يد كل منهما سلة، فمن...

وضاع صوته وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق. وكان أول ما أحست به سكارليت عقب نداء الدكتور (ميد) هو الشعور العميق بالارتياح، فقد كانت بحكم الحداد لا تتزين بشيء من حُليها الثمينة، وبدأ الجنديان الجريحان طوافهما بالحاضرين، وأبصرت سكارليت بالفتيات والسيدات يتزاحمن حولهما. ويتعاون على خلع أقراطهن وأساورهن ويعطين الوطن، دون أن يفخرن بما أعطين. ومضى أحد الجنديين حتى اقترب من مائدة سكارليت. ولما مر بالكابتن بتلر وضع

يده في جيبه بقلة اكتراث وألقى في السلة عُلبة تبغ ذهبية ثمينة، ووقف الجندي أمام سكارليت، فقلبت يديها دلالة على أنها لا تملك شيئاً تستطيع أن تهبه، وخالجها شعور بالحرج والحيرة لأنها الشخص الوحيد الذي لم يُعط، وفجأة وقع بصرها على خاتم الخطوبة الذي يُزين إصبعها، ومرت بها لحظة حاولت فيها أن تذكر وجه شارل، وكيف كان منظره حين وضع هذا الخاتم في إصبعها، ولكنها لم تجد في ذاكرتها إلا صورة باهتة مضطربة يكاد يمحوها شعورها بالضجر والسخط، وهو شعور كان دائماً يلازم ذكرى هذا الزوج الذي أنهى حياتها قبل الأوان وفرض عليها الشيخوخة وهي لا تزال في ربيع الحياة.. وهم الجندي بالانتقال إلى حيث كانت ميلاني فهتفت به:

- صبراً.. فعندي شيء لك.

ونزعت الخاتم من إصبعها، وعندما همت بأن تُلقى به في السلة مع كومة الأقراط والأساور والدبابيس واللآلئ اصطدمت عيناها بغتة بعيني الكابت بتلر، ورأت على شفتيه ظل ابتسامة، ولكنها هزت كتفيها بقلة اكتراث، ووضعت الخاتم في السلة، وحينئذ دنت منها ميلاني، وضغطت على ساعدها بقوة، وهمست وفي عينيها بريق الإعجاب والفخر والحب:

- يا لك من فتاة باسلة.. صبراً يا سيدي؛ فعندي كذلك شيء لك.

وراحت تُعالج الخاتم الذي لم يفارق إصبعها منذ وضعه إشلي فيه.

لم يكن هناك من يعلم، كما تعلم سكارليت، مبلغ حرص ميلاني

على هذا الخاتم واعتزازها به؛ فلقد كان كأنه قطعة من قلبها، فنزعته من إصبعها واحتفظت به لحظة في راحة يدها، ثُم وضعته في السلة بلطف ورفق كأنها تُشفق عليه أن تخدشه اللآلئ.

وشيعت الصبيتان الجندي وهو يبتعد، وفي عيني إحداهما نظرة تحد وقلة اكتراث، وفي عيني الثانية نظرة أبلغ من الدموع، ولم تغب النظرتان ودلالتهما عن ملاحظة الكابتن بتلر الذي قال بصوت هادئ:

- ما أكرم هذه التضحية، وما أحراها بأن تُشجع جنودنا البواسل.

فلمعت عينا سكارليت وغلا الدم في عروقها، وتحيرت الشتائم على شفتيها، ولكنها كظمت غيظها في اللحظة الأخيرة، وسيطرت على عواطفها.

الفصل السابع

قطبت العمة (بيتي) حاجبيها، ولزمت ميلاني الصمت، وتحفزت سكارليت للدفاع. قالت بلهجة التحدي:

- لست أبالي بما يقول الناس، وحسبي أنني جلبت من المال للمستشفيات أكثر مما جلبت أية فتاة أخرى في الحفل، بل وأكثر من ثمن المعروضات التي بيعت.

فقلبت العمة بيتي يديها في حيرة ودهشة، وأجابت:

- وما قيمة المال يا بُنيتي العزيزة، وأؤكد لك أنني لم أصدق عيني حين رأيتك ترقصين، ولم يمض عام على موت شارل المسكين، ومع من ترقصين؟! مع الكابتن بتلر المُخيف ذي الشهرة السيئة، لقد قيل لي: إن أسرته نبذته وأن جميع أهل (شارلستون) يتجنبونه ولا يستقبلونه في بيوتهم ويقرنون اسمه بماسة فتاة تعسة.

فقاطعتها ميلاني بلطف:

- لا أحسبه رديئاً لهذا الحد، بل على العكس، أعتقد أنه رجل كريم، نبيل الخلق، ألا ترين كيف يتحدى الأعداء وينفذ من الحصار... و..

تضايقت سكارليت قائلة:

- كلا، إنه ليس شجاعاً، وإذا كان يتحدى الأعداء وينفذ من الحصار فيفعل ذلك لأجل المال، لقد صارحني بذلك، وقال: إنه لا يُقيم وزناً للوطن. ومصيرنا حتماً الهزيمة، ولكني أعترف بأنه راقص بارع.

صمتت المرأتان دهشة واستنكاراً، واستطردت سكارليت:

- إنني سئمت الجلوس في البيت، ولكني لن أفعل ذلك بعد الآن، وإذا كان الناس قد تقولوا عني بالأمس، فمعنى ذلك أنني أضعت سمعتي وليس ثمة ما يجب أن أحسب له حساباً.

ولم تلاحظ أنها إنما تردد خواطر بتلر؛ فهتفت العمة بيتي:

- يا إلهي.. ماذا ستقول أمك إذا علمت بما حدث؟.

فذعرت سكارليت حين تخيلت ما سيكون من حزن أمها وجزعها إذا علمت بسلوكها الفاضح، ولكنها شعرت بالطمأنينة إذا تذكرت أن بين (أتلانتا) و(تارا) خمسة وعشرين ميلاً، وقالت ميلاني، وهي تحيط عنق سكارليت بساعدها:

- لا تنزعجي أيتها العزيزة، إنني أقدر الحافز النبيل الذي دفعك لفعل ما فعلت ليلة أمس، وإذا تجاسر إنسان على ذكرك بسوء فإنني أعرف كيف أرد كيده إلى نحره.

فُتح الباب بتلك اللحظة ودخل الزنجي (بيتر) وبيده رسالة قدمها

لميلاني، وقلبت ميلاني الرسالة بين يديها ثم فضتها وقرأتها بسرعة، واغرورقت عيناها بالدموع؛ فصاحت العمة بيتي في جزع:

- هل قتل إشلي؟.

وأرخت ساعديها، وتأهبت للإغماء، وصرخت سكارليت:

- يا إلهي.

فقالت ميلاني:

- كلا.. كلا.. معذرة إذا كُنت قد أزعجتكما، إن إشلي بخير وقد كنت أبكي سروراً.

ورفعت إلى فمها شيئاً وقبلته، وتبينت سكارليت ذلك الشيء، فإذا هو الخاتم الذي تبرعت به ميلاني في الليلة السابقة، فقالت ميلاني وهي تُناولها الرسالة:

- خذي.. واقرئي.. يا إلهي.. ما أكرمه، وأنبله...

ودُهشت سكارليت وتناولت الرسالة وقرأت فيها: "إن الوطن قد يكون بحاجة إلى دماء رجاله، ولكنه ليس بعد بحاجة إلى قلوب نسائه؛ فتقبلي يا سيدتي هذا الخاتم عربوناً لاحترامي وتقديري لشجاعتك. واعلمي أن تضحيتك لم تذهب سدى، فقد افتديت الخاتم بعشرة أمثال ثمنه". «رايت بتلر»

ووضعت ميلاني الخاتم في إصبعها وقالت ووجها المُخضل بالدموع يُشرق بابتسامة عذبة:

- ألم أقل لكما: إنه نبيل الخلق!! وهل غير الرجل النبيل الكريم الحساسية من يفهم كم آلمني أن أنزل عن هذا الخاتم؟ يجب أن تدعيه لتناول الغداء على مائدتنا يوم الأحد يا عمتي، حتى يتسنى لي أن أشكره.

ولم تفطن المرأتان إلى أن بتلر لم يرد خاتم سكارليت كما رد هذا الخاتم، ولكن هذه الحقيقة لم تغب عن فطنة سكارليت. وقد أدركت أن بتلر لم يصدر فيما فعل عن نُبل وكرم كما توهمت المرأتان، ولكنه أراد فقط أن يُدعي إلى البيت، وعرف كيف يصل إلى ما يُريد.

الفصل الثامن

كانت معركة (تنسي) من أشد معارك الحرب الأهلية وأهولها، وفيها انتصر الجنوب بقيادة الجنرال مورجان بعد قتال دام بضعة أسابيع، ولكنهم دفعوا ثمن النصر غالياً، فامتلأت مستشفيات (أتلانتا) وبيوتها بالمرضى والجرحى، وتضاعف عدد اليتامى، وامتدت صفوف القبور خارج المدينة لأبعد مما تصل إليه العين، وهبطت قيمة النقد هبوطاً مُزعجاً، وارتفع ثمن الطعام والثياب، واختفى الدقيق الأبيض، وقلت لحوم الأبقار والخراف حتى بات لا يأكلها إلا الأغنياء، وضيق الأعداء الحصار على الموانئ، فانقطعت واردات الشاي والبُن والحرير وسائر الكماليات، وشعرت المستشفيات بأزمة الكينين واليودين والكلورفورم والأفيون، ووقعت على عاتق النساء والفتيات مُهمة شاقة مُؤلمة، وهي غسل الأربطة المُلوثة بالدماء لإعادة استعمالها حتى تبلى، على أن الحرب ومتاعبها كانت بالنسبة لسكارليت بعد طول انزوائها ضرباً من اللهو والتسلية، ومجالاً للحركة والنشاط، فلم يُزعجها نقص الطعام، وكلما عادت بها الذاكرة للعام السابق والأيام الطويلة المُملة التي قضتها فيما يُشبه العزلة، خُيل إليها أن الزمن قد أوسع خطاه وأن الحياة تطوي نفسها بسرعة لا يُدركها العقل، فكل يوم يُشرق على مغامرات جديدة، وفي كل مساء تلقى عشرات من الرجال يخطبون ودها، ويهمسون بأذنها كلمات الإعجاب، ويقولون لها كم هي جميلة فاتنة، وكم يسرهم أن يُقاتلوا، وأن يموتوا في سبيل الوطن الذي يضمها.

ورأت مدام باركر كما رأت غيرها من الأمهات أن الجنوب ينحدر نحو كارثة أخلاقية، ولكنهن قلبن أيديهن حيرة وعجزاً، وقررن أن اللوم يجب أن يقع على الحرب، وهكذا كانت الحرب بالنسبة لسكارليت مُتعة وتسلية وترويحاً، ولم تلبث أن نسيت أنها كانت زوجة ذات يوم، وأنها حملت، ووضعت، فقد مر بها الزواج والوضع دون أن يمسا وتراً من أوتار قلبها، وتركها كما كانت فتاة حسناء لعوباً لا تُقيم لمتاعب الحياة ومناكدها ومسئولياتها وزنا.

خلال الشهور التي أعقبت الحفل الخيري كان بتلر يزورها كُلما ذهب إلى (أتلانتا)، فيُرافقها بمركبته للأسواق والمراقص، وينتظرها بباب المستشفى حتى تفرغ من عملها، فيعود بها للبيت، واطمأنت سكارليت إليه، وزال خوفها من أن يفضح سرها، ولكنها ظلت تذكر دائماً وبشيء كثير من القلق إنه رآها بأسوأ حالاتها، وشهد موقفها مع إشلي، وعرف خبيئة نفسها، ولهذا كانت تضبط لسانها وتصمت على مضض كُلما ضايقها، وكثيراً ما ضايقها.

كان في العقد الثالث من عمره، وأسن من جميع العشاق الذين حاموا حولها، وكانت تشعر بأنها أمامه طفلة لا تقوى على ترويضه والعبث به، كما طالما روضت عشاقها الأحداث وعبثت بهم وخُيل إليها ألا شيء في الدنيا يُدهشه، وأنها لا تستطيع مهما فعلت أن تُغضبه أو تُخرجه عن طوره، وذلك ما كان يُزعجها أكثر من أي شيء آخر، وكان كلما عاد إلى (أتلانتا) من إحدى رحلاته، حمل إلى العمة (بيتي) مُختلف الهدايا، وقبل يدها باحترام وإجلال كما يُقبل أحد الناس يد مليكته، وبذلك عرف كيف يجتذب إليه قلب هذه

العانس الساذجة، وكيف يجعل زياراته لبيتها حدثاً مُحبباً مُرتقباً بفارغ صبر، ولكن سكارليت كانت ترى في سلوكه هذا السُخرية والتهكم، وكانت تشعر في قرارة نفسها بأنه لا يحترم امرأة سوى ميلاني ولا يحترمها هي، وهذا ما دعاها ذات يوم أن قالت له:

- إنني أجمل كثيراً من ميلاني، ولكنك تخصها بالمزيد من عنايتك واحترامك.

- هل تشعرين بالغيرة؟!

- يا للغرور!!

- وا أسفاه. كُنت أرجو أن تكون الغيرة قد وجدت سبيلها لقلبك، إنني أحترم ميلاني لأنها تستحق الاحترام، لأنها نبيلة كريمة الخُلق طاهرة السريرة لا تعرف الرياء والأنانية مُخلصة، فإنها رغم حداثة سنها سيدة عظيمة من طراز يندر أن يعثر عليه الإنسان في هذه الأيام.

- هل تريد أن تقول أنني لست كذلك؟

- أظن أننا اتفقنا عندما تقابلنا لأول مرة، على أنك لست سيدة على الإطلاق.

- من السفه والإسفاف أن تتشدق دائماً بتلك الغضبة الصبيانية. لقد انقضى وقت طويل على هذا الحادث وكدت أن أنساه، لولا أنك تنبشه من طوايا الماضي ولا تكف عن ترديده بين الفينة والفينة.

- لا أعتقد أنها كانت غضبة صبيانية. ولا أظن أنك تغيرت كثيراً، فأنت ما

زلت على استعداد لقذف الأواني إذا عجزت عن تحقيق غرضك.

- تباً لك.. إنك... لو أنني كُنت رجلا لدعوتك إلى المبارزة.

- لكي يكون نصيبك القتل، إنني أصيب قطعة النقود على مسافة خمسين متراً؛ فمن الخير لك أن تقنعي بأسلحتك الخاصة، كالبسمات، والرنوات، وإلقاء الأواني، وما شابه ذلك.

- أنت وغد.

- هل تحسبين أن هذه الكلمات ستُغضبني وتثيرني، ليس في وسعك أن تغضبيني إذا أسميتني باسمي ووصفتني بصفاتي، وهل يضيرني أن أكون وغداً؟! نحن في بلد حر، ولا جناح على الرجل أن يكون وغداً متى شاء، والمُنافقون أمثالك يا سيدتي العزيزة هُم وحدهم الذين يزعجهم أن يوصفوا بصفاتهم الحقيقية.

وهكذا، كانت تجد نفسها دائماً عاجزة أمام برودته وصفاقته، وابتسامته الهادئة، وترى أسلحة الاحتقار، والإعراض، والإهانة تتحطم في يدها دون أن تنال منه منالاً، وقد علمتها تجارب الحياة أن أشد الناس حماسة في الدفاع عن صدقه هو الكذاب، وأقدرهم على وصف شجاعته هو الجبان، ولكن بتلر لم يكن كذلك، كان يعترف بكل ما تنعته به، ويتحداها أن تقول المزيد.

الفصل التاسع

كان الأمل في النصر يملأ كُل قلب في صيف عام ١٨٦٣، ورغم الجوع والفقر وضروب الحرمان وأفاعيل المضاربين في أقوات الناس، ورغم الموت والمرض والآلام التي تركت أثرها في كل بيت وفي كل أسرة؛ فقد عاد أهل الجنوب يُرددون أنشودتهم القديمة «معركة أخرى ونكسب الحرب»، وجاء النصر وأحدث رجة في «أتلانتا» وسائر مدن الجنوب فأقيمت صلوات الشكر وحفلات البهجة بكل مكان وأيقن القوم أن كفة النصر أخذت ترجح أخيراً ناحيتهم، صحيح أن الأعداء كانوا يُحاصرون مدينة «فكسبورج» منذ شهر مايو، وأن ولاية الجنوب خسرت أشجع وأبرع قوادها بمصرع الجنرال «كوب» في «فردريكسبورج» وإصابة الجنرال «ستونوول جاكسون» في «شانسلورفيل»، ولكن كان من الواضح أن الأعداء لا يقوون على احتمال هزيمة جديدة من طراز هزيمة «فردريكسبورج» وأنهم إذا فقدوا المعركة التالية فسيُلقون السلاح وتنتهي هذه الحرب القاسية، وفي الأيام الأولى من شهر يوليه راجت إشاعة أيدتها البرقيات فيما بعد بأن الجنرال «لي» قد انحدر بجيشه على «بنسلفانيا»، ونقل الحرب لأرض الأعداء، فقال الناس:

- إن هذه هي المعركة الأخيرة.

وجن الناس فرحاً في «أتلانتا»، وامتزج فرحهم وغبطتهم بالظمأ

للانتقام، نعم.. سيعرف الأعداء الآن معنى الحرب بعد إذ انتقلت لأرضهم، سيعرفون معنى تخريب الحقول، وسرقة الماشية، ونهب المُمتلكات، وإحراق البيوت، وسجن الشيوخ، وتشريد النساء والأطفال في الطرقات.

نصر آخر وتنتهي الحرب، ويعود الشباب إلى بيوتهم، ويهنأ كُل إنسان، وفجأة صمتت أسلاك البرق وانقطعت أنباء جيش الشمال واستمر هذا الصمت يومين كاملين، ثم بدأت الأنباء تتسرب إلى (أتلانتا) عن معركة عنيفة تدور في بنسلفانيا بالقرب من مدينة (جنسبورج)، وقيل أن الجنرال (لي) قذف إلى هذه المعركة بكل قواته وجازف بكل جيشه، ومر يومان آخران، دون أن يرد نبأ من جبهة القتال، فاستحال القلق إلى ذُعر، وهرع الناس إلى الكنائس وتمنوا على الله ألا يكون أبناؤهم في (بنسلفانيا)، أما أولئك الذين كانوا يعلمون أن أبناءهم زملاء لدارسي ميد، فإنهم رفعوا رؤوسهم كبرا وخيلاء. وقالوا أن من الفخر لأبنائهم أن يخوضوا المعركة التي سوف تمحو الأعداء وتبيدهم. وجلست النسوة الثلاث، ميلاني وسكارليت والعمة بيتي، يتبادلن نظرات الخوف والجزع، ولم تقو إحداهن على الكلام، وكان إشلي في فرقة القائد دارسي ميد.

وفي اليوم الخامس، وردت أسوأ الأنباء، ولكن من جبهة الغرب لا من جبهة الشمال؛ فقد سقطت (فكسبورج) بعد حصار طويل مؤلم وبسقوطها أصبح وادي (المسيسبي) من (سانت لويس) إلى (نيو أورليان) في قبضة الأعداء، وانشطرت ولايات الجنوب إلى شطرين، ولو جاءت هذه الأنباء في وقت آخر لقوبلت بما تستحق من الخوف والهلع، ولكن الناس كانوا في

شغل بجيش الجنرال (لي). ولن يصبح سقوط فكسبورج كارثة خطيرة إذا استطاع (لي) أن يكسر الأعداء في (بنسلفانيا). ويشق طريقه إلى (فيلادلفيا) و(نيويورك) و(واشنجتون).

أثناء انتظارهن إذا بالكابتن بتلر يحمل إليهن نبأ ورود القائمة الأولى إلى الجريدة، وبعد نصف ساعة أخرى فتح باب الجريدة، ولاحت الصفحات التي تتضمن أسماء القتلى، فاندفعت الجماهير المحتشدة للأمام، واقتتلت في سبيل الحصول على نسخة من القائمة، أو قطعة من نسخة، وحينئذ وثب الكابتن بتلر عن ظهر جواده، وألقى بنفسه بين الحشد ورأت النسوة الثلاث كتفيه العريضتين القويتين تدفع الجموع ذات اليمين وذات اليسار، وما هي إلا دقيقة حتى ارتد وفي يده حزمة من نسخ الجريدة، فألقى نسخة إلى ميلاني، ووزع بقية النسخ على السيدات اللاتي كُن ينتظرن في مركباتهن، وبينهن مدام باركر، ومدام ميد، ومدام إيلزنج، وصاحت سكارليت وقلبها يكاد يثبت من حلقها:

- اقرئي يا ميلاني.. اقرئي بسرعة.

لكن الصحيفة كانت ترتجف بشدة في يد ميلاني، فكانت القراءة مستحيلة، همست: "اقرئي أنت يا سكارليت".

فاختطفت سكارليت الصحيفة، وألقت ببصرها على الأسماء وهي تهتف:

- إشلي ويلكس، أين حرف (الواو)، ويليمز، وين... زيبرنج.. وافرحتاه. لا

يوجد اسم ويلكس، انجدي العمة بيتي يا ميلاني.. لقد أغمي عليها.

فاحتوت ميلاني عمتها بين ساعديها، ودموع الفرح تنهمر من عينيها، وأقبلت سكارليت على ميلاني تضمها إلى صدرها، وقلبها يرقص طرباً حمداً لله، أن إشلي لا يزال على قيد الحياة.. وسمعت على مقربة منها صيحة ألم، فرفعت رأسها، ورأت أنابيل باركر تتهالك بين ساعدي أمها؛ فتلاشت الابتسامة عن شفتيها، وهمست: "واأسفاه.. قد مات خطيبها".

ثم وقع بصرها على مدام ميد، وهي تقرأ القائمة بقلق، وتقاطيع وجهها الشاحب تدعو إلى الإشفاق؛ فهمست: "رباه.. رحمة بها"

نظرت بالقائمة التي بين يديها، وقرأت اسم (ميد) (دارسي ميد) والتقت عيناها بعيني الأم الثكلى؛ فهمست مدام ميد:

- إنه الآن ليس بحاجة إلى حذاء..

فلم تتمالك سكارليت نفسها من البكاء.

تحركت المركبة بين نساء يبكين فرحاً، وأخريات ألجمهن الحزن وأذهلتهن الكوارث، ورأت سكارليت قائمة القتلى بين يديها، فراحت تقرأها بسرعة، باحثة عن أسماء أصدقائها ومعارفها، لقد اطمأنت الآن إلى سلامة إشلي، وفي مقدورها أن تُفكر في غيره من الناس.

الفصل العاشر

قُبيل عيد الميلاد عاد إشلي إلى (أتلانتا) في أجازة يقضيها بين ذويه، وأبصرت به سكارليت بعد غياب عامين، وهالها عُنف العاطفة الكامنة بأعماقها، وكانت تظن عندما زُف إلى ميلاني أنها تُحبه من كُل قلبها الكسير، وبكل جارحة من جوارحها، حُباً لا يقبل المزيد، ولكنها أدركت الآن أن ما حسبته في ذلك الوقت حباً لم يكن إلا عبثاً ولهواً إذا قيس بهذه العاصفة المُلتهبة الجامحة التي نفخ في لهبها طول التفكير والانتظار، وضبط النفس واللسان.

وقد رأت في إشلي الضابط الذي لفحت الشمس وجهه، رجلاً آخر غير إشلي الأشقر الهادئ الذي عرفته قبل الحرب، وأحبته، رأته مديد القامة مفتول الساعدين، مرفوع الرأس، قد تدلى شاربه حول فمه، واستحال خمول نظراته إلى بريق ثاقب ينم عن اليقظة والنشاط، ولم يُزده هذا التحول إلا فتنة ورجولة، ولم يُزدها إلا افتناناً به وحُباً له.

ها هو الآن أمامها، لا يبعد عنها إلا خطوة واحدة، وها هي تتجلد لكيلا تذرف الدمع فرحاً وسروراً، ليتها فقط تستطيع أن تجلس بجواره وتتأبط ساعده وتُجفف دموعها بمنديله كما تفعل ميلاني!!

وضعت يدها على خدها حيث قبلها وخُيل إليها أنها لا تزال تحس

حرارة شفتيه، ولم تكن هي طبعاً أول من تلقى قبلاته، فقد سبقتها ميلاني لأحضانه، وتهالكت بين ساعديه، وأحاطته بيديها كأنها لا تُريد أن تتركه أبداً، ثُم تبعتها أخته (هانيا)، ثُم تبادل مع أبيه قبلتين رزينتين تنمان عن الشعور العميق المتبادل بينهما، ثُم قبل العمة بيتي، وأخيراً تحول إليها وهتف (وأنت أيتها المخلوقة الجميلة)، وقبل خدها، وتبخرت مع القبلة كل ما كانت تدخره من عبارات الترحيب.. ولم تفطن إلا بعد بضع ساعات إلى أنه طبع القبلة على خدها، ولم يطبعها على شفتيها، ولكن لا بأس، لا يزال لديها مُتسع من الوقت، لا يزال لديها أسبوع كامل، تستطيع خلاله أن تخلو به، وتقول له:

- هل تذكر نزهاتنا الخلوية معاً؟ هل تذكر كيف كان القمر يطل علينا وأنت تتلو عليَّ قصائد الشعر في حديقة (تارا)؟! هل تذكر يوم سقطت عن ظهر جوادي؛ فحملتني بين ساعديك إلى البيت؟ يا إلهي.. ما أكثر العبارات الحلوة التي يمكن أن تقال تحت عنوان «هل تذكر»!!

وحاولت سكارليت أن تخلو به في ذلك اليوم ولكن ميلاني وهانيا كانتا تلازمانه كظله وفي المساء بعد أن تناولوا طعام العشاء، دار الحديث حول الحرب؛ فتكلم إشلي بإسهاب، وبروح الدعابة، وتناول حديثه خاصة الناحية المرحة من حياة الجندية. وتكلم بقلة اكتراث عن الجوع والبرد والأمطار والأوحال ومختلف المتاعب التي يستهدف لها الجندي في ميدان القتال. ولم تره سكارليت مُسرفاً في الكلام والمرح

كما كان في ذلك المساء. وخيل إليها أنه يواصل الحديث عمداً ليمنع السامعين من إلقاء الأسئلة. وعندما رأت أهدابه تهتز وعينيه تضطربان وتطرقان أمام نظرات أبيه الفاحصة، خامرها الشك في أمره، وأدركت أنه يظهر غير ما يُبطن ويخفي وراء هدوئه وطمأنينته قلقاً لا يُريد الإفصاح عنه، ولكن سرعان ما تبددت شكوكها ومخاوفها، فقد كان قلبها مُفعماً بالسعادة. وعقلها في شغل بالبحث عن وسيلة للخلوة به.

لقد حاولت عبثاً طيلة الأسبوع أن تنفرد به، ولكنه كان دائماً محوطا بالأصدقاء والأقارب من الصباح حتى المساء، مُحاطاً بعيون ميلاني وهانيا وأبيه في كل لحظة وفي كل مكان، وخلال هذا الأسبوع لم ينظر إليها إلا كما ينظر الأخ إلى أخته، ولم يتحدث إليها إلا كما يتحدث الصديق إلى صديقته. ولكنها لا تستطيع أن تدعه يذهب قبل أن تسبر غوره، وتعرف هل ما زال يُحبها، حتى إذا قُتل في الحرب كان في وسعها أن تنعم بالذكرى حتى آخر يوم من حياتها.

وبعد دقائق مرت كأجيال، سمعت وقع أقدامه وهو يهبط السلم، حمدا لله إنه وحده، لا بد أن يكون الحزن قد برح بميلاني، فلم تبرح غرفتها، الآن تستطيع أن تحتكره لنفسها بضع دقائق، ورآها وحاول أن يبتسم، فكانت ابتسامة كالحة كالتي تصعد إلى شفتي رجل يشعر بجرح داخلي، فقالت له ضارعة:

- إشلي.. هل أرافقك إلى القطار؟!

- أرجو ألا تفعلي، إن أبي وأختي هناك في انتظاري، وإني أوثر أن أذكر وداعك لي هُنا، عليَّ أن أذكرك وأنت ترتجفين من البرد في المحطة،

وعدلت عن خطتها في الحال، فهانيا تمقتها، وتعرف سرها، ولن تسمح لها بأن تُبدي كلمة واحدة، فقالت:

- إذاً سأبقى.. انظر يا إشلي، قد أعددت لك هدية.

أعطته شملة (كوفية) من الحرير، صنعتها له خصيصا من وشاح حريري كان بتلر قد أهداه إليها، وعملت في زخرفته طيلة الليالي الأخيرة بصبر وأناة، حتى جعلت منه تُحفة جديرة به، هتف:

- ما أجملها!! هل صنعتها بيدك يا سكارليت؟ إذن سيتضاعف تقديري لها، وحرصي عليها، عاونيني على وضعها أيتها العزيزة.

وضعت الشملة حول عُنقها وتراجعت خطوة للوراء، وراحت تتأمله في إعجاب وخيلاء، قال:

- إنها بديعة. ولكني واثق من أنك قطعتها من ثوب أو وشاح لكي تصنعيها. ما كان يجب أن تفعلي ذلك يا سكارليت، فالأشياء الجميلة نادرة هذه الأيام.

هتفت:

- أواه يا إشلي.. إنني...

وهمت بأن تقول:

- إنني أقطع قلبي لأصنع منه دثاراً لك.

ولكنها أتمت عبارتها:

- إنني أفعل أي شيء من أجلك يا إشلي.

فقطب حاجبيه وأجاب:

- أحقاً تقولين؟ إذن فهناك شيء تستطيعين أن تفعليه من أجلي يا سكارليت...

أحست بأنها على استعداد لأن تعده بالمعجزات، وهتفت:

- وما هو؟

- هل تعدينني بالعناية بميلاني يا سكارليت؟

- العناية بميلاني؟!

وغاص قلبها بين جنبيها يأساً وقنوطاً، أهذه أمنيته الوحيدة، أو هذا كُل ما يرجوه منها، وهي التي كانت على استعداد لأن تعده بما هو أعظم وأجمل.. لقد كانت ترجو أن تختلس هذه اللحظات لنفسها فقط، فإذا بشبح ميلاني يقف بينها وبينه، حتى في هذه الفترة القصيرة، ولم ير آية اليأس التي ارتسمت على وجهها، فقد تخطاها وراح ينظر للأفق البعيد

كعهدها به، قال:

- نعم.. أعتني بها، فإنها هزيلة نحيلة، وستفني جسدها في التمريض والحياكة وخدمة المرضى في المستشفيات، وليس لها من تلوذ به بعدي سواك، أما العمة بيتي فإنها امرأة ساذجة كالأطفال. إن ميلاني تُحبك يا سكارليت ليس لأنك زوجة أخيها، إنها تُحبك لشخصك، وتُحبك كأخت، وليس بمقدورك أن تتصوري مبلغ جزعي كُلما فكرت فيما قد يُصيبها إذا أنا قتلت، ولم تجد من تلوذ به وتركن إليه، فهل تعدينني؟!

واستولى عليها الجزع عندما تحدث عن احتمال قتله، لقد كانت تقرأ قائمة القتلى كُل يوم، وتقرأها وقلبها ينبض في حلقها، لأن موته معناه انهيار حياتها، وانهيار الدنيا حولها، ولكنها كانت دائماً تشعر شعوراً خفياً بأن جيش الجنوب قد يفنى كله أما هو فلن يُصاب بسوء، ولكن هذا الشعور تبدد بطرفة عين حين تكلم بنفسه عن احتمال موته، فهتفت:

- كلا، كلا.. لا تتكلم عن الموت، بل ولا تُفكر فيه.

فابتسم ابتسامة حزينة وقال:

- إنما أطالبك بهذا الوعد يا سكارليت، لأنني لا أعلم ماذا قد يُصيبني غداً، أو ماذا قد يُصيب أحدنا، إنني لا أتكلم طيلة هذا الأسبوع إلا كذباً، كما يفعل جميع الجنود بالأجازة، ولماذا أزعج ميلاني والعمة

بيتي بما هما الآن في غنى عن معرفته؟! أما الحقيقة فهي أننا نسير في طريق الهزيمة، وقد كانت معركة (جتسبورج) بدء النهاية، ولكن الناس هُنا لا يعلمون. نعم يا سكارليت، الناس لا يعلمون أن جنودنا يُقاتلون فوق ثلوج (فرجينيا) وهم حُفاة، وأنا كُلما رأيت الأطمار البالية التي يحزمون بها أقدامهم اتقاء البرد، ورأيت آثار الدماء التي تتركها أقدامهم على الثلج ووجدت أنني من دونهم أنتعل حذاء، خطر لي أن ألقي بحذائي وأمشي حافياً أسوة بهم.

- أواه يا إشلي.. عدني ألا تفعل ذلك؟!

- لا تُرددي شيئاً مما أقول، فإنني لا أريد إزعاج الآخرين، وإذا كُنت قد بسطت لك الحقيقة فما ذلك إلا لكي أحصل منك علي وعد بالعناية بميلان، فهل تعدينني؟!

فهتفت:

- نعم.. نعم يا إشلي.. إنني أعدك.

مشى إلى الباب حتى وصل إليه، وحول رأسه ورمقها بنظرة طويلة يائسة وكأنه يُريد قبل الفُراق أن يُسجل في ذهنه كل قسمة من قسمات وجهها، ورمقته سكارليت من خلال دموعها، ورأت والعبرات تخنقها أنه يهم بالخروج من البيت ومن حياتها دون أن ينطق بالكلمة التي تحن لسماعها، فوثبت إليه وألقت بيديها على كتفيه وهمست:

- قبلني.. قبلني قبلة الوداع.

فأحاطها بساعديه برفق وأحنى رأسه فوق وجهها، وما أن أحست بشفتيه فوق شفتيها حتى ألقت ساعديها حول عُنقه وضمته لصدرها بعنف، وانقضت لحظة سريعة، خُيل إليها فيها أنه أصبح جُزءاً من كيانها وأصبحت جزءاً من كيانه، وفجأة أسقطت قبعته وأرخى ساعديه، وانحنى ليلتقط القبعة، ثُم أمسك بيديها بقوة آلمتها، وقال بصوت خافت:

- كلا.. كلا.. يا سكارليت.

- إنني أحبك، كُنت دائماً أحبك، وما أحببت أحداً سواك، وقد اقترنت بشارل، لكي أؤلمك، أواه يا إشلي، إن حُبي لك يُزين لي أن أمشي على قدمي كل خطوة في الطريق إلى (فرجينيا) لكي أكون بقربك، فأطهو طعامك، وأنظف حذاءك، وأعتني بجوادك، قل فقط إنك تحبني يا إشلي، كلمة واحدة، أتزود بها بقية العمر.

ونظرت لوجهه فإذا هو أتعس وجه وقع عليه بصرها، كان مسطراً على وجهه حُبه لها، وسعادته بحبها له، وقد امتزج هذا وذاك بالخجل واليأس والشقاء، وقال بصوت أجش:

- وداعاً.

الفصل الحادي عشر

كانت الشهور الثلاثة التالية من أسوأ ما مر بمدينة (أتلانتا)، فاقترنت الأمطار المُنهمرة والبرد القارص بالقلق والجزع بعد الهزيمتين الساحقتين اللتين مُني بهما الجنوب في (جتسبورج) و(فكسبورج)، وكان من أثرهما أن أصبحت ولاية (تنسى) كُلها في أيدي الأعداء، وتقوس خط الدفاع الأمامي للداخل، ولكن رغم هذه الهزائم، وما اقترن بها من خسائر بالأرواح والممتلكات، فالروح المعنوية في الجنوب لم تتحطم، وكُل ما حدث أن الأمل العظيم في الفوز استحال لعناد أعظم، وتصميم على الثبات والدفاع عن كل شبر من الأرض، ثم حدث فجأة ما جعل الناس يرون خيطاً من النور، فقد أرادت جيوش لنكولن أن تواصل زحفها وتشق طريقها بولاية (جورجيا)، ولكنها صدت وطُردت بعد معركة عنيفة تكبدت فيها خسائر جسيمة، وقد لعبت (أتلانتا) وخطوطها الحديدية في هذه المعركة دوراً حاسماً لأنها كانت حلقة الاتصال بين (فرجينيا) وحدود (تنسي)، ومن (فرجينيا) جاء الجيش الذي هزم الأعداء بقيادة الجنرال (لونجستريت)، وكانت مركبات السكك الحديدية تمر بأتلانتا بكل ساعة من ساعات الليل والنهار، وعليها عشرات الألوف من جنود (فرجينيا) جاءوا بغير طعام أو شراب أو أحذية أو جياد، ليخوضوا المعركة حال وصول القطار، وقد كان الجنوب في أشد الحاجة لهذا الانتصار الجزئي لتشديد العزائم وتقوية الروح المعنوية خلال شهور الشتاء.

لم يكن هناك من ينكر أن الأعداء محاربون أشداء، وأن قادتهم من الطراز الأول؛ فلديهم الجنرال جرانت، وهو جزار لا يُبالي بالأرواح في سبيل النصر، والجنرال (شريدان) الطاغية الذي طالما أوقع اسمه الذعر في قلوب أهل الجنوب، وأخيراً الجنرال (شيرمان) بطل معركة (تنسي) وقد برهن على دهائه، وقوة شكيمته بيد أن أحداً من هؤلاء بل كُل هؤلاء ما كانوا ليُقارنوا بالجنرال (لي)، وكانت الثقة بالجنرال وجيشه لا حد لها، ولكن الثقة وحدها لا تكفي، وكان من الواضح أن الحرب ستمتد أعواماً أخرى، وهذا معناه مزيد من الشقاء والأحزان ومزيد من القتلى والجرحى واليتامى والأيامى، وزاد الطين بلة أن قيمة النقود هبطت مرة أخرى، وارتفعت الأسعار، وبيع رطل اللحم بخمسة وثلاثين دولاراً، ورطل الشاي بخمسمائة دولار واختفت الثياب الجديدة من الأسواق، ورقعت النساء ثيابهن بورق الصحف، وكان الجنوب يُعول في حياته ورخائه على بيع القطن وشراء المواد التي لا يصنعها ولا يُنتجها، ولكن الحصار الذي اشتد بالشهور الأخيرة جعل البيع والشراء ضرباً من المستحيلات، وتكدس لدى جيرالد أوهارا وهو نموذج لزراع الجنوب قُطن ثلاثة أعوام مُتوالية. وثمن هذا القطن في ليفربول مائة وخمسون ألف دولارا ولكن لا سبيل لإرساله لليفربول، وهكذا وجد جيرالد نفسه قد انحدر من مزارع ثري، لرجل حائر لا يدري كيف يُطعم أسرته وعماله وزنوجه خلال شهور الشتاء، وما يُقال عن جيرالد أوهارا يُقال كذلك عن غيره من الزُراع، وقد وجد المُضاربون والنفعيون في انقطاع الواردات فرصة للإثراء سارعوا لاقتناصها، ولما قل الطعام والثياب واطرد الغلاء ارتفعت صيحات

السخط والغضب بكل مكان، ولم تصدر جريدة بتلك الأيام السوداء من عام ١٨٦٤ إلا حملت على المُضاربين وشبهتهم بالجوارح الناهبة والخفافيش التي تمتص دماء الناس، وأهابت بالحكومة أن تأخذهم بالشدة وتضربهم بيد من حديد، وعلى الرغم من هذه الشدائد والمتاعب لم تزدهر (أتلانتا) في كل تاريخها كما ازدهرت في تلك الأيام، وكان أهلها يُعانون الحرمان والمرض والموت كسائر أهل الجنوب، أما المدينة ذاتها فإنها كسبت من الحرب أكثر مما خسرت، وتضاعف سكانها بأقل من عامين. وتركزت فيها كل الأهمية التي كانت للموانئ من قبل وأصبحت هي قلب الجنوب الخافق. وخطوطها الحديدية كالشرايين تنبض بفيض لا ينقطع من الرجال والذخائر والمؤن، ولو كان العهد غير العهد، لبرمت سكارليت بثيابها الرثة وأحذيتها المُرقعة، ولكنها لا تُبالي الآن طالما الشخص الوحيد الذي يهمها ليس موجوداً، ولا يراها.

كان قلبها مفعماً بالسعادة.. أفلم تشعر بقلب إشلي يضطرب بين ضلوعه حين أحاطته بساعديها؟! ألم تر في عينيه نظرة أبلغ من الكلام، وأصرح من الاعتراف؟! إنه يُحبها، وهي واثقة من ذلك وثوقاً يحملها على الرفق بميلاني، والرثاء لحماقتها وقصر نظرها، وكانت لا تزال تنعم بذكرى ذلك اللقاء السعيد.. وتُفكر فيما ادخره لها القدر من هناء متى وضعت الحرب أوزارها ومتى عاد إشلي ليبقى حين أصيبت آمالها وأحلامها فجأة بصدمة قاصمة، أحالت طمأنينتها جزعاً وسعادتها شقاءً، فقد جاءت ميلاني ذات يوم، ووجهها الصريح يطفح بشراً، وقالت لها:

"إنها حامل"، واستطردت:

- والدكتور (ميد) ينتظر الطفل بأواخر أغسطس، وكنت أشعر بأنني حامل، ولكنني لم أكن على يقين أيتها العزيزة، أليس بديعاً أن أرزق منه بطفل؟؟

صاحت سكارليت بخشونة، ووجهها جامد كالصخر: "دعيني وشأني".

فانفجرت ميلاني باكية، وفرت من الغرفة، وبقيت سكارليت وحدها نهبا للألم والغيرة، وخيبة الأمل، فكرت في أنها لا تستطيع بعد الآن أن تعيش تحت سقف واحد مع المرأة التي تحمل طفل إشلي في أحشائها، وأنها لا يُمكنها أن تنظر لميلاني بعد الآن دون أن تقرأ ميلاني سرها مسطوراً على وجهها، وصحت عزيمتها على الرحيل في اليوم التالي إلى (تارا)، وبصباح اليوم التالي، بينما كانت النسوة الثلاث يتناولن طعام الإفطار في جو من البرود والفتور، إذا بالعم (بيتر) يحمل برقية إلى ميلاني، وجمدت ميلاني لحظة قبل أن تتناول البرقية.. وتبادلت مع زميلتيها نظرة تنم عن الحيرة والفزع، وفضت البرقية وقرأت:

"يؤسفني أن أنبئك بأن الكابتن إشلي ويلكس مفقود مُنذ ثلاثة أيام".

(الكولونيل سلون)

نسيت سكارليت أنها كانت تعتزم الرحيل، وجثت بغرفتها وحاولت أن تبتهل إلى الله، ولكن أصابها إعياء مُفاجئ، ولم تدر ماذا تقول ولا كيف تبتهل، وشاع الرعب في قلبها، وشعرت شعوراً مُبهما بأن الله قد تخلى عنها لإثمها وخطيئتها، فلقد أحبت رجلاً مُتزوجاً، وعملت جاهدة لانتزاعه من زوجته فعاقبها الله بقتله.

أرادت أن تبتهل، ولم تجسر على أن ترفع عينيها للسماء، وأرادت أن تبكي، ولكن الدموع امتنعت على عينيها، وخُيل إليها أنها تغمر صدرها، وتحرق قلبها، ولكنها لا تفيض من مآقيها، وفتح باب الغرفة، ودخلت ميلاني ووجهها البريء أبيض كقطعة من الورق، وعيناها مفتوحتان كعيني طفل مذعور ترك في الظلام الدامس، وقالت وهي تبسط يديها مُستعطفة:

- سكارليت.. اغفري لي ما بدر مني ليلة أمس، فأنت الآن كُل ما بقى لي، أواه يا أختاه إنني أعلم أنه قُتل

وألقت بنفسها بين ساعدي سكارليت، وبكت المرأتان معاً، وامتزجت دموعهما، وهمست ميلاني:

- كُل عزائي الآن، أنني أحمل طفله.

وقالت سكارليت لنفسها: "أما أنا، فلا عزاء لي.. لا عزاء لي غير النظرة التي رأيتها في عينيه عندما ودعني".

بعد ثلاثة أشهر حمل بتلر للنسوة الثلاث نبأ ملأ قلوبهن فرحاً لأول وهلة، ثُم انقلب فرحهن قلقاً وجزعاً عندما فكرن في الأمر ملياً، فلقد قال لهن إن إشلي جُرح وأسر، ونُقل للسجن الحربي بالجزيرة الصخرية؛ فسرهن أنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن ما كادت تهدأ نفوسهن حتى نظرن لبعضهن بعضاً وهتفن:

- في الجزيرة الصخرية...

كما لو قيل لهن أنه في جهنم.

رفض (إبراهام لنكولن) أن يتبادل الأسرى مع الجنوبيين أملاً في أن يضيق الجنوبيون بإطعام الأسرى وحراستهم، فيُعجل ذلك بنهاية الحرب، ولم يكن لدى الجنوبيين من الطعام والعقاقير ما يقتسمونه مع أسراهم فكان الأسرى يموتون بالمئات كل يوم، وعلم الشماليون بذلك، فثارت ثائرتهم وقرروا أن يعاملوا أسراهم بالمثل، ولم يجدوا جحيماً للأسرى أسوأ من (الجزيرة الصخرية) حيث الطعام قليل والأغطية محدودة العدد، والجُدري والتيفود يفتكان بالناس فتكا ذريعاً، وقد كان إشلي سجيناً بهذه الجزيرة المُخيفة، هتفت ميلاني:

- ألا توجد وسيلة يا كابتن بتلر؟ ألا تستطيع أن تستخدم نفوذك لاستبدال (إشلي) مع أحد الأسرى؟!

فأجاب بتلر متهكما:

- إن مستر لنكولن الرجل العادل الكريم الذي يبكي رحمة بالزنوج لا يجد دمعة واحدة يرسلها من أجل آلاف الشماليين الذين يحصدهم الموت في سجوننا، فهو يرفض تبادل الأسرى، ولو هلك مواطنوه جميعاً في سجوننا، ولكن ألم أقل لك أن زوجك قد عُرضت له فرصة للخلاص في فرضها؟

فصاحت ميلاني وهي لا تكاد تُصدق أذنيها:

- كلا.. وكيف كان ذلك؟

- حكومة الشمال تبحث عن رجال لحراسة الحدود ومقاومة الهنود الحمر، وتجند أولئك الرجال من بين الأسرى، وكل أسير يقسم يمين الطاعة والولاء ويعد بالخدمة في حراسة الحدود عامين يُطلق سراحه ويُرسل للحدود الغربية، وقد رفض إشلي ويلكس هذا العرض.

فصاحت سكارليت:

- يا إلهي.. ولماذا رفض؟؟ لماذا لم يُقسم اليمين، ثم ينتهز أول فرصة للفرار؛ فيهرب ويعود إلينا.

فنظرت إليها ميلاني بحدة:

- كيف يخطر لك شيء كهذا؟! أيخون وطنه ويقسم تلك اليمين، ثم يحنث بيمينه ويلوذ بالفرار؟؟ إنني أوثر أن يقال لي أنه مات في

الجزيرة الصخرية على أن يقال أنه أقسم يمين الطاعة والولاء لأعداء وطنه.

عندما انصرف الكابتن بتلر رافقته سكارليت للباب وسألته:

- إذا وقعت أسيراً بقبضة الشماليين، فهل نُقسم لهم يمين الطاعة والولاء لننجو من الموت في تلك الجزيرة المخيفة؟

فابتسم وأجاب على الفور:

- طبعاً.

- إذاً لماذا لم يفعل إشلي ذلك؟؟

- لأنه رجل نبيل.

وعجبت سكارليت كيف استطاع بتلر أن يودع هذا الجواب المقتضب كل هذا الاحتقار، وهذه السخرية!!

الفصل الثاني عشر

في يوم شديد القيظ من أيام شهر يوليو استيقظ الناس على دوي كقصف الرعد، فهبوا من مضاجعهم فزعين، وأدركوا والذعر يملأ قلوبهم أن الحرب قد وصلت لأبواب المدينة، وغصت شوارع المدينة فجأة بفرق الجيش المُنهزم، وكان الجنود في حالة يرثى لها من العري والجوع والتعب بعد قتال دائم، وانسحاب متواصل استمر ستة وسبعين يوماً، ولكنهم كانوا يسيرون بانتظام، وأعلامهم الحمراء المُهلهلة تخفق فوق رءوسهم، وتدفق سكان المدينة للشوارع لاستقبال الجنود وتحيتهم، والهتاف لهم، وكانوا أبناء الوطن على كل حال في النصر أو في الهزيمة. واحتشدت النساء على أسطح المنازل لشهود معركة «أتلانتا»، ولكن ما أن أخذت القنابل تتساقط على الدور والشوارع حتى فزعت النساء للأقبية وشاع الذعر في جوانب المدينة، وفي مساء ذلك اليوم، بدأت هجرة النساء والأطفال والشيوخ من «أتلانتا»، وكانت العمة «بيتي» في مقدمة المُهاجرين، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحملها على البقاء وسط قصف المدافع، بل إن علمها بأن «ميلاني» قد أشرفت على الوضع لم يكن من شأنه أن يُقنعها بإرجاء الرحيل ولو يوماً واحداً، فحزمت أمتعتها وشدت الرحيل إلى «ماكون» برفقة خادمها الزنجي «بيتر».. وبكت ميلاني أسى وعجزاً قائلة:

- كم كُنت أود أن أرحل كذلك... ولكن...

نظرت لبطنها المُتضخم واستطردت:

- لقد حظر عليَّ الدكتور «ميد» أن أتحرك أو أن أبذل جهداً، أواه يا سكارليت، بالله لا تدعيني وحدي بهذا الضيق إنني أموت إذا حان الوقت ولم أجدك بجانبي، لو كانت لي أخت ما أحببتها كما أحبك، وبعد..

هُنا تلاعبت على شفتيها ابتسامة رقيقة وأردفت:

- إنك وعدت إشلي بالعناية بي، لقد قال لي أنه سيُطالبك بهذا الوعد.

حملقت سكارليت بوجهها بدهشة، وعجبت (وهي التي تكره ميلاني بكل قوتها كراهة لا تكاد تقوى على كتمانها) كيف يُمكن لميلاني أن تُحبها وكيف تبلغ من البلادة وقصر النظر لهذا الحد، فلا ترى ولا تُدرك حبها لإشلي وشغفها به، وميلاني لم تُدرك شيئاً لأنها طُبعت على ألا ترى بالناس إلا جانب الخير.

قالت سكارليت:

- نعم، إنني وعدته، وسأفي بوعدي، ولن أهجرك، وإذا كان لا بد من الرحيل؛ فإننا نرحل معاً إلى «تارا».

في الأيام الأولى التي أعقبت حصار «أتلانتا» وأخذ الأعداء

يرتطمون بحدود المدينة، لم يكن في مقدور سكارليت إلا أن تنكمش في ذعر، وتضع أصابعها بأذنيها كلما سمعت انفجار القنابل، وفي بعض الأحيان كانت تفزع لغرفة ميلاني، وترتمي بفراشها فتتعانق المرأتان، وتبكيان معاً وتصب سكارليت اللعنات في سرها على ميلاني لأنها تغل يديها، وتعوقها عن الفرار لمناطق الأمان، وكانت تحن إلى (تارا) وإلى أمها كما لم تحن إليهما من قبل، وكُلما اشتد قصف المدافع، وتوالى انفجار القنابل على الدور والشوارع ذهبت لغُرفتها وهي مُصممة على أن تقول لميلاني باليوم التالي، إنها لا تستطيع البقاء في (أتلانتا) ساعة أخرى، وبمقدورها (أي ميلاني) أن تنتقل لبيت الدكتور «ميد» إذا شاءت، ولكنها لا تكاد تأوي لفراشها حتى تذكر إشلي، وتذكر نظراته الضارعة إليها، ونبرات صوته حين سألها:

- هل تعدينني بالعناية بميلاني؟

كانت أمها قد كتبت إليها مراراً تستقدمها؛ فردت عليها تطمئنها وتهون من أخطاء الحصار وتوضح لها حالة ميلاني وتعدها بالرحيل إلى «تارا» بعد الوضع ولكنها ألحت عليها في أن تبعث إليها بطفلها جيمس هاملتون، وأصاب هذا الرأي هوى من نفس سكارليت، فقد كان ابنها مصدر قلق لها، وكُلما انفجرت قنبلة، ذُعر الطفل، وملأ الدنيا صراخاً، فصحت عزيمتها على إرساله إلى «تارا» برفقة خادمتها الزنجية «ديسلي»، ولكنها ما كادت تحزم أمتعة الطفل حتى جاءت الأنباء بأن الجنرال «شيرمان» قد انحدر بجيشه نحو الجنوب ليستولي على

«جونزبورو» ويعزل «أتلانتا»، وبعد ثلاثة أيام تستلم سكارليت رسالة من جيرالد أوهارا لحمتها الغرور، وفيها يفخر أبوها بأن الأعداء قد صُدوا عن الخط الحديدي كما لو كان هو الذي صدهم بمفرده، وبعد ثلاث صفحات كلها إطراء لجيش الجنوب قرأت في ذيل الرسالة عبارة مُقتضبة، جاء بها أن «كارين» مريضة، وأن أمها تظن أنها مريضة بالتيفود، ولكن لا ضرورة للانزعاج.

جلست سكارليت بغرفتها في تلك الليلة وقرأت رسالة أبيها للمرة الرابعة، وتخيلت «تارا» وربوعها الهادئة، وما يُمكن أن ينزل بها إذا أدركتها الحرب، وجرى ذهنها للأيام السعيدة التي قضتها بأحضانها، وتذكرت الأشقاء الأربعة ستيوارت وبرنيت وتوماس وبويد، وقالت لنفسها والعبرات تخنقها، إنها لن ترى بعد الآن وجوههم الباسمة الفتية، ولن تسمع هذرهم، وسخافاتهم، ووقع حوافز جيادهم، وفجأة سمعت حركة عند الباب الخارجي، فجففت دموعها، وأطلت من النافذة، ورأت رايت بتلر يجتاز الحديقة، ولم يكن قد وقع بصرها عليه مُنذ بضعة أسابيع، ورغم نفورها منه واشمئزازها من خشونته ووقاحته وسخريته فقد سرها أن تجد بتلك الليلة من يُجاذبها أطراف الحديث، ويشغلها عن تأملاتها المُحزنة. هتف عندما رآها:

- كيف هذا؟! ألم تهربي إلى (ماكون) قيل لي إن العمة (بيتي) قد شدت رحالها إلى هُناك، فأيقنت أنك ذاهبة في رفقتها، وأدهشني أن أرى النور يسطع في غرفتك.. فلماذا تخلفت؟؟

- تخلفت لأعني بميلاني، إنها لا تستطيع حراكاً.

- يا للشيطان؟؟ هل تعنين أن ميلاني لا تزال هنا؟؟ ذلك هو عين السخف، إن بقاءها أخطر عليها من الرحيل.

فقالت بامتعاض:

- ليس من اللّياقة أن تتجاهل الخطر الذي يُحيط بي كذلك.

فقال ساخراً:

- إنني على استعداد للوقوف إلى جانبك أمام الأعداء جميعاً.

فهزت كتفيها وقالت:

- لا أرى موضع المُجاملة في هذا الجواب.

- إنني لم أقصد للمجاملة، يا إلهي، متى تكفين عن التماس المُجاملات في كل عبارة ينطق بها الرجال!؟

فابتسمت بدورها وأجابت:

- لن أكف عن هذا حتى أسلم الروح.

- يا للغرور!! والخيلاء!؟ ولكني أعجب بهذه الصراحة.

وأشعل لفافة تبغ وراح يُدخنها، ثُم ضحك فجأة ضحكة خافتة

قائلاً:

- إذاً قد تخلفت للعناية بميلاني؟! هذا أعجب موقف شهدته طوال حياتي.

فتحركت في مكانها بقلق، وأحست بأنه يتأهب للتحرش بها، وقالت:

- لست أرى فيه موضعاً للعجب.

- إذاً أنت تفتقرين لموهبة النظر للأمور بالعين التي ينظر بها الغير، لقد كان شعوري دائماً أنك لا تطيقين زوجة إشلي ويلكس، وأنك تعتبرينها بلهاء حمقاء، وقلما تفوتك فرصة للحط من قدرها، أفليس عجيباً إذن أن تتجردي من أنانيتك بغتة، وتؤثري ملازمتها في هذا الجو العاصف تحت وابل الرصاص والقنابل؟!

فأجابته سكارليت:

- لأنها أخت شارل، ولأني أعتبرها كأختي.

- تعنين بها لأنها زوجة إشلي، وربما أرملته.

ثارت ثائرتها وصاحت بغضب:

- إنك رجل حقير بغريزتك، ولا أمل بإصلاحك أو تهذيبك، وكدت

أرفض مُقابلتك لولا أنني كُنت أشعر بالوحدة والحُزن.

- اجلسي ورفهي عنك؛ فإنني ما جئت لأغضبك.

ثُم سألها في رفق:

- لماذا كُنتِ تشعرين بالحزن؟؟

- جاءتني اليوم رسالة من أبي يقول فيها أن الأعداء يتقربون من (تارا) وأن أختي مريضة بالتيفود، فلو كان باستطاعتي الرحيل إلى (تارا) لمنعتني أمي، حتى لا تنتقل لي عدوى المرض.

قال بلطف:

- لا تحزني، إن (أتلانتا) أسلم لك من (تارا)، حتى لو دخلها الأعداء. إن الأعداء لا يُؤذونك... أما التيفود...

- كيف لا يُؤذونني...؟

- إنهم ليسوا أبالسة كما تتوهمين يا بنيتي العزيزة، إنهم كأهل الجنوب، وفقط يختلفون في لهجتهم وخشونتهم..

- ماذا تقول؟؟ إذا دخلوا المدينة فإنهم..

- يعتدون عليك؟؟ كلا... لا أظنهم يفعلون... حتى ولو أرادوا.

فصاحت وقد احمر وجهها خجلا:

- إذا لم تكف عن هذه البذاءة....

- كوني صريحة... ألم يكن ذلك ما جال بُخاطرك؟؟

- كلا.

- أؤكد لك أن هذا ما كُنت تفكرين فيه، لماذا يُغضبك أن أقرأ خواطرك؟؟ وبعد، فذلك ما يشغل أذهان جميع النساء في أتلانتا.

كان ذلك حقاً موضوع همس كل امرأتين تلتقيان على انفراد، أفلم يعتد الشماليون على أعراض النساء، ويدفنون الحراب في أمعاء الأطفال ويحرقون البيوت في كل مكان نزلوا به، في «فرجينيا» و«تنسى» و«لويزيانا»؟؟

كان يروقها دائماً أن تكون لغزا في نظر الرجال، ولكن هذا الرجل المُخيف كان يراها شفافة كالزجاج، قال:

- وبهذه المناسبة. أليس هنا من يحميك؟؟ ألا تأتي مدام «ميد» أو مدام «باركر» لزيارتك؟

- إن مدام ميد تزورنا كل ليلة، ولكنها لم تحضر هذا المساء.

فقال بصوت هادئ:

- إذاً أنت وحدك هنا.. ما أسعدني؟

كان بصوته شيء جعل قلبها يُسرع في نبضه، وجعل الدم يصعد لوجنتيها، فلقد لاحظت هذا الشيء في أصوات رجال كثيرين، وعلمتها التجارب أنه كان دائماً مُقدمة للاعتراف بالحب، ما أبدع هذا! إذا باح لها بحبه، فستعرف كيف تثأر لنفسها عما عانته من سخرية طيلة هذه الشهور، وستعرف كيف تصفي ما بينهما من حساب. حتى حساب ذلك الهوان الذي شعرت به يوم سمع حديثها مع إشلي، ومتى شبعت من حلاوة الانتقام، وقالت له بلطف أنها لا تستطيع أن تكون له إلا أختاً إذا شاء، ثُم تنسحب من المعركة، وعلى رأسها أكاليل الغار، وضحكت غبطة وسروراً في انتظار ما سوف يكون.. سألها:

- لماذا تضحكين؟؟

وتناول يدها، وقبل راحتها؛ فاضطربت حواسها وشعرت بحرارة القبلة تشيع في جسدها، وحاولت أن تجتذب يدها.

كلا.. إنها لم تحسب حساب هذا الشعور الغادر الذي ودت معه أن تتحسس بأصابعها شعر رأسه ، وأن تحس بشفتيه فوق شفتيها، قالت لنفسها بقلق واضطراب، إنها لا تُحبه، ولا تُحب أحداً غير إشلي، ولكنها لم تستطع تفسير ذلك الشعور الغامض الذي يوشك أن يُذهلها عن نفسها.. قال ضاحكاً:

- لا تجذبي يدك؛ فلن أؤذيك.

فانتفضت صائحة:

- إنني لا أخافك يا بتلر، ولا أخاف مخلوقاً ولدته امرأة.

ابتسم كأنما سره غضبها وقال:

- هذا شعور نبيل، أخفضي صوتك حتى لا تسمعك ميلاني.

وصمت لحظة ثم قال:

- أنت لا تمقتينني.. أليس كذلك؟؟

إذن فقد صدق حدسها، وها هو يخطو نحو الفخ.. أجابت في حذر:

- إنني أمقتك في بعض الأحيان، حين تعمل وتتحدث كالأوغاد.

فضحك، وضغط يدها على خده قائلاً:

- الأصح أنك تُحبينني لأنني أعمل وأتحدث كالأوغاد، إنك لم تُقابلي بحياتك الآمنة كثيراً من الأوغاد، لذلك تجدين في اختلافي عن جميع من قابلت شيئاً من التسلية والإغراء

ورأت أن الحديث ينحرف عن الغاية التي تنشدها، فحاولت مرة

أخرى أن تجذب يدها، ولكن بغير جدوى. قالت:

- ليس هذا صحيحاً.. إنما أحب في الرجال الظرف والأدب.

قبل راحتها مرة أخرى، ومرة أخرى أحست كأن شفتيه تلمسان كل مكان بجسدها، سألها:

- هل في مقدورك أن تُحبيني يا سكارليت؟!

أحست بنشوة الظفر وقالت لنفسها: "الآن.. قد انزلق". أجابت في برود:

- لا أظن، اللهم إلا إذا أصلحت من سيرتك. وهذبت سلوكك.

- ليس بنيتي أن أهذب سلوكي، وهذا لأنه ليس بمقدورك أن تُحبيني، أليس كذلك؟! هذا ما كُنت أرجوه، فعشرتك تطيب لي، ولكني لا أحبك، ولا شك أنه من المُحزن والمفجع بالنسبة إليك أن تعاني خيبة الأمل بالحب مرتين مُتتاليتين.

- ألا تحبني؟!

- كلا.. هل تأملين في أن أحبك؟!

- كفى غروراً.

- بل كنت تأملين في أن أحبك!! فيالخيبة الأمل!! لقد كان يجب أن

أحبك فأنت جميلة فاتنة، موهوبة، ولكنك لا تصلحين لشيء، وبين النساء كثير من الحسان الموهوبات الفاتنات، وهُن مثلك لا يصلحن لشيء، فلماذا أحبك دون غيرك؟؟ ولكني أشعر نحوك ببعض الميل والمودة، لمرونة ضميرك ولأنانيتك التي لا تحاولين إخفاءها، لا تغضبي، ولا تقاطعيني، إنني أميل إليك، لأن لي مثل صفاتك وشبيه الشيء ينجذب إليه، وأكبر الظن أنك ما زلت تقدسين ذكرى بطلك العظيم إشلي ويلكس الذي يحتمل أن يكون قد غُيب بالتراب منذ ستة أشهر، ولكن لا بد أن يكون في فراغ قلبك متسع لي كذلك، دعيني أصارحك يا سكارليت، إنني أردتك مُنذ وقع بصري عليك لأول مرة وأنت تحاولين إغراء شارلي هاملتون المسكين.. أردتك كما لم أرد أية امرأة أخرى، وانتظرتك أطول مما انتظرت أية امرأة.

انقطعت أنفاسها دهشة وعجباً، إذاً فهو يُحبها رغم ما يصطنع من تهكم وقلة اكتراث.. يحبها، ويعترف بحبه، ولا يُريد أن يصوغ اعترافه في العبارات المألوفة التي اصطلح عليها الناس، حتى لا تضحك منه، وتهزأ به. حسنا.. إنها ستلقى عليه درساً لن ينساه.. سألته:

- هل تريدني على أن أقترن بك؟؟

ترك يدها، وضحك ضحكة عالية جعلتها تنكمش في مكانها وهتف:

- تقترنين بي؟؟ يا إلهي.. كلا.. ألم أقل لك مرارا إنني لست بالرجل

الذي يصلح للزواج؟؟

- إذن.. إذن.. ماذا.

فنهض واقفاً، وقال وهو يحني رأسه باحترام وإجلال، كمن يحدث إنساناً عظيم القدر:

- هل توافقين أيتها العزيزة على أن تكوني عشيقتي؟

عشيقته!! وانفجرت الكلمة في ذهنها كالقنبلة، وصرخ صوت في أعماقها يقول إنها أهينت، ولكنها لم تشعر بوطأة الإهانة في الحال، وكان أول ما أحست به هو السخط والغضب لأنه أهان ذكاءها، فلا شك أنه ظنها بلهاء لكي يتقدم إليها بمثل هذا العرض، بدلاً من أن يعرض عليها الزواج، وأعماها الغضب عن الصواب. فنقطت بأول عبارة أملاها السخط قبل أن تفكر في الاعتبارات الخلقية التي تسوغ لها زجره وانتهاره، وقالت:

- عشيقتك؟؟ وماذا أفيد من ذلك غير شرذمة من الأطفال.

سقط فكها على الأثر هولاً مما قالت، وأغرق بتلر في الضحك حتى انقطعت أنفاسه، وهتف:

- من أجل ذلك أحبك. إنك المرأة الوحيدة الصريحة التي أعرفها، المرأة الوحيدة التي تنظر للأمور من ناحيتها العملية دون أن تُقيم وزناً

لاعتبارات الخُلق والفضيلة. أية امرأة أخرى في مكانك كان يجب أن يغمى عليها أولاً، ثم تطردني بعد ذلك.

وثبت سكارليت من مقعدها وقد احمر وجهها غضباً وخجلاً، وصاحت:

- إنني أطردك أولاً.. اخرج.. كيف تجسر على أن تقول لي شيئاً كهذا. وماذا في أقوالي أو أعمالي قد شجعك على أن... اخرج ودعني لا أراك هنا ثانية.

التقط قبعته، ومشى إلى الباب متثاقلا، وأرادت سكارليت أن تغلق الباب وراءه بعنف، ولكن مشبك الباب استعصى عليها. فقال لها:

- هل تسمحين لي أن أساعدك؟

وحرك مشبك الباب، وأغلقه وراءه بعنف، كأنما ليوفر عليها العناء.

الفصل الثالث عشر

انقضى أسبوع كأنه جيل قبل أن تتسلم سكارليت رسالة أخرى من أبيها، وكانت رسالة قصيرة ضاعفت قلقها ومخاوفها جاء فيها:

ابنتي العزيزة.

إن أمك وأختيك مريضتين بالتيفود، وقد اشتدت عليهن وطأة المرض، ولكن يجب أن نأمل خيراً، وقد طلبت أمك أن أكتب إليك لأثنيك عن القدوم إلى هُنا مهما كانت الظروف لكيلا تنتقل عدوى المرض إليك وإلى ولدك، وهي تُبلغك تحيتها، وترجو أن تبتهلي إلى الله من أجلها.

أسرعت لغرفتها، وهي تتعثر في خطواتها وجثت أمام فراشها وراحت تبتهل إلى الله من أجل أمها المريضة، وهي هُنا لا تستطيع فعل شيء بجانب امرأة حامل لا تمت إليها بصلة! ولكن، لا يُمكن أن تكون أمها مريضة. إنها لم تمرض قط. كانت دائماً تعنى بالمرضى، وترد عليهم الصحة والعافية، وتعذر عليها أن تُصدق النبأ لأنه يُزعزع طمأنينتها، ويتصل بحياتها عن قُرب، وودت لو أن لها أجنحة تطير بها إلى «تارا».

- ألا تضع ميلاني طفلها المُرتقب؟! يا إلهي...

وأخيراً، وفي يوم قائظ خانق من أيام شهر أغسطس، جلست

سكارليت بجانب ميلاني التي تستعد للولادة... بعد فترة هبطت سكارليت السلم ببطء كعجوز تتلمس طريقها وأمسكت بحاجز السلم لكيلا تسقط، وكانت ساقاها ترتجفان من فرط التعب، فتهالكت على مقعد في الحديقة، وجففت العرق المُتصبب على جبينها وراحت تستعرض ما حدث، وما فعلت، فلقد انتهى كل شيء، وجاء الطفل ولم تمت ميلاني، وأدهش سكارليت أنها لم تمت، بعد كُل هذا الذي عانته، ولحقت بها ديلسي بعد لحظة، ونظرت إليها بعينين تتألقان سروراً وقالت وعلى وجهها الأسود ابتسامة عريضة:

- لقد أحسنا صُنعاً يا سيدتي، وما كان في وسع الطبيب أن يفعل خيراً مما فعلنا.

فحدجتها سكارليت بنظرة سخط وغضب ومنعها التعب من الكلام، ولولا ذلك لعددت أخطاءها وقالت لها أنها كذبت وخافت، وسكبت الماء على الفراش، وأضاعت المقص في أحرج الظروف وجعلت الطفل يسقط من بين يديها، فكيف تجسر على القول بأنها أحسنت صُنعاً؟

وأحست الزنجية بأن سيدتها غاضبة، فتسللت من الحديقة بسكون، وبقيت سكارليت بمكانها حتى هدأت أنفاسها. وحينئذ تنبهت إلى جلبة غير عادية. وسمعت وقع خطوات كثيرة مُنتظمة تتجاوب أصداؤها بالشارع، فأسرعت للباب، ورأت فرقة من الجنود تجتاز الطريق في هدوء، فصاحت بجندي مر على مقربة منها:

- هل انسحب الجيش؟

- نعم يا سيدتي.

- والأعداء، هل دخلوا المدينة؟

- إنهم في طريقهم إليها.

فغاص قلبها بين جنبيها، وتساءلت: ماذا تستطيع أن تفعل، وكيف تفر، وممن تلتمس العون؟ وفكرت فجأة في رايت بتلر، وأحست بالهدوء والطمأنينة، لماذا لم تذكره من قبل، فلقد كانت تمقته وتنفر منه، ولكنه قوي ولبق، وباستطاعته أن يُذلل كثير من العقبات، فماذا يضيرها إذا استعانت به فوراً؟

إن الغريق يتعلق بالثعبان إذا أعوزته أسباب النجاة، ودعت ديلسي قائلة:

- اذهبي إلى الكابتن بتلر في فندق أتلانتا وقولي له أنني بحاجة إليه، وأنه يجب أن يُسرع إلينا بمركبته وجواده، حدثيه عن طفل ميلاتي، وأخبريه بأننا نريد الرحيل في الحال.. هلمي.. وأسرعي.

صعدت لغرفتها وهي تنتزع قدميها من الأرض انتزاعاً، وتذكرت فجأة.. إنها لم تتناول طعاماً طيلة النهار، فأضاءت مصباحاً، وقصدت إلى المطبخ، وتناولت القليل من الطعام، وعاودتها بعض القوة، ومع القوة جاء الخوف، وخُيل إليها أنها تسمع دوي انفجار هنا وهناك، فأرهفت

أذنيها، ولكنها لم تتبين نوع الدوي، ولم تعرف مصدره.

لم تنتظر سكارليت شيئاً طيلة حياتها بمثل اللهفة التي انتظرت بها في تلك الليلة جواد بتلر ومركبته، وكانت تُريد أن ترحل، ولا يهمها إلى أين ترحل، وأثناء جلستها تنتظر إذ بها ترى وهجاً ضئيلاً يتألق فوق قمم الأشجار، وإذا بالوهج يمتد، ويصبغ الأفق بلون الدم، ثُم تتحول لألسنة من اللهب تتطاول لتعلق صفحة السماء، فوثبت من مكانها في جزع، وخفق قلبها بعنف وأيقنت أن الأعداء قد دخلوا المدينة، وأشعلوا بها النار، وأنهم بعد قليل سيقتحمون البيوت وينبهونها ويقتلون أهلها، والنار ستثب من بيت لآخر حتى تصل إليها؛ فماذا تصنع، وإلى أين تذهب؟!

فجأة.. سمعت دوياً هائلاً، أقوى من كل دوي سمعته قبلاً، وتكرر الدوي واهتزت الأرض بعنف وتبعثر زجاج النافذة تحت قدميها، وخُيل إليها أن المدينة كُلها تتمزق وتتطاير في الفضاء أو تغوص بالأرض، وما لبثت الدنيا أن أصبحت جحيماً من الضوضاء واللهب وتوالت الانفجارات بسرعة مُخيفة، واهتزت الأرض بعنف، فوضعت سكارليت أصابعها في أذنيها، وأغمضت عينيها وانتظرت في هلع أن يخر السقف على رأسها، أو تميد الأرض تحت قدميها، وعادت ديلسي أخيراً وهي تلهث من التعب؛ فصاحت سكارليت:

- هل جاء الأعداء؟؟

- كلا.. إنهم جنودنا ينسفون المصانع ومخازن الذخيرة.. أواه يا سيدتي

ماذا سيكون من أمرنا إذا جاء الأعداء!

وانفجرت باكية؛ فصاحت سكارليت:

- والكابتن بتلر؟ هل رأيته؟ ماذا قال لك؟

- إنه كان يغتسل وقد.

- هل سيأتي؟ هل طلبت إليه أن يحضر جواده؟

- لقد قال لي أن الجنود استولوا على جواده ومركبته لنقل الجرحى.

- يا إلهي.

- ولكنه سيأتي.

- ماذا قال لك!؟ تكلمي.

- قال طمئني سيدتك، وقولي لها أنني سأسرق جواداً وسأسرقه من الجيش إذا لزم الأمر.

فتنفست سكارليت الصعداء، وعادت إليها الثقة والطمأنينة، واستطاعت أن تفكر في هدوء، ثُم قالت:

- أيقظي جيمس، واحزمي أمتعتنا جميعاً، وتأهبي للرحيل، ولا تقولي كلمة لميلاني.

وقفت بالباب مركبة صغيرة وثب منها بتلر ودخل البيت، واجتاز الحديقة، وهو يخطر في مشيته، كأنما قد أثملته الأخطار التي أوقعت

الرعب في قلب سكارليت، وأسرعت إليه وهي شاحبة اللون، وعيناها الخضراوان تتألقان بشدة، قال وهو يرفع قبعته محيياً:

- طاب مساؤك، إن الجو بديع هذه الليلة، فهل في نيتك القيام بنزهة؟

فأجابت بصوت يرتجف:

- إذا عمدت للسخرية والتهكم. خاصمتك إلى الأبد.

فقال مصطنعاً الدهشة:

- هل أفهم أنك تشعرين بالخوف والفزع؟!

- نعم، إنني خائفة، ولو كان لك عقل لخفت أيضاً، ويجب أن نرحل في الحال.

- على رسلك يا سيدتي العزيزة، ولكن إلى أين تريدين الرحيل؟ إني جئت الآن بدافع الفضول، لأعلم إلى أين تقصدين، وقد سد الأعداء المسالك شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، إنهم يُطوقوننا من كل جانب، ولا يوجد إلا طريق واحد لمغادرة المدينة، وذلك هو الطريق الذي يتراجع فيه جيشنا الباسل، ولكننا إن تبعنا الجيش استولى الجنود على الجواد، وهو وإن لم يكن جوادا بالمعنى المفهوم، إلا أنني عانيت مشقة كبيرة في سرقته، فإلى أين تعتزمين الرحيل؟

أصغت إليه مُرتجفة، ولم تفهم من حديثه إلا العبارة الأخيرة، إلى أين ترحل؟ فلا يوجد إلا مكان واحد تتوق إلى بلوغه مهما كان الثمن،

أجابت:

- أريد الرحيل إلى «تارا»؟؟

- ماذا أصابك يا بنية، ألا تعلمين أن القتال يدور في «جونزبورو» منذ يومين، وإن الشماليين ربما يكونوا الآن قد بلغوا (تارا).. كلا، كلا، إنك لا تستطيعين الوصول إلى تارا، ولا تستطيعين اختراق جيش الأعداء.

فضربت الأرض بقدمها بعنف وصاحت:

- يجب أن أذهب.. يجب.. يجب.

فقال بسرعة، وبصوت خشن:

- أيتها الحمقاء الصغيرة، قلت لك إنك لا تستطيعين، وإذا أمكنك اجتناب الأعداء، فالغابات والحقول تزخر بالهاربين من كلا الجيشين. وسيكون جوادك على هزاله غنيمة ثمينة في نظرهم جميعاً، إن الوسيلة الوحيدة هي أن تنطلقي بإثر الجيش المُتراجع لطريق (ماكدونالد) وأن تبتهلي إلى الله ألا يراك أحد في الظلام، ولكني لا أنصح لك بالذهاب إلى (تارا)، وإذا وصلت إليها فقد تجدينها أنقاضاً. كلا. كلا. إنني لا أسمح لك، هذا هو الجنون بعينه.

فصاحت وهي تبكي غضباً وعجزاً:

- بل سأذهب.. أريد أن أرى أمي.

هبط الجميع السلم، وخرجوا حيث كانت المركبة، ونظرت سكارليت للجواد، وغاص قلبها بين جنبيها، فلقد كان حيواناً هزيلاً، بارز العظام، مُثخناً بالجراح، تتردد أنفاسه بصوت مُزعج، لا يُمكن أن ينم عن الصحة والعافية، وقال بتلر مُبتسماً:

- ألا ترين أنه يظلم فصيلة الجياد بانتمائه لها؟ سأحدثك ذات يوم كيف سرقته، وكيف كدت أن أصاب برصاصة في سبيله. لا شيء غير إخلاصي لك.

ومدد ميلاني في المركبة فوق الوسادة، وانثنى إلى سكارليت وقال لها:

- دعيني أساعدك.

وحملها بين ساعديه، كما يحمل طفلاً، ما أجمل أن يكون الإنسان رجلاً، ورجلاً قوياً مثل رايت بتلر، إنها معه لا تشعر بالخوف، ولا تُبالي بالنيران وقصف المدافع، ووثب بتلر للمركبة وجلس بجانبها، وتناول عنان الجواد، ولكنها صاحت بغتة:

- صبراً.. قد نسيت أن أغلق الباب.

فقهقهه ضاحكاً، وسألته:

- لماذا تضحك؟

- أضحك منك، أفتعتقدين أن غلق باب البيت يصدّ القوم عن دخوله؟!

كان الطريق مُظلماً، والأشجار تتعانق فوق رؤوسهم، ولا ضوء ينبعث من البيوت الصامتة المهجورة، فتحركت المركبة بالظلام كأنها شبح، واختلط الهواء بدخان الحرائق، فسعل جيمس، وسعلت «ديلسي»، وما كادت المركبة تنحرف في أحد الشوارع الجانبية، حتى دوى انفجار يصم الآذان. واندلعت ألسنة اللهب من دكان في غرب المدينة، فقال بتلر بهدوء:

- يبدو أن هذا آخر مخازن الذخيرة القائم في شارع «ماريتا»، ولسوء الحظ إننا مضطرون لاجتياز هذا الشارع.

فسألته سكارليت في جزع:

- وهل يجب أن نقتحم النيران؟

- فلا نضطر إلى ذلك، لو أسرعنا.

واصطكت أسنان سكارليت، وارتجفت أوصالها رغم الحرارة التي تلفح وجهها، وأحست بأنها في جوف جهنم، ولو كان في مقدورها أن تتغلب على ارتجاف ركبتيها لوثبت من المركبة وعادت أدراجها بالشوارع المُظلمة، بعيداً عن هذا الجحيم، ولكنها كانت عاجزة عن كل حركة، فالتصقت ببتلر وتطلعت إليه في انتظار كلمة مُطمئنة، ورأت وجهه الأسمر الصارم يُضيء بوهج النيران، كأنه وجه ملك إغريقي على قطعة نقد قديمة.. قال لها وهو يتلمس مُسدسه:

- إذا حاول إنسان أن يثب للمركبة من ناحيتك ليمسك بالجواد فأطلقي

عليه النار بغير تردد، واحذري بحق السماء أن تقتلي الجواد.

فهمست وهي ترتجف: "إن معي.. إن معي مسدس".

- **أتقولين حقاً؟! وكيف حصلت عليه؟**
- **إنها غدارة شارل.**
- **شارل؟؟**
- **نعم.. شارل زوجي.**

فضحك بصوت خافت وهمس:

- **هل كان لك زوج حقاً أيتها العزيزة؟**
- **يا إلهي! ألا يكف عن الهذر، ألا يسرع؟**

أجابت بصوت أجش:

- **كيف تحسبني إذن رزقت بهذا الغلام؟**
- **توجد وسائل أخرى غير الأزواج.**
- **هل لك أن تصمت وتسرع؟**

وأخذ بتلر بتفادي أماكن تواجد الجنود بمهارة أعجبت سكارليت.

الفصل الرابع عشر

فتحت سكارليت عينيها في الصباح فبهرتها أشعة الشمس المنبعثة من بين أغصان الشجر، ولم تدر أين هي، ثُم لم تلبث أن أحست بقدمي ميلاني فوق وجهها، وبرأس جيمس فوق ركبتيها، ورأت ديلسي قابعة كالقطة السوداء تحت مقعد المركبة، وحينئذ تذكرت كل شيء واستوت جالسة، وأجالت البصر حولها بسرعة، وتنفست الصعداء: حمداً لله.. لا أثر هُنا للجنود.

تذكرت، كما تذكر حلماً مزعجاً، كيف اضطرت مراراً أن تخوض المستنقعات وتنحرف في الحقول فراراً من جنود لم تتبين في الظلام إن كانوا أعداء أو أصدقاء، وكيف ضلت في إحدى الغابات، وبكت غيظاً وعجزاً، ثُم كيف غاص الجواد بالأوحال ورفض مواصلة السير، فشدته لشجرة وتمددت بالمركبة وغلبها التعب والنعاس فنامت وصوت ميلاني الضعيف يهتف بها في ضراعة، وكل نبرة من نبراته أرق من الاعتذار:

- سكارليت، هل لي من جرعة ماء؟

نظرت لميلاني، وحبست أنفاسها ذُعراً، وهلعاً، وكانت شاحبة اللون، ساكنة كالموتى، وعلى وجهها المُمتقع طابع المرض والألم، وفتحت ميلاني عينيها السوداوين الغائرتين، وبللت شفتيها الجافتين بلسانها، وهمست: "جرعة ماء".

فصاحت سكارليت:

- هلمي يا ديلسي، دعينا نبحث عن ماء وطعام.

ثم فكرت في الجواد.. يا إلهي.. هب إنه مات.. لقد كان مشرفاً على الموت حين أوقفته وحلت وثاقه، وأسرعت للشجرة، ووجدت الجواد مُمدداً على الأرض. وأنفاسه تتردد بصوت مسموع.. حمداً لله، إنه لا يزال على قيد الحياة، وجرعة ماء قد تُنعشه، وترد عليه النشاط والقوة...

وحملت آنية، وانطلقت مع ديلسي للغابة، وعادت بعد قليل تحمل ماء، وتُفاحا معطوباً، ولكن الماء لم يُنعش الجواد، وكان في ضوء النهار أسوأ حالاً مما تصورته في الظلام.. قبَّح الله بتلر.. لماذا لم يسرق جواداً أفضل من هذا؟ وشدت الجواد إلى المركبة، واستأنفت رحلتها.. كان لا يزال أمامها خمسة عشر ميلا قبل أن تصل إلى (تارا) وهي مسافة يقطعها هذا الجواد العجوز في يوم كامل.

يوم كامل تحت وهج الشمس المُحرقة، في طريق قذر مليء بالحُفر التي أحدثتها عجلات المدافع، ومركبات الجيش، وأخيراً انحدر الجواد بالمركبة على سفح التل المُشرف على «تارا»، وجففت سكارليت دموع الفرح التي ملأت عينيها، وتوجهت ببصرها إلى حيث يوجد البيت، ولكنها لم تر إلا الظلام، وهتف بها هاتف «إنهم ذهبوا»، ولكن لعلها لم تر جيداً وحملقت في الظلام، حتى خُيل إليها أن أعصاب عينيها توشك أن تنفصم.

لا.. إن عينيها لا تخدعانها، وها هي ترى الجدران البيضاء، أشبه بالسحابة المُضيئة في الليل المُظلم.. وثبت من مكانها، وراحت تدفع المركبة بكل قوتها لتساعد الجواد على السير، فهي تريد أن تتأكد، تُريد أن تلمس هذه الجدران العزيزة بيديها بأسرع ما يُمكن. هل يمكن هذا؟؟ هل يمكن أن تكون الحرب قد انتهت عند جدران تارا؟؟ نعم لقد نجت تارا، وتركت المركبة، وانطلقت تعدو نحو البيت.

فُتح الباب في تلك اللحظة، وخرج منه شبح، وهبط الشبح السلم، ووقف هُناك لا يحير حراكاً.. وافرحتاه إن «تارا» لم تُهجر، ولا يزال بها آدميون.

- أبي.. لقد عدت.. أنا سكارليت.

فمشى إليها جيرالد، وهو هادئ صامت، كمن يمشي وهو نائم، وألقى بيده على كتفها، وأحست بتلك اليد تهتز وترتجف بشدة، قال بصوت مُتعب:

- ابنتي...

ماذا أصاب الرجل؟! وأين صوته الرنان، وضحكته المرحة؟! ولماذا يرمقها بنظرات خائفة مذعورة، كنظرات «ديلسي»؟! ونسيت في لحظة جميع الأسئلة التي كانت تتحير على شفتيها. وسمع جيرالد أنين ميلاني وبكاء طفلها في المركبة فقالت سكارليت:

- إنها ميلاني، وطفلها، وهي مريضة، وقد جئت بهما.

فمشي جيرالد إلى حيث كانت المركبة، مشية ليس فيها شيء من حماسة صاحب «تارا» الكريم المضياف، قال بصوت مرتجف:

- أهلا بك وسهلا يا ابنتي. هذا بيتك. لقد احترقت مزرعة «أوكس» وقتل جون ويلكس؛ فيجب أن تبقي معنا.

وبهتت سكارليت.. احترقت مزرعة (أوكس)، وقتل جون ويلكس، كيف؟! ولماذا...؟

وفتح الباب مرة أخرى، وخرج «بورك»، وأقبل عليها مُسرعاً وجثا تحت قدميها، وبلل يديها بدموعه وهو يهتف ببساطة الزنوج وإخلاصهم:

- ما أسعد «بورك».. ما أسعد «بورك»!

فلمست رأسه بلطف ورفق، ومسحت دمعة أفلتت من عينيها وهمست:

- إن زوجتك في المركبة يا «بورك».. هل المربية هنا؟! دعها تحمل الطفلين.

ثم تحولت إلى أبيها، وأمسكت بيده، وسألت بصوت خافت:

- هل هن بخير يا أبي؟

- إن أختيك في دور النقاهة.

وساد صمت عميق، وتولد في الصمت خاطر مُخيف، لم تستطع التعبير عنه بالكلام.. تُرى.. هل هذا هو السر في ظلام (تارا) وصمتها؟!

وأدرك جيرالد ما يجول بخاطرها وأجاب:

- إن أمك.

فهتفت:

- وأمي؟؟

- إنها ماتت بالأمس.

تأبطت ساعد أبيها، ودخلت البيت. وأشاحت بوجهها عن غُرفة هيلين، وتجنبت المقعد الكبير الذي اعتادت هيلين أن تجلس عليه.

- ماتت بالأمس؟ أيمكن هذا؟

من العجيب أن سكارليت أصبحت لا تشعر بشيء الآن، إلا بالتعب والجوع، وستفكر في أمها فيما بعد، أما الآن فيجب أن تستريح، وأن تأكل، ودعت إليها بورك وسألته:

- هل حملت ميلاني للمنزل؟ حسناً، لم هذا الظلام، ألا توجد شموع.

لقد أخذوها جميعاً، ولم تبق إلا شمعة واحدة نُضيئها فقط عند الضرورة.

- جئني بها.

فغاب بورك لحظة، ثم عاد بالشمعة وأضاءها، سألته:

- كم يوجد من الزنوج هنا؟!

- لقد هربوا جميعاً وتبعوا الأعداء، ولم يبق سواي والمربية.

- هذا حسن، إنني جائعة يا بورك، ألا يوجد طعام؟!

- كلا يا سيدتي، لقد أخذوا الطعام كله.

- والدجاج؟

- أكلوه جميعاً.

- والحديقة؟!

- أكلتها الجياد.

- يا إلهي، لم يتركوا شيئاً!! هل كان من الضروري أن ينهبوا الأقوات ويتركوا النساء والأطفال يتضورون جوعاً، ألا يكفهم أنهم أحرقوا وقتلوا، وخربوا.

قالت:

- إنني أموت جوعاً يا بورك، ولا بد أنهم لم يحفروا أرض الحديقة، ويأخذوا ما في جوفها من البطاطس، أوقد ناراً، واطه بعض البطاطس، وأسرع.

وانصرف بورك، وبقيت مع أبيها، فنظرت إليه بإمعان، وهالها جموده وشرود عينيه وتجعدات وجهه، فسألته:

- لماذا لم يحرقوا البيت يا أبي؟!

فحملق في وجهها وبدا عليه كأنه لم يسمع أو لم يفهم، فكررت

السؤال. وحينئذ أجاب:

- لماذا؟ لأنهم اتخذوه مركزاً للقيادة.

- هذا البيت.. مركز للقيادة؟؟

- نعم.. وقد شهدنا النار تنبعث من مزرعة «أوكس»، ولكننا كُنا نعلم أن هانيا قد انتقلت إلى «ماكون»، ولم يكن في مقدورنا أن نرحل بمرضانا، وقد هرب الزنوج، وسرقوا جيادنا ومركباتنا.

في الأيام التالية كانت (تارا) كأنها جزيرة مُجدبة في عرض البحر فقد نفق الجواد العجوز، وبموته انقطعت أسباب الاتصال بالعالم الخارجي، ووجدت سكارليت نفسها السيدة الآمرة الناهية المُطلقة التصرف في «تارا»، فغلبت فيها غرائز البطش والجبروت، لكل ضعيف ترفعه الظروف بغتة إلى مكان السيادة، ليس لأنها كانت غليظة القلب بطبيعتها، وإنما لأنها كانت خائفة مُترددة، ولا تريد أن يشعر بضعفها أحد، وامتد طغيانها إلى أختيها، فما كادتا تبرحان فراش المرض حتى راحت تُصدر لهما الأوامر وتُحدد لكل منهما واجباتها ونوع العمل الذي يجب أن تضطلع به، ولم تكن الفتاتان قد روضتا نفسيهما على الحقائق الثلاث، اجتياح المزرعة. وفرار الزنوج. وموت هيلين، فنظرتا إلى سكارليت في دهشة وحيرة، وهتفت كارين:

- ولكن يا أختاه.. إذا اشتغلت بقطع الخشب وجنى القطن تلفت يداي، وفقدتا رونقهما.

فصاحت سكارليت:

- انظري إلى يدي.

وأشارت إلى البثور والخدوش التي تملأ يديها، وهكذا وجدت من الضروري لها في هذا الزمن الذي اضطربت فيه مقاييس الحياة، أن تتطور وفقاً للظروف الجديدة؛ فتبدل شعورها نحو كل إنسان، وكل شيء، إلا «تارا».

ذات يوم انطلق الجميع من البيت للعمل في الحقل، وصيد الأرانب البرية، وتخلفت سكارلت لألم أصاب قدمها، وإنها في فراشها إذ بها تسمع وقع سنابك جواد يدنو من البيت، فذكرها هذا الصوت بعهد مضى، أيام كانت تنتظر إشلي، وستيوارت، وبرنيت، ونهضت للنافذة لترى من القادم، ووقع بصرها على فارس تدل ثيابه الزرقاء على أنه جندي في جيش الأعداء، وتوارت خلف الستار، وراحت ترقبه عن كثب، فألفته رجلاً يناهز الأربعين، طويل اللحية، كث الشعر، ضيق العينين، قد لفحت الشمس وجهه

وثب الرجل عن جواده، وشده لشجرة ودخل البيت، وحينئذ تذكرت سكارليت كُل ما سمعته من قصص العدوان على النساء وذبح الشيوخ، وقتل الأطفال بالحراب، وخطر لها أول ما خطر أن تزحف حتى تصل إلى السلم، ثم تلوذ بالفرار، ولكنها ما كادت تصل للسلم حتى سمعت وقع أقدامه، وهو ينتقل من غرفة لغرفة، فجمد الدم في عروقها، ورفعت يدها إلى فمها لتمنع نفسها من الصياح، وخرج الرجل من غرفة

الطعام، وتحول نحو المطبخ، وهُنا استحال خوفها إلى غضب، وكانت بالمطبخ آنيتان تحتويان خُضراً أعدته للغداء لغداء تسعة أشخاص جياع.. قبح الله هؤلاء الأوغاد، لقد هبطوا على «تارا» كالجراد فلم يبقوا فيها على شيء، والآن يعيدون الكرة لتجريدها، حتى من هذا الطعام التافه، وارتجفت غضباً، وعادت لغُرفتها، وتناولت مُسدس شارل وهبطت السلم مُسرعة، وسمع الرجل وقع خطواتها فصاح:

- من هذا؟!

فوقفت في مُنتصف السلم، وأخفت الغدارة في طيات ثوبها، وخرج الرجل من إحدى الغُرف حاملاً صندوقاً صغيراً كانت هيلين تضع فيه أدوات الحياكة، وبعضها من الفضة، وأحست سكارليت بأسنانها تصطك، ولكن الغضب كان يستعر في شرايينها، وأبصر بها الرجل، وابتسم ابتسامة مقيتة، وقال ويده فوق مقبض غدارته:

- إذن فالبيت ليس خالياً، هل أنت وحدك هنا يا صغيرتي؟

وبأسرع من البرق انحنت سكارليت فوق حاجز السلم، وسددت فوهة مسدسها فأرسل الرجل صرخة مُزعجة، وأفلت الصندوق، وانقلب على وجهه، وهبطت سكارليت السلم، وهي لا تكاد تشعر بقدميها، وحملقت في وجه الرجل، ورأت الدم يتفجر من ثقب في جبينه، وساد صمت عميق، تضخمت فيه الأصوات، حتى خُيل إليها أن قلبها يقرع كالطبل، لقد قتلت رجلاً، وهي التي كانت تشيح بوجهها لكيلا ترى أرنباً يُذبح، ثُم وقع بصرها على صندوق أمها، وغلا الدم في عروقها، وشعرت

بسرور وحشي، وسرها أنها انتقمت لتارا، ولهيلين.

وفجأة سمعت وقع خطوات في الطابق الأول، فرفعت رأسها، ورأت ميلاني فوق السلم، وهي شاحبة اللون، لامعة العينين، وبيدها سيف شارل، وبهذه اللحظة نسيت سكارليت كراهتها لزوجة إشلي، وغمرتها موجة إعجاب وإكبار، فهتفت بها:

- عودي إلى فراشك أيتها الحمقاء، إنك تقتلين نفسك.

فهبطت ميلاني على السلم وهي تجر ساقيها جراً، وهمست:

- يجب أن نواري جُثته يا سكارليت، فقد يكون له رفاق.

- كلا.. إنه جاء وحده، ولم أر سواه.

- ومع ذلك يجب ألا يعلم أحداً بأمره، وإذا رآه الزنوج فقد يتكلمون.

فكرت سكارليت بسرعة، قالت:

- سأواريه بالحديقة تحت إحدى الأشجار، ولكن كيف نحمله؟

- دعيني أساعدك.

- إنك لا تستطيعين.. عودي إلى فراشك، وإلا حملتك إليه عنوة.

فأضاء وجه ميلاني بابتسامة حب وإدراك، وقالت:

- شكراً لك أيتها العزيزة، ولكني لا أستطيع أن أتخلى عنك بهذه الورطة ولا أقل من أن أعمل على إزالة أثر الدم ريثما تفرغين من دفن الجثة. ثم...

- ماذا؟

- هل يكون من الحطة والدناءة أن نفتشه؟؟ فربما نجد معه طعاماً يُؤكل.

أدهش سكارليت أنها لم تسبق ميلاني للتفكير بذلك، وانحنت فوق الرجل بشيء من الامتعاض والنفور. وراحت تُفتش ثيابه، ولم تلبث أن أخرجت من جيبه حافظة ضخمة.. هتفت:

- ميلاني.. إنها حافلة بالنقود.

وفتحت الحافظة، وأخرجت منها طائفة من ورق النقد المتداول في الجنوب وهو ورق فقد قيمته بعد سلسلة الهزائم الأخيرة، ولكنها وجدت بجانب ذلك بضع قطع ذهبية فصاحت:

- انظري.. هذا معناه أننا سنأكل.

عادت لجيوب الرجل تُفتشها باهتمام. فوجدت بها مجموعة عجيبة من الأشياء. وجدت قرطاً ذهبياً، وشمعة كبيرة، ومقصاً ذهبياً، وعقداً من اللؤلؤ. وأبصرت ميلاني هذه الأشياء وانكمشت هامسة:

- لص.. لقد سرق كل هذا.

- طبعاً.. وكان يُريد أن يسرق المزيد منا.

- يسرني أنك قتلته، والآن أسرعي أيتها العزيزة قبل أن يُفاجئنا أحد.

فتناولت سكارليت قدمي الرجل، وقالت وهي تجتذبه نحو الباب:

- إذا سألك عن الجواد سائل، فأجيبي بأننا وجدناه ضالاً.

ولكن أحداً لم يسأل؛ فقد كانت هناك حرب، وكان جنود يهربون وجياد تشرد، وقُبيل عيد الميلاد جاء فرانك كنيدي وثلة من الجنود إلى «تارا» لجمع المؤمن والجياد للجيش، وكانوا في حالة يُرثى لها من الجوع والتعب وجميعهم، عدا فرانك، ممن فقدوا في الحرب سواعدهم أو سيقانهم، أو إحدى عيونهم. ولم يكن لدى سكارليت شيء مُدخر تجود به على الجيش؛ فاستضافت الجنود ليلة، وقدمت إليهم طعام العشاء، وقضوا جميعاً سهرة لم تخل من المرح رغم قسوة الظروف وسوء الأحوال، وارتدت سولانج لهذه المُناسبة أفضل ثيابها، ولاحظت سكارليت أن فرانك لا يزال على عهدها به شغوفاً بسولانج ولكنه خجول يختلس إليها النظرات، ولا يجرؤ على أكثر من ذلك.

كانت سكارليت ظمأى لأنباء العالم والحرب، فراح فرانك يسرد ما عنده قال:

- إن الجنوبيين استردوا «أتلانتا»، ولكن بعد أن حرقها «شيرمان» وتركها أنقاضا.

قالت سكارليت:

- ولكنني ظننت أنها احترقت ليلة أن غادرتها، وإن رجالنا هُم الذين أحرقوها.

- كلا. إننا لا نحرق المُدن على رؤوس أهلها، كُل ما فعله رجالنا في أتلانتا هو أنهم نسفوا مصانع الذخيرة ومخازنها حتى لا يستولي عليها

الأعداء.

- وماذا فعل «شيرمان» بالسكان.. هل قتلهم؟

- قتل بعضهم، ولكن بغير رصاص أو قنابل، فقد أمن محافظ المدينة بإخلائها من السكان، وأمهله بضع ساعات، فخرج الناس، وفيهم الشيخ والمريض والنساء والأطفال، خرجوا جميعاً إلى الغابات وسط أشد أعصار عرفته «أتلانتا»، ولم يقو بعضهم على احتمال التعب والبرد، فماتوا بالمئات.

فصاحت ميلاني:

- ولكن لماذا فعل ذلك!؟ لقد كان السكان أعجز من أن يقاوموه، أو يلحقوا به أذى.

- قال إنه يُريد جنوده على أن يستريحوا، وقد استراحوا حتى منتصف شهر نوفمبر، ثم أشعلوا النار في المدينة.

فارتسم الذعر على وجوه النساء، وهالهن أن يتصورن تلك المدينة العظيمة الجميلة التي أحببنها وعشن فيها، كومة من الأطلال والأنقاض المُحترقة.

لاحظ فرانك جزعهن؛ فقال ليسري عنهن:

- ولكني أبشركن بأن بيت العمة «بيتي» لم يُصب بأذى، إنه وجميع البيوت القائمة بأطراف المدينة قد نجت من الحريق، وقد رأيت العمة «بيتي» في بيتها في الأسبوع الماضي.

فتنفسن الصعداء جميعاً، إذن لا يزال لديهن بيت في «أتلانتا» يستطعن الالتجاء إليه عند الضرورة، وبعد الطعام نهض الجنود ليفترشوا فناء الدار، وقصد جيرالد وميلاني والفتاتان كُلٌّ إلى غُرفته، وتخلف فرانك كنيدي، وقال مُحدثا سكارليت:

- هل أستطيع أن أتحدث إليك على انفراد؟!

فذُعرت، وظنت أنه يُريدها على أن تتبرع بالقليل الذي عندها للجيش، ولكنه قال بصوت حزين:

- كم أسفت لفجيعتك في هيلين؟؟

- بالله.. دع الحديث عنها.

- وأبوك.. هل كانت هذه حاله منذ...

- نعم.. لقد رأيته بنفسك.

- إنها كانت محور حياته.

- بالله دع الحديث عنها.

- معذرة يا سكارليت، الواقع إنني كُنت أريد أن أتحدث لأبيك في أمر، ولكن لا فائدة من ذلك الآن.

- هل أستطيع مُعاونتك يا مستر كنيدي، أنت تراني أُشرف على شؤون الأسرة.

فعبث بلحيته القصيرة بأصابع مضطربة وتمتم:

- الحق أنني... كُنت أريد أن أسأله يد سولانج.

فهتفت مصطنعة الدهشة:

- هل تريد أن تقول أنك لم تسأله ذلك قبل الآن؟

فاحمر وجهه خجلا وأجاب:

- لم أكن على يقين من أنها ستوافق.. إنني أكبر منها سناً، وكان هناك فتيان كثيرون يترددون على «تارا».

فقالت لنفسها: "إنهم كانوا يترددون من أجلي، لا من أجلها".

واستطرد فرانك:

- وما زلت أرتاب في أنها ستوافق، لقد أردت أن أصارح مستر أوهارا بالحقيقة، وهي أنني لا أملك الآن غير جوادي والثوب الذي أرتديه. كُنت غنياً قبل الحرب، ولما انخرطت بالجيش بعت أكثر أملاكي واشتريت سندات حكومية، أصبحت الآن لا تساوي أكثر من سند الورق الذي طُبعت عليه، وفضلاً عن ذلك فقد احترقت هذه السندات عندما حرق الأعداء بيت أختي، وأعلم أنه من المُؤلم أن أطلب يد سولانج في هذه الظروف التعسة ولكن من كان يعلم أن كل شيء سينقلب رأساً على عقب، ولم يبق في الدنيا شيء يمكن الركون إليه والاعتماد عليه وقد فكرت في أنه سيكون من دواعي سعادتي وربما سعادتها كذلك أن أتقدم لخطوبتها على أن أقترن بها فيما بعد حين أستطيع الإنفاق عليها وأؤكد لك أنني لن أدخر حينئذ وسعاً في

إسعادها وإثرائها

وكان يتكلم في بساطة وإخلاص فعجبت سكارليت، كيف يُمكن لإنسان أن يُحب سولانج. وهي كما تعلم مثل حي للأنانية، وغلظة القلب، قالت بلطف:

- حسناً يا مستر كنيدي، أظن أنني أستطيع التحدث إلى أبي في هذا الصدد، لقد كان ينتظر ذلك مُنذ زمن.

فصاح وقد انبسطت أسارير وجهه سرورا وغبطة:

- أحقاً تقولين.

- نعم، وبمقدورك أن تستطلع رأي سولانج، سأبعث بها إليك في التو واللحظة.

- شكراً لك يا سكارليت.. ما أكرمك؟

ومضت سكارليت لغرفة أختها وهي تقول لنفسها:

- واأسفاه.. ليته يقترن بها في الحال، ليوفر لنا طعامها!!

الفصل الخامس عشر

في أحد أيام شهر سبتمبر بينما كانوا يتناولون طعام الغداء بالحديقة، إذا بسولانج تقول بغتة:

- ها هو ذا ضيف جديد.

أرسلت سكارليت البصر لحيث كانت تنظر سولانج، ورأت رجلاً طويل اللحية رث الثياب يقترب من البيت ببطء، قالت: .

- ظننتنا استرحنا من هؤلاء الجنود.

قال ويليم:

- لا شك أنه جائع.

نهضت ميلاني قائلة:

- يجب أن أعد له شيئاً يأكله، إنني أرى على وجهه...

وصمتت فجأة، ونظرت إليها سكارليت. فرأت يديها ترتجفان، ووجهها شاحب كوجوه الموتى، ورأت جسمها الهزيل يترنح، فوثبت من مقعدها، لتمنعها من السقوط، ولكن ميلاني أبعدتها بيدها. وانطلقت تعدو في الحديقة، ويداها مبسوطتان إلى الأمام، وتنبهت سكارليت إلى

ما حدث، ووثب قلبها، ثُم كف عن الحركة. ثم عاود ثباته، ورأت ميلاني ترتمي في أحضان الجندي، ورأس الجندي ينحني فوقها.

بعد فترة جلست سكارليت أمام مكتب أبيها وراحت تكتب رسالة للعمة بيتي توضح فيها للمرة العاشرة لماذا لا تستطيع هي أو إشلي وميلاني مُغادرة «تارا» والإقامة معها في «أتلانتا»، وكانت تكتب بضجر وملالة، لأنها تعلم أن العمة بيتي لن تقرأ سوى السطور الأولى، ثُم تُسرع للقلم لتكتب إليها «أن الوحدة تخنقني وإني أنتظركم بفارغ الصبر»، وشعرت سكارليت بأصابعها تتجمد من البرد، فوضعت القلم، وفركت يديها بقوة، وأحاطت قدميها بخرقة بالية، وتناولت القلم وهمت بإتمام الرسالة ولكنها سمعت صوت ويليم عند الباب، فتركت القلم مرة أخرى، وتحولت إليه، وكان قد عاد لتوه من «جونزبورو» حيث ذهب لابتياع بعض الحنطة.

فابتسمت سكارليت إشفاقاً حين رأت أنفه الأحمر وشعره المُشعث، وسألها وفي عينيه نظرة غامضة:

- كم عندك من المال يا سكارليت؟

فأجابته بشيء من الخشونة:

- لماذا؟ هل تُريد أن تقترن بي لمالي؟

- كلا.. فقط أردت أن أعرف.

رأت على وجهه دلائل التفكير، فثارت ريبتها وفضولها وأجابت:

- لدى عشرة دولارات ذهبية، هي كُل ما بقي من مال اللص الذي قتلته.

- إنها لا تكفي.

- لا تكفي ماذا؟

فأجاب وهو يبسط كفيه فوق النار المتأججة في الموقد:

- لا تكفي لسداد الضرائب.

- الضرائب؟ ولكنك تعلم أننا دفعنا الضرائب يا ويليم.

- نعم، ولكن هذه الضرائب أقل بكثير مما يجب، هكذا يزعمون في «جونزبورو».

- لا أستطيع أن أفهمك يا ويليم، ماذا تعني؟

- إنني أكره أن أحملك من الهموم والمتاعب أكثر مما تحملين، ولكني أرى لزاماً علي أن أصارحك بالحقيقة: إن القوم يقولون أن «تارا» يجب أن تدفع المزيد، وقد وضعوها في الصف الأول بين المزارع المنتجة في هذه الولاية.

- ولكنهم لا يستطيعون إرغامنا على دفع الضريبة مرتين.

- علمت أن هناك من يتطلع لشراء المزرعة بأبخس الأثمان إذا عجزت عن دفع الضريبة وطرحت المزرعة للبيع بالمزاد والجميع واثقون من أنك ستحجزين حتماً وقد يدهشك أن تعلمي أن هذا الذي يكيد لك. ويطمع في مزرعتك ليس إلا جوناس ويلكنسون الزنجي الذي كان يُشرف على عمل الزنوج في «تارا».

قال ذلك، وجلس على مقعد أمام الموقد، وراح يصطلي، ونظرت إليه سكارليت في دهشة وعجبت كيف يستطيع أن يتحدث عن ضياع «تارا» بمثل هذه البساطة، وتُباع بالمزاد؟؟ وإلى أين يذهبون؟؟ كلا إن هذا لا يُصدق. هتفت:

- يا الله.. كُنت أظن أن الحرب انتهت، وأن متاعبنا قد زالت.

- كلا، إن المتاعب قد بدأت، إنهم يُعاملوننا كأمة مغلوبة، والبطش والانتقام هما شريعة الغالبين.

- وكم يريدوننا أن ندفع؟؟

- ثلاثمائة دولارا.

فجمدت في مكانها.

- ثلاثمائة دولارا؟؟ يا إلهي.. وأين نجد هذا المبلغ؟

خُيل إليها أن قلبها قد استحال إلى قطعة من الرصاص. غمغمت:

- نعم.. أين نجد هذا المبلغ؟

فكرت لحظة، ثُم هتفت:

- باستطاعتنا أن نبيع القرط الذي وجدته بجيب اللص.

- إنك لست حمقاء، ولكنك تتكلمين في بعض الأحيان كالحمقى.. من ذا الذي يملك ثمن قرط؟؟ إن الناس لا يملكون ثمن الخبز فضلاً عن أن ثمن الحُلي واللآلىء، وإذا كان لديك عشرة دولارات ذهبية فأنت حقاً أغنى أهل هذه الناحية...

وساد الصمت وشعرت سكارليت كما لو كانت تنطح برأسها جداراً، وكم من الجدران نطحت خلال هذا العام..؟! سألت:

- أين إشلي ويلكس؟

- إنه يقتطع شجرة في الحقل.

- يجب أن أراه؛ فقد يخرجنا برأيه من هذا المأزق.

وجدته واقفا في الحقل، والفأس بإحدى يديه، وهو يُجفف عرقه بظاهر يده الأخرى، وكان يرتدي سروالاً مُهلهلاً، وقميصاً استعاره من جيرالد، فلما رأته في أطماره، والفأس في يده والعرق يتصبب على جبينه أحست بقلبها يذوب رحمة به وحُباً له، إنه لم يُخلق لشيء من هذا، وإنه لأهون عليها أن تتناول الفأس وتقتطع الأشجار بيديها من أن تراه يتصبب

عرقاً في زمهرير الشتاء، حدثته بنبأ الضريبة الجديدة، فأصغى إليها، ولكنه لم يقل شيئاً، ورآها ترتعد من البرد، فوضع رداءه على كتفيها، سألته:

- ألا ترى من الضروري أن نحصل على المال بأية وسيلة؟

- نعم.. ولكن كيف؟

فقالت في ضجر:

- إنني أسألك.

يا إلهي.. ما أشد جموده... إذا لم يكن في مقدوره أن يمد إليها يد المساعدة، فلماذا لا يقول لها ولو كلمة على سبيل الترفيه، قال وهو يبتسم:

- إني طيلة الوقت الذي قضيته في «أتلانتا» لم أسمع إلا عن شخص واحد يملك مالاً كثيراً، وذلك هو رايت بتلر.

كانت العمة بيتي قد كتبت لميلاني مُنذ أسبوع بأن الكابتن بتلر عاد لأتلانتا وأنه يُبعثر النقود ذات اليمين وذات اليسار، ويذرع شوارع المدينة بمركبة فخمة يجرها جوادان كريمان، والناس جميعاً يعتقدون أنه حصل على ثروته بوسائل غير مشروعة، وقالت سكارليت:

- دعنا من هذا الرجل، إنه وغد زنيم.. رباه.. كيف سيكون مصيرنا؟

ترك إشلي الفأس، وشرد بصره في الفضاء كأنه ينظر إلى شيء بعيد وغمغم:

- نعم.. إنني أعجب ماذا سيكون من أمرنا هنا، بل ماذا سيكون من أمر أهل الجنوب جميعاً؟

صرخت بوجهه:

- ليذهب أهل الجنوب إلى جهنم، فلا يهمني إلا مصيرنا نحن.

قال إشلي:

- سيكون مصيرنا آخر الأمر، مصير كُل شعب تقوضت مدنيته، فيطفو فوق الحطام كل ذي عقل وشجاعة، ويهلك من لا عقل له ولا شجاعة.

كانا أشبه بشخصين يتحدثان بلغتين مُختلفتين، ولكنها كانت تُحبه وتشعر عندما يتحول عنها ببصره وشعوره وتفكيره كما فعل في تلك اللحظة كأن الشمس قد غابت عنها فجأة وتركتها ترتجف في الصقيع، ودت لو أن في استطاعتها أن تُمسك بكتفيه وتضمه لصدرها وتُشعره بأنها من لحم ودم، وحاولت ان تُقبله ولكنه أبعدها عنه بقبضته المملوءة بالطين فلقد كان أشلي عاقلاً حكيماً عليما بشعورها أكثر من نفسها وقد أوصل لها رسالته بالرفض بقبضة الطين ليردها إلى صوابها ويرد عليها حواسها المسلوبة..

ودخلت غرفتها، وأغلقت بابها، وانصرفت إلى التفكير، ويجب أن تجد مخرجاً من هذا المأزق، لا بد أن يكون هناك مخرج، يجب أن يكون هُناك من يُقرضها هذا المبلغ، مُحال أن تكون النقود قد نضبت من الدنيا، وتذكرت كلمة أشلي:

- يوجد شخص واحد يملك مالاً كثيراً وذلك هو رايت بتلر.

رايت بتلر.. كيف فاتها أن تُفكر في الالتجاء إليه؟.. قالت:

- سأبيعه قرط اللؤلؤ، أو أقترض منه المبلغ، وأترك القرط رهينة عنده.

أحست ببعض الراحة والطمأنينة، ولكن ذهنها كان يعمل وعقلها لا يكف عن التفكير، قالت لنفسها:

- لكن المُشكلة ليست مشكلة الضرائب في هذا العام فحسب، فلا تزال هُناك ضرائب بالأعوام المُقبلة، وإذا دفعت الضريبة هذه المرة، فقد يُضاعفونها بالمستقبل ليكرهوني على ترك المزرعة، سأعيش أبد الدهر في خوف وجزع من الفقر والجوع والهزيمة، وهذا المبلغ الذي أريد اقتراضه قد يسد الثغرة هذه المرة، ولكنه لا يسدها للأبد.

قالت لها العمة بيتي وهُما يتناولان طعام العشاء:

- كم أنا سعيدة بقدومك، لقد كُنت أفكر فيمن أصطحب معي غداً لحلف زفاف «فاني» ابنة مدام ايزلنج ستكون أول وأبهى حفل زفاف

كبرى منذ أحرقت «أتلانتا».

- ومن يكون خطيبها الجديد؟. لقد ظننت بعد أن مات خطيبها الأول في معركة «جتسبورج» أنها...

فقاطعتها العمة:

- لا تلوميها أيتها العزيزة، أكثر الناس ليسوا أوفياء للموتى مثل وفائك لشارل المسكين، تسألينني عن خطيبها الجديد؟ لا أظن أنني أذكر اسمه، ولكنني أعلم فقط أنه فقد إحدى ساقيه في الحرب.

دار الحديث حول الكوارث التي أنزلتها الحرب بأصدقائهما، وودت سكارليت لو أن العمة «بيتي» تكلمت عن بتلر، وكانت تتحرق شوقاً إلى معرفة أنبائه، لكنها رأت من اللباقية ألا تكون البادئة بذكره حتى لا تُثير ريبتها وشكوكها. ومضت العمة «بيتي» في حديثها، وتناولت الشؤون العامة، فقالت:

- إن الحالة في «أتلانتا» أصبحت لا تُطاق بسبب طغيان الجمهوريين وأفاعيلهم التي ربما كان أسوأها تسميمهم عقول الزنوج، إنهم يُطالبون للزنوج بحق التصويت بالانتخابات فهل سمعت بأعجب من هذا، وقد امتلأ الزنوج غروراً وخيلاءً، وظهرت عليهم دلائل الصلف والقحة، وأصبح من الخطر على النساء أن يخرجن ليلاً، بل ويحدث بوضح النهار أحياناً أن يدفع الزنجي السيدة البيضاء على الرصيف فتسقط

بالوحل وإذا احتج ألقوا القبض عليه، هل قلت لك: إن الكابتن بتلر في السجن؟

وحمدت سكارليت للعمة بيتي أنها وفرت عليها إقحام اسم بتلر في حديثهما بطريقة قد تُثير ريبتها؛ فهتفت:

- أحقاً ما تقولين؟

- نعم، وهو سجين هذه اللحظة بتهمة قتل أحد الزنوج ومن المُحتمل أن يشنقوه.

فحبست سكارليت أنفاسها، وحملقت بوجه العمة بيتي وقد عقدت الدهشة لسانها قائلة:

- إن التهمة لم تثبت، لكن المؤكد أن هناك من قتل ذلك الزنجي لأنه أهان سيدة من البيض، والأعداء يشعرون بأشد القلق لتعدد حوادث قتل الزنوج بالمدة الأخيرة، ولا بد لهم أن ينزلوا عقاباً رادعاً بأي إنسان ليكون عِبرة لسواه، وقال لي الدكتور «ميد»: إنهم إذا شنقوا بتلر، كان ذلك أفضل عمل إنساني يصنعونه.

- كم سيقضي في السجن؟

- لا أحد يعلم، ربما يبقى بالسجن حتى يُشنق، رُبما يعجزوا عن إثبات جريمته فيُطلق سراحه، وقالت مدام إيزلنج أنهم أبقوا عليه حتى الآن

لأنهم يعتقدون أنه يعرف المكان الذي أخفى فيه الذهب، ويأملون أن يُرشدهم إليه.

- الذهب؟

- لقد أدهش بتلر أهل المدينة حين عاد ذات يوم وهو في قمة الغنى والترف، بينما أكثر الناس لا يجدون ما يأكلونه، وكان كل إنسان يتحرق شوقا لمعرفة مصدر ثروته، ولكن أحداً لم يجد الجرأة على سؤاله.

- لقد جمع ثروته من تهريب البضائع أثناء الحصار.

- لا شك أنه أصاب بعض الثروة من هذا الطريق، ولكن أرباحه من التهريب ليست إلا قطرة من بحر ثروته، فهم يعتقدون أنه استولى على ذهب الحكومة.

- ذهب الحكومة؟

- نعم.. وإلا كيف اختفى هذا الذهب؟ إنه كان يُهرب القطن لإنجلترا لحسابه ثم شرع يهرب قطن الحكومة لحسابها، وكان المفهوم أنه سيبتاع بثمن القطن أسلحة وذخيرة يُقدمها لجيش الحكومة، ولكن الأعداء شددوا الحصار، فلم يُقدم بتلر إلى الحكومة عُشر ما كانت تنتظره من الأسلحة، والرأي السائد بالمدينة أنه أودع الذهب مكاناً ما حتى تضع الحرب أوزارها.. يا إلهي.. ماذا أصابك يا بنية؟.. لقد فر

لونك... هل أزعجمك أن يقع بتلر في هذه الورطة؟

- كلا، إنه ليس صديقي، لقد اختلفت معه بعد رحيلك ولكن أين هو الآن؟

- إنه في سجن المدينة بشارع «بيكر».

في الصباح، نفذت أشعة الشمس من نافذة سكارليت؛ فارتدت ثوبها وقبعتها ونظرت في المرآة، وراقها جمالها واخضرار عينيها؛ فقبلت صورتها في المرآة ثم ضحكت من بلاهتها، وألقت على المرآة نظرة أخيرة، واطمأنت قبل انصرافها إلى أن أحداً لا يستطيع أن يرى خلال ثوبها الجميل شبح الفقر الذي يجثم على كتفيها، وكان من الضروري لنجاح خطتها ألا يشعر بتلر ببؤسها، وأن يعتقد بأن الشفقة والعطف وحدهما هُما الحافز على زيارته.

وفي غرفة الضابط دخل بتلر، وكان مُهلهل الثياب، طويل شعر الرأس واللحية، ولكن مشيته لم تفقد رشاقتها، وعينيه لم تفقدا سُخريتهما، هتف بسرور عندما وقع بصره عليها: "سكارليت..."

شد على يديها بحرارة، وانحنى فوقها بسرعة وقبل أن تُدرك ما هو صانع أحست بشفتيه تلمسان خدها، فأتت بحركة لتتخلص من ساعديه، ولكنه هتف كأنما يُذكرها:

- يا أختي الصغيرة العزيزة.

هُنا سأل الضابط البدين زميله:

- هل فتشتم السيدة؟

سمع بتلر سؤاله وأجاب:

- أؤكد لكم أيها السادة، أن أختي لا تحل معها سُلماً أو منشاراً أو أية أداة تُساعدني على الفرار.

فضحك الضُباط الثلاثة، جالت سكارليت ببصرها بقلق، كيف تستطيع التحدث إليه على مسمع من هؤلاء الرجال؟ ولاحظ الضابط الشاب قلقها وحيرتها، ففتح باب الغرفة المجاورة وقال:

- يُمكنكما التحدث على انفراد في هذه الغرفة.

نظر لبتلر واستطرد:

- حذاري أن تُحاول الفرار، فأنت مُحاط بثلة من الجنود.

قال بتلر:

- شكراً لك أيها الضابط، أرأيت يا أختاه كم أنا مخلوق شديد الخطر.

دخل الغرفة وأغلق بابها، وأسرع لسكارليت وانحنى فوقها ففهمت غرضه وأشاحت بوجهها، ولكنها حرصت على أن ترمقه من ركن عينها بنظرة فاتنة، سألها:

- **ألا أستطيع حقا أن أقبلك؟!**

- **بل تستطيع أن تقبل جبيني إذا شئت.. كما يفعل الإخوة.**

- **شكرا لك إنني أوثر أن أنتظر وأرجو ما هو أفضل من قُبلة على الجبين**

ثُم صعدها بعينين فاحصتين واستطرد:

- **لقد كان كرماً منك أن تأتي لزيارتي يا سكارليت.. إنك أول سيدة محترمة تزورني بهذا المكان.. جزى الله السجن كل خير، أنه منحك الصداقة وميزان الوفاء، متى حضرت إلى (أتلانتا)؟!**

- **أمس...**

- **جئت اليوم لزيارتي؟! ما أكرمك أيتها العزيزة!**

ارتسم على وجهه السرور واستطرد:

- **في الحق لم أصدق أذني حين ذكروا لي اسمك، ولم أكن أتوقع قط أن أنال صفحك عما كان من سلوكي في تلك الليلة، فهل أفهم من هذه الزيارة أنك غفرت وصفحت؟!**

غلا الدم في عروقها فجأة حين تذكرت تلك الليلة ولكنها كظمت غيظها وأجابت:

- **كلا.. إنني لم أصفح.**

- وا أسفاه.. هو ذا أمل آخر يتحطم.

- كان سلوكك ينم عن الخسة والنذالة، ولا أحسب أنه سيكون في مقدوري أن أصفح عنك.

- أنا واثق أنك غفرت لي، الفتيات الحِسان لا يرتدين أجمل ثيابهن ويقتحمن معسكرات الأعداء لزيارة أحد السجناء لمجرد الإحسان، كم أنت فاتنة، إنني أحمد الله على أنك لا ترتدين ثياب الحداد.

رأت سكارليت أن الحديث قد انحرف عن السبيل الذي تُريده، ولكنها لاحظت بارتياح أنه يتكلم في هدوء ورزانة كما يتكلم أفاضل الناس وأن أسلوبه خال من ذلك التهكم المقيت الذي طالما أثار سخطها وملأها نفوراً وبُغضاً، قالت:

- هل يجب دائماً أن تتقاضى ثمناً عن كل ما تصنع؟

- طبعاً، ينبغي أن تعلمي إذا كُنتِ لا تعلمين أنني تمثال حي للأنانية وأنني أنتظر دائماً ثمن ما أعطي.

قالت وهي ترمقه بنظرة إغراء:

- كلا يا بتلر أعتقد أنك في قرارة نفسك لست أنانياً، ولست رديئاً إلى الحد الذي تتظاهر به.

هتف وهو يضحك:

- يا إلهي، إنك تغيرت كثيراً يا سكارليت، من أين هبطت عليك هذه المشاعر الإنسانية الكريمة؟! إن العمة بيتي قد حدثتني عنك كثيراً، ولكنها لم تذكر لي تلميحاً أو تصريحاً أنك أصبحت بهذه الأنوثة. ماذا كنت تفعلين منذ رأيتك آخر مرة؟ فإنك مخلوق بلا قلب يا سكارليت وقد يكون ذلك من مفاتنك، ولطالما عجبت لماذا أفكر فيك وأذكرك، فقد عرفت نساء يفقنك فتنة وجمالاً ولباقة، ويمتزن بصفاء السريرة، ولكني كُنت دائماً أذكرك وأفكر فيك، وأتساءل تُرى ماذا تصنعين، وماذا كان مصيرك؟!

شعرت بالامتعاض حين سمعته يقول ذلك، فقالت وهي تلمس ساعده بلطف:

- أواه يا رايت.. لماذا تُريد التغرير بفتاة ريفية مثلي!!

- لأن...؟!

- متى سيسمحون لك بمغادرة هذا المكان المخيف يا بتلر؟!

تناول يدها بين يديه وأجاب:

- أشكرك على هذا الشعور النبيل، ولكنني لا أعلم متى أستطيع الخروج، رُبما أخرج عندما يفرغون من إقامة المشنقة.

- يا إلهي.. هل في نيتهم حقاً أن يشنقوك؟!

- طبعاً.. إذا اجتمعت لديهم الأدلة.

هتفت وهي تضع يدها فوق قلبها:

- رُباه!!

- هل يُحزنك موتي؟! إذا كان حزنك صادقاً ذكرتك في وصيتي.

نظر إليها بعينين ضاحكتين، فنكست رأسها بسرعة، حتى لا يرى بريق السرور الذي تألف في عينيها، واستطرد:

- يظن القوم أنني أملك ثروة ضخمة، وكل يوم أساق للجنة تحقيق جديدة تُلقى عليَّ طائفة من الأسئلة الحمقاء.. إنهم يعتقدون بأنني استوليت على ذهب حكومة الجنوب.

- هل هذا صحيح؟

- سؤالك عجيب! أنت تعلمين كما أعلم أن أموال الحكومة كانت ورقاً لا ذهباً.

- لكن العمة بيتي أكدت لي أنك تملك ثروة طائلة، فمن أين جاءتك كُل هذه الثروة؟! من المُضاربات والتهريب؟!

فرمقها بنظرة ساخرة وقال:

- ما أسقم فضولك!

فكرت سكارليت في أنها إذا أثارت شفقته وأحيت بعض الذكريات القديمة فربما استطاعت أن تحصل منه على قرض، فقالت:

- أنا واثقة يا رايت. إن في استطاعتك أن تبسط لي يد المساعدة إذا شئت.

- الآن سقط القناع عن وجه ملاك الرحمة، وبدأت السيدة المُحترمة ذات اليدين الخشنتين تلعب دورها الحقيقي.. ماذا تُريدين مني؟! هل تريدين مالاً؟!

حطمت صراحته القاسية بقية آمالها، وقالت بصوت خافت:

- لا تكن وضيعاً يا رايت، إنني بحاجة لبعض المال، فهل لك في أن تقرضني ثلاثمائة دولارا؟!

- تتشدق بالحب وتفكر في المال، تلك هي الأنوثة بمعناها الصحيح، هل أنت بحاجة مُلحة إلى هذا المبلغ؟

- نـ... كلا.. إن حاجتي إليه ليست شديدة، ولكن باستطاعتي أن أفيد منه.

- ثلاثمائة دولارا!! هذا مبلغ جسيم!! لماذا تُريدينه؟

- لكي أدفع الضرائب المُستحقة على (تارا).

- هذا جميل، لنتكلم إذن بلهجة رجال الأعمال، أنت تطلبين قرضاً، والقروض لا تُعقد بغير ضمان.

- ضمان؟!

- نعم.. إنني لا أريد أن أفقد نقودي.

ففكرت قليلاً وقالت:

- خُذ هذا القرط.

أشارت إلى القرط الذي يتدلى من أذنها، فقال:

- إن الأقراط لا تهمني.

- هل تقبل (تارا) ضماناً لنقودك؟!

- وماذا أصنع بها؟؟

- إنها مزرعة خصبة، ومحصول الموسم القادم يكفل لك أضعاف مبلغك.

هز كتفيه بقلة اكتراث وقال:

- لست واثقاً من ذلك، إن أسعار القطن في هبوط، والأزمة في ازدياد والنقود قليلة.

- لا تهزل يا رايت.. أنت تملك ملايين.

فنهض واقفاً، وقال وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

- يسرني أن أعلم أن كُل شيء في (تارا) على ما يرام، وأنك لست في حاجة شديدة إلى النقود.

هتفت وقد ذهب اليأس بوعيها:

- بحق السماء يا رايت....

- لا تصيحي هكذا، وإلا سمعك القوم في الخارج، هل قال لك قائل: إن لك عينين كعيني الهرة في الظلام؟؟

صاحت في بأس وجزع:

- أصغ إليَّ يا رايت إنني في أشد الحاجة لهذا المبلغ وقد كذبت حين قلت لك أن كل شيء على ما يرام، إن كل شيء لا يُمكن أن يكون أسوأ مما هو الآن، فأبي قد فقد صوابه منذ ماتت أمي، وإذا رأيته خُيل إليك أنه قد ارتد طفلاً، وليس بالمزرعة عامل واحد يحرث الأرض ويُنمي القطن، والضرائب فادحة لا تُطاق، سأصارحك بكل شيء يا رايت منذ أكثر من عام ونحن على شفا الموت جوعاً، إنك لا تعرف، ولا تستطيع أن تعرف معنى أن يمسي الإنسان جوعان، ويقضى يومه بغير أمل في طعام!! ولم تكن لدينا قط ثياب تقينا برد

الشتاء، أو أغطية تدفع عنا

فقاطعها:

- من أين لك هذا الثوب الأنيق؟!

فأجابت على الفور، دون أن تفكر في كذبة:

- إنني صنعته من ستائر أمي، لقد كان في استطاعتي أن أصبر على الجوع والبرد ولا أجهر بالشكوى، وأن أكد وأكدح في الحقل ولا أبذل ماء وجهي، ولكن الضرائب التي ضوعفت مراراً، كيف السبيل إلى سدادها؟!

- لماذا لم تُصارحيني بكل ذلك منذ البداية، بدلاً من هذا العبث بقلبي المسكين؟؟

تذكرت فجأة أنه طالما قال الحقيقة عن نفسه وسط السخرية، وسألت نفسها: "ترى هل يُحبها حقاً، وهل كان بسبيل الاعتراف لها بحبه حين رأى يدها. كشف رياءها؟ إذا أصح ذلك، كان لا يزال هناك أمل في الظفر"

قال:

- لا أقبل هذا الضمان، ولست شغوفاً بالزراعة؛ فهل تملكين شيئاً آخر؟

لم يبق إلا أن ترمي بآخر سهم بجُعبتها، فتنهدت وجمعت شتات عزيمتها، وقالت وهي تنظر إليه في بساطة، وبغير إغراء أو تصنع:

- لا أملك غير نفسي.

- ثم...؟؟

- هل تذكر الحديث الذي دار بيننا ذات مساء في بيت العمة (بيتي)؟ أنك قلت ليلتئذ أنك تريدني...

فدس يده في جيب سرواله، وقطب حاجبيه ولم يقل شيئا؛ فاستطردت:

- قلت ليلتئذ إنك لا تشتهي امرأة كما تشتهيني، فإذا كنت لا تزال تريدني، فهأنذا، أصنع بي ما شئت، فقط اكتب لي صكاً بالمبلغ وكن مطمئنا إلى صدق وعدي. وإذا أردت فإنني أسجل هذا الوعد على الورق.

رمقها بعينيه السوداوين، ولم تفهم من نظرته هل أثار حديثها ارتياحه أم أثار نفوره، ولكنها أحست بدم الخجل والمذلة يُلهب وجنتيها، قالت:

- يجب أن أحصل على هذا المبلغ في الحال، وإلا طُردنا من (تارا) وتشردنا في الطرقات.

- صبراً لحظة.. من قال لك إنني لا أزال أريدك؟؟ وماذا يجعلك تعتقدين أنك تساوين ثلاثمائة دولار؟ إن أكثر النساء لا يطلبن هذا الثمن الضخم

هكذا تجرعت كأس المذلة إلى آخر قطرة، استطرد:

- ولم هذه التضحية؟؟ ولماذا لا تتركين المزرعة تذهب للشيطان، وتُقيمين في بيت العمة (بيتي).. إنك ورثت عن زوجك نصف هذا البيت.

فصاحت:

- يا إلهي.. كيف أترك (تارا)؟؟ إنها بيتي ووطني، ولن أفرط فيها، وسأبذل في سبيلها آخر قطرة من دمي.

- تباً لكم أيها الأيرلنديون، إنكم تُقيمون كل الوزن لما لا وزن له، أي فارق بين هذه المزرعة أو تلك؟؟ ولكن ذلك شأنك. سأكون عملياً وسأحدثك في صراحة، سأعطيك هذا المبلغ، وستصبحين عشيقتي

وما أن قال «سأعطيك» حتى انتعشت آمالها، وشعرت بأنها على استعداد لأن تعد بكل شيء، قالت: اتفقنا. أحست بعد أن نطقت بهذه الكلمة المقيتة كأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن صدرها، قال بتلر وفي عينيه بريق شيطاني:

- إنك تُرحبين الآن بالعرض الذي أثار حنقك ونفورك من قبل، وكان جزائي منك عندما اقترحته الشتم والطرد. حقاً إن لكل فضيلة ثمناً.

- لك أن تُهينني كما تشاء يا رايت، فقط أعطني المبلغ.

كانت تعلم ما طُبع عليه من الضعة والدناءة، وأن مثله من ينتهز هذه الفرصة لإهانتها وإذلالها وتلطيخها بالأوحال انتقاماً لما عانى من صلفها وكبريائها، ولكنها كانت قد وطنت نفسها على احتمال إهاناته، والصبر على قحته من أجل (تارا). قالت:

- ألا تعطيني النقود؟

أجاب وقسمات وجهه تدل على أنه يجد بالموقف كثير من التسلية:

- كلا.

فنظرت إليه في ذهول، وبدت كأن عقلها قد أصابه الشلل، وكأنها لا تستطيع أن تعي ما يقول.. استطرد:

- ليس في استطاعتي. ولو أردت أن أعطيك هذا المبلغ لأنني لا أحمل معي ولا أملك في (أتلانتا) دولاراً واحداً صحيح أن عندي ثروة. ولكنها ليست هنا، ولن أبوح بمكانها، أو بمقدارها، وإذا كتبت لك صكاً بالمبلغ الذي تُريدين فكأنني أرشد القوم لمكان ثروتي، وأدعوهم

للاستيلاء عليها، وإرسالي للمشنقة.. فماذا تقولين في ذلك؟!

ووثبت من مكانها وثبة النمر، وانبعثت من صدرها صيحة مُختلفة مُزعجة لا تُشبه صيحات البشر في شيء، وبأسرع من لمح البصر.كان بتلر إلى جانبها وساعده حول خصرها، ويده الخشنة فوق فمها، فراحت تُناضله بكل ما أوتيت من قوة، وحالت أن تعض يده، وأن ترسل من فمها صرخة تودعها كل ما يعتمل في أعماقها من غضب وبغض ويأس، ولكن يده القوية كانت تحيط بها كحلقة من حديد، فجعلت تتثنى وتتلوى ولا تجد من قبضته خلاصاً، هتف:

- بحق السماء لا تصرخي، وإلا امتلأ المكان بالجنود؟!!

لكن الغضب أفقدها الوعي، فهي لا تعبأ بمن يراها، ولا بأية حال يراها، كل ما كانت تشعر به في تلك اللحظة هو الرغبة المُلحة في أن تنشب أظفارها في عنقه وتجهز عليه، بيد أنها أحست في ذت الوقت بأن يده تكتم أنفاسها، وبأنها تختنق، ولم تلبث أن اعتراها دوار، فاضطرب ذهنها، واختلطت المرئيات أمام عينيها، ووصل صوته إلى أذنيها في هدير كهدير الأمواج، وعندما فتحت عينيها، وجدت نفسها مُمددة في المقعد، وبتلر يرش جبينها بالماء، وفي عينيه نظرة قلق وإشفاق، ورأت الضابط الشاب يدنو منها وفي يده قدح مليء بالنبيذ. بينما وقف الضابطان الآخران على مقربة منها يتهامسان، ويُقلبان أيديهما حيرة ودهشة.

همست: "أظن أنني أصبت بإغماء..."

خُيل إليها أن صوتها ينبعث من كل مكان سحيق. قال بتلر: "تجرعي هذا". تناول القدح من يد الضابط، وأدناه من شفتيها، وعندئذ تذكرت ما كان بينهما. رمقته بنظرة سخط واشمئزاز، ولم يمنعها من الانقضاض عليه إلا شعورها بالتعب والإعياء بعد تلك النوبة العنيفة التي أنهكت قواها، وهمس في رفق:

- تجرعي هذا... من أجلي.

قالت في ضجر:

- لا حاجة بي إلى شئ منك.

- رفهي عنك، وحاولي شهود حفلة شنقي، فذلك خليق بأن يهون عليك ويُصفي ما بيننا من حساب، وسوف أذكرك في وصيتي.

فأجابت وصوتها ينم عن الحقد الذي يأكل قلبها:

- شكراً لك، ولكني أخشى ألا تُشنق إلا بعد فوات الموعد المقرر لسداد الضرائب!

الفصل السادس عشر

كانت الريح تعصف بشدة والمطر يهطل مدرارا عندما غادرت سكارليت السجن، ولفح الهواء البارد وجهها، ونفذ ماء المطر إلى جسدها، وسبح ذيل ثوبها في الوحل، ولكنها لم تعبأ كثيراً لتلف هذا الثوب الذي كانت تعتمد عليه كل الاعتماد لنجاح مُغامرتها. وسمعت وراءها وقع حوافر جواد فصعدت على الأفريز الضيق لتجنب رداءها ومعطف العمة (بيتي) مزيداً من البلل والوحل، ودنا الجواد ببطء، وكان يجر وراءه مركبة صغيرة، فتمهلت سكارليت في مشيتها وراحت ترقب اقتراب المركبة، وقررت أن تطلب معونة إذا كان من البيض، ومرت المركبة ورمقها السائق من ركن عينه، ثُم نظر إليها بإمعان ورأت سكارليت في ملامحه شيئاً مألوفاً، ولم يلبث الرجل أن سعل، وصاح بصوت ينم عن الدهشة والسرور:

- سكارليت. أهذه أنت حقا؟

فهتفت بدورها:

- مستر كنيدي!!

شقت طريقها إلى المركبة واستندت إلى عجلتها دون أن تعبأ بالوحل واستطردت:

- كم أنا سعيدة بلقائك!

فاحمرّ وجهه سروراً، ووثب من المركبة بسرعة، وشد على يدها بحماسة وقال وهو يُعاونها على الصعود:

- ماذا جاء بك لهذا الحي؟ ألا تعلمين أنه من الخطر على السيدات أن يسرن على انفراد؟.. يا إلهي.. إن ثوبك يقطر ماءً.

وخلع معطفه وألقى به على كتفيها، فأحست بالدفء، وسرها أن تلقى هذه العناية، وهذا الحنان بعد الذي عانته من خشونة بتلر وفظاظته، وسرها بالأكثر أن ترى في وحشتها وشقائها وجهاً مألوفاً يبتسم لها، ولاحظت بنظرة خاطفة أنه يرتدي ثوباً أنيقاً، ولكنه شاحب الوجه غائر العينين والصدغين وقد تغير كثيراً منذ رأته في عيد الميلاد الماضي، ولاحظت أن مركبته جديدة وجوادها ممتلئ قوة ونشاطاً..

فقال فرانك كنيدي بحرارة وإخلاص:

- كم سرني أن أراك.. لم أكن أعلم أنك جئت إلى (أتلانتا)، وقد قابلت العمة (بيتي) بالأسبوع الماضي، ولكنها لم تحدثني عنك، ولم تنبئني بعزمك على القدوم، هل اصطحبت معك أحداً من (تارا)؟

أدركت أنه يُفكر في أختها سولانج، فجمعت المعطف حول عنقها وأجابت:

- كلا إنني جئت وحدي، ولم أنبئ العمة بيتي بعزمي على القدوم.

وساط الجواد؛ فانطلق بالمركبة. سأل:

- كيف حال القوم في (تارا)؟

- إنهم في خير حال.. شكراً لك.

وكان من اللباقة ألا تلزم الصمت طيلة الطريق، ولكنها لم تجد ما تقوله، وكان قلبها مُثقلاً باليأس والهزيمة، وكل ما تريده هو أن تغمض عينيها وتنعم بالدفء، وتقصى من ذهنها (تارا) وكل ما يتصل بها.. قالت:

- لقد أدهشني أن أراك هنا يا مستر كيندي، كنت أظنك في (شارلستون)، لقد قال لي بعضهم أنه صادفك هناك.

- إنني ذهبت إلى (شارلستون) لبعض الشؤون.. ألم تنبئك الآنسة سولانج بأنني ألقيت عصا الترحال هنا؟! ألم تحدثك عن الحانوت الذي افتتحته؟!

فتذكرت كما تذكر حلماً بعيداً أن سولانج قد تكلمت عن حانوت في معرض حديثها عن فرانك، ولكنها لم تكن تُلقي بالاً لأحاديثها، وكان يكفيها فقط أن تعلم أن فرانك لا يزال على قيد الحياة، وأنه سيُريحها من سولانج في أحد الأيام. أجابت كذباً:

- كلا.. إنها لم تذكر كلمة واحدة في هذا الصدد.. أصحيح أنك

افتتحت حانوتاً؟! أنت رجل نشيط يا مستر كنيدي.

قال ضاحكاً:

- نعم، إنني افتتحت حانوتاً، والناس يقولون لي أنني خُلقت تاجراً.

قالت سكارليت لنفسها:

- يا له من أحمق مغرور!

استطردت بصوت مُرتفع:

- إنك تنجح بحق في كُل عمل تزاوله يا مستر كيندي، ولكن حدثني بحق السماء، كيف افتتحت هذا الحانوت؟ ألم تقل لي عندما التقينا في عيد الميلاد الماضي، أنك لا تملك دولاراً واحداً؟

فسعل، وابتلع لعابه بصوت مسموع قائلاً:

- إن لذلك قصة طويلة.. حمدا لله، فربما استغرقت القصة كل الوقت حتى نصل إلى بيت العمة بيتي.

هتفت وهي تصطنع اللهفة:

- حدثني بها.. إنك أثرت فضولي.

- هل تذكرين يوم ذهبت إلى (تارا) للبحث عن مؤن للجيش؟ إنني

التحقت بالخدمة العامة بعد ذلك، فقد فشلت مساعينا للحصول على مؤن، وجدت أن مكان الرجل الصحيح يجب أن يكون في ميدان القتال، فانضممت لفرقة الفرسان، وساهمت بالمعارك التي نشبت بعد ذلك إلى أن أصبت برصاصة في كتفي.

نظر إليها في فخر وخيلاء، فهتفت:

- **يا إلهي.**

- **على أن الإصابة كانت طفيفة، فأرسلت إلى مستشفى في إحدى المدن الجنوبية، وقبل أن يندمل الجرح تماماً فوجئنا بهجوم الأعداء على المدينة فاضطر كل رجل يستطيع الوقوف على قدميه أن يعمل في شحن مُهمات الجيش والمستشفى، وما كاد القطار يبرح بنا المدينة من الجنوب حتى دخلها الأعداء من الشمال، وكان رجالنا بهذه الأثناء قد استردوا (أتلانتا) فقصدنا إليها، ووجدنا بها أكداساً من الأسرة والدواليب وقطع الأثاث، وليس هناك من يُطالب بها، فأيقنت أنها من مُخلفات الأعداء وبالتالي غنائم يجوز لنا الاستيلاء عليها، هل تفهمين ما أعني؟!**

فغمغمت، وقد طاب لها الدفء، وغمرها الخمول:

- **نعم.. نعم..**

- **يسرني أنك تُقرين وجهة نظري، والواقع أنني لم أشعر قط براحة**

الضمير من هذه الناحية.. فهل تعتقدين أنني كنت على صواب؟!

- طبعاً.. طبعاً.

- وعندما وضعت الحرب أوزارها، لم أكن أملك سوى عشر دولارات، فاستأجرت حانوتاً، نقلت إليه غنائمي من الأسرة والآنية والصحاف وقطع الأثاث، وكان الناس في أشد الحاجة إلى هذه الأشياء، فبعتها بثمن بخس إذ كُنت أعتقد أن للناس فيها مثل ما لي من حق، واجتمع لي من ذلك بعض المال فاشتريت مزيداً من البضائع، ونشطت حركة الحانوت، وأصبت منه بعض الثروة.

ما كاد ينطق بكلمة (الثروة)، حتى أفاقت سكارليت من غفوتها ونشطت من خمولها، وسألت:

- تقول أنك أصبت بعض الثروة؟!

ولاحظ اهتمامها، وامتلأ غروراً وخيلاءً، ولم يكن يلقى من النساء قبل الآن سوى مزيج من الاحترام والفتور، ولم يحلم قط بأن يُثير اهتمام حسناء مثل سكارليت، فأجاب وهو يبتسم:

- لا أقول إنني من أصحاب الملايين، ولا أن ثروتي الآن تُعادل معشار ما كُنت أملك قبل الحرب، ولكني ربحت ألف دولارا هذا العام، ذهب نصفها في ترميم الحانوت، وشراء البضائع، وبقى لي نصفها الآخر على أنني أرجو أن يصل ربحي بالعام المقبل لألفي دولار، لاسيما وقد أعددت العدة لمشروع آخر

فثار فضولها، وأرخت أهدابها الطويلة فوق عينيها الخضراوين، وقالت وهي تلتصق به:

- ماذا تعني يا مستر كنيدي؟

- حسناً.. إن في نيتي شراء مصنع للخشب، أعني مصنعاً لقطع الأخشاب، يوجد رجل يُدعى (جونسون) يملك مصنعاً في شمال المدينة ويُريد أن يبيعني إياه على أن يواصل إدارته والإشراف عليه لقاء أجر أسبوعي، وقد أحرق الأعداء أكثر المصانع التي من هذا النوع، ومن يملك مصنعاً لقطع الخشب فكأنه يملك منجماً للذهب، ذلك لأن البيوت التي نجت من الحريق والتدمير لا تكاد تتسع لإيواء أهل المدينة جميعاً وقد نشطت حركة البناء والتعمير نشاطاً مُنقطع النظير، والناس لا يجدون كُل ما يريدونه من خشب بالسرعة التي يريدون، ثم أن المدينة بدأت تمتلئ بأولئك الذين كانوا فيما مضى يعيشون بالريف ثم هجروا مزارعهم. لأنهم عجزوا عن دفع الضرائب، أو لأنهم لا يجدون الأيدي العاملة لفلاحة الأرض بعد أن تحرر الزنوج، كذلك بدأ الزنوج يتدفقون على المدينة في البحث عن عمل يكون أجدى وأقل عناءً من الفلاحة لذلك اعتزمت شراء المصنع حالما أتمكن من تحصيل ديون عملائي، وسوف لا ينقضي العام المقبل حتى أصبح من أصحاب الثروات، ولا شك أنك تعلمين، لماذا أريد أن أثرى سريعاً؟

وابتسم. واحمر وجهه، وأدركت سكارليت أنه يفكر في سولانج،

وشعرت نحوه بالازدراء والاشمئزاز، وخطر لها أن تسأله إقراضها ثلاثمائة دولار، ثم عدلت عن هذا الخاطر في الحال، فكانت تعلم أنه سوف يضطرب، ويتلعثم، ثم يعتذر ولا يقرضها إنها تُناضل في سبيل المال لكي يقترن بسولانج في الربيع، فإذا نزل عن هذا المال اضطر أن يُرجئ زواجه إلى أجل غير مسمى.

وقفت المركبة بباب العمة (بيتي)، ووثب منها فرانك، وعاون سكارليت على الهبوط، ثُم رافقها للباب، وهم بالانصراف، فقالت له في همس وعلى شفتيها ابتسامة فاتنة:

- سأنتظرك هذا المساء، وستتناول معنا طعام العشاء، ثُم ترافقنا إلى حفلة زفاف فاني إيزلنج، وأرجوك ألا تُحدث العمة بيتي بقصة سولانج، حتى لا تُحزنها، ثُم إنني لا أريدها على أن تعلم أن أختي...

- كلا... كلا... لن أحدثها.

قالت وهي تُسلط عليه عينين تفيضان فتنة وعذوبة:

- إن ما لقيته من كرمك وعطفك قد شجعني وشدد عزائمي؛ فشكراً لك وألف شكر.

وشدت على يده بحرارة.

الفصل السابع عشر

في حفلة زفاف (فاني إيزلنج)، كان وجه سكارليت يُضيء سروراً وغبطة، فقد كان من المُمتع أن تجد نفسها مرة أخرى في حفلة أنيقة، وأن تسمع أنغام الموسيقى وترى وجوهاً باسمة معروفة، وأثلجت صدرها الحفاوة البالغة التي قوبلت بها عندما دخلت القاعة الكُبرى مُستندة لساعد فرانك كنيدي، فقد خف الجميع لاستقبالها وداروا بها وقبلوها وشدوا على يدها وعبروا لها عن سرورهم بلقائها ونسى الرجال أنهم كانوا بوقت ما يتخبطون في حبائلها، ونسيت الفتيات أنها طالما عملت على إغراء عشاقهن، ولم ير فيها الجميع إلا أنها مواطنة تألمت مثلما تألموا، وعانت من الحرب والهزيمة مثلما عانوا، فرحبوا بها أجمل ترحيب، وذكروا أمها والدموع تترقرق في عيونهم واستفسروا عن أبيها وأختيها، وسألوا عن ميلاني وإشلي، وتساءلوا لماذا لم يعودوا معها إلى «أتلانتا»

وأحست سكارليت على الرغم من هذه الحفاوة بشيء كثير من القلق بسبب ثوبها، فقد كان الثوب لا يزال مُبللاً، وقد بذلت جهد الجبابرة لتجفيفه وإصلاحه، ولكن قطرات المطر ظلت بارزة ظاهرة، إلا أنها شعرت ببعض الطُمأنينة والعزاء عندما لاحظت أن ثوبها أفضل وأرشق من ثياب أكثر المدعوات..

وبدأ الرقص وجاء (رينيه) شقيق (فاني) يطلب إليها أن تُراقصه،

ولكنها أجابت:

- كلا.. شكراً لك.. إنني في حداد على أمي.

وأقبل فرانك في تلك اللحظة، وقدم إليها قطعة من الكعك فابتسمت له. وأفسحت له مكاناً بجوارها، ولوحت بمنديلها ببطء لكي تصل رائحته الزكية إلى أنفه، وأصيب فرانك بذلك الجو المرح بنوبة من الجرأة، فقال لها في همس:

- إنها أينع وأطيب شذى من الوردة اليانعة.

ليته فقط لم يكن خجولا، إنه في خجله يُذكرها بالأرنب البري، فلو كان جريئاً كستيوارت تارلتون، أو وقحاً كبتلر، ما أعوزه كثير من التفكير ليُدرك الغاية التي تتوخاها من هذه النظرات الفاتنة والعبارات المعسولة، لقد كان من حُسن حظها حقاً أنه خجول بليد على أن خجله وبلادته لم يُزيدا احترامها له.

اقترنت به بعد أسبوعين حافلين بالسهرات والخلوات، وبعوامل الدفع والجذب، والمد والجزر، وقالت له سكارليت في نهاية هذه الفترة العاصفة، وهي تصطنع الخجل والحياء أن إلحاحه وضراعته قد تركاها لاهثة، منقطعة الأنفاس لا تستطيع إلا النزول على إرادته، ولم يعلم فرانك أنها كانت تصر بأسنانها غيظاً من جموده، وبطئه في فهم تلميحاتها المُشجعة، وتبتهل إلى الله ألا تأتيه رسالة من سولانج تفسد عليها خطتها

وتقوض آمالها. كذلك لم يعلم فرنك أنها تسلمت رسالة من (ويليم) يُنبئها فيها بزيارة جونس ويلكنسون وجماعة من جباة الضرائب، وهذه الرسالة كانت تدق بذهنها كالمطرقة، وتذكرها بكل لحظة خلال الليل والنهار بحقيقة تعرفها حق المعرفة، وهي أن الوقت ضيق لا يسمح بالإبطاء، على أنها عرفت كيف تكتم شعورها وتُخفي قلقها واضطرابها وعرفت كيف تُجيد دورها، فلم ير فرانك من الأشياء إلا ظواهرها، وإلا أن هذه الأرملة الشابة الجميلة التي لا حول لها ولا قوة تستقبله كل مساء في بيت العمة بيتي، وتُحييه أحسن تحية، وتُصغي إليه بانتباه وإعجاب كُلما حدثها عن مشروعاته المُقبلة، وأرباحه المُنتظرة من المصنع الذي اعتزم شراءه، وكان عطفها عليه، واهتمامها بمستقبله، وعنايتها بسماع كُل كلمة ينطق بها، بلسماً لجراح قلبه بعد الصدمة التي أصابته من سلوك سولانج، ومنعه خجله وكبرياؤه من أن يكتب لسولانج فيلومها ويُعنفها على خيانتها المزعومة، وقنع بما كان يجد من العزاء والترفيه في أحاديثه مع سكارليت، وحرصت سكارليت من ناحيتها على أن تُشعره بأنه رجل نبيل الخُلق، حقيق بعطف المرأة التي تفهمه، ورضخ فرانك لإلحاحها وأعطاها الثلاثمائة دولارا بعد شيء من التردد، وكان يعلم أن نزوله عن هذا المبلغ معناه ضياع آماله في ابتياع المصنع، ولكن لم يكن في وسعه أن يترك أسرتها في الطرقات، فأعطاها المبلغ وهو كاره، ثُم زال امتعاضه وطابت نفسه عندما رأى وجهها يُشرق سعادة وهناءً.

بعد أسبوع، جاءتها رسالة من ويليم فأخفتها في صدرها، حتى خلت إلى نفسها في غرفتها، فقرأتها، قال لها ويليم أنه قادم بسداد الضريبة الإضافية، وأنه سيبعث إليها بولدها في حراسة مربيتها الزنجية، وختم الرسالة بعبارة مُقتضبة تمنى لها فيها السعادة في حياتها الزوجية الجديدة.

ثُم جاءتها رسالة من سولانج مكتوبة بأسلوب سقيم ولكنها عنيفة اللهجة حافلة بالشتائم والسباب وقد نفثت فيها سولانج كُل سموم بُغضها وكُرهها، وقالت كلاماً لم يسع سكارليت إلا الاعتراف بصحته بيد أن شيئاً مما تضمنته الرسالة لم يُعكر طمأنينتها وسعادتها، ولم يُؤثر في شعورها بأنها أنقذت (تارا)، على أنها لم تلبث أن أحست بالألم وخيبة الأمل، وعندما أدركت آخر الأمر أن مقامها أصبح في (أتلانتا)، وليس في (تارا)، وأنها في يأسها ولهفتها قد نسيت أن الثمن الذي ابتاعت به (تارا) هو النفي المؤبد منها، ولكن على الرغم من حنينها لـ (تارا)، فإنها كانت تشعر بالوفاء نحو فرانك، وقد وطدت العزم على إسعاده، وقررت ألا تدعه يندم يوماً ما على زواجه منها.

كان من الطبيعي أن يُثير هذا الزواج الفجائي كثيراً من القيل والقال وأن يذهب الناس في تأويله كل مذهب، فقد أعلن فرانك مراراً أنه سيقترن بسولانج في الربيع، فلماذا عدل عن هذ الزواج، ولماذا استعاض عن سولانج بشقيقتها؟

في بداية الأسبوع الثالث بعد الزواج أصيب فرانك ببرد ألزمه الفراش، وكان خلال العام الأول من الحرب قد قضى شهرين بالمستشفى على أثر إصابته بنزلة رئوية، ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش بخوف من أن يعاوده هذا المرض فلما نصح له الدكتور ميد بالراحة لزم فراشه فوراً ودفن نفسه تحت كومة من الأغطية على أنه كان دائم التفكير في أمر حانوته الذي تركه لعناية شاب في مُقتبل العمر كان قد ألحقه بخدمته، وكان الشاب يذهب إليه في كل مساء فيُقدم له حساباً على الصفقات التي أبرمها، بيد أن ذلك لم يكن كافياً لطمأنة فرانك ووجدت سكارليت أن الفرصة التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر قد تهيأت لها، فوضعت يدها الباردة على جبين فرانك وقالت له:

- لا تُجهد نفسك في التفكير أيها العزيز وإلا تفاقم مرضك، سأذهب بنفسي للحانوت غداً، وأرى ما هناك...

وذهبت رغم احتجاجه. كانت خلال الأسبوعين الأولين تتحرق شوقاً لفحص دفاتره ومعرفة مركزه المالي فحمدت الله على أن المرض قد هيأ لها هذه الفرصة وانطلقت للحانوت فوجدته عبارة عن أربعة جدران قد سودهما دخان الحرائق، ورأت قطع الأثاث والآنية وأدوات الطهي مُبعثرة هنا وهناك بغير نظام، وعليها طبقة كثيفة من الأتربة، فقالت لنفسها: "إذا كان هذا حال المعروضات فكيف يكن حال الدفاتر؟"

أمرت الشاب أن يأتيها بالدفاتر؛ فتردد، وظهرت على وجهه دلائل

الاستنكار. والظاهر أنه كان رغم حداثة سنه يُشاطر فرانك رأيه في النساء لم يُخلقن للأعمال التجارية والمالية، ولكنها رمقته بنظرة صارمة، فأطاع وجاءها بالدفاتر، فعكفت على فحصها.

ولكنها كانت تشعر بأن الشاب لا يحول بصره عنها، ولما كان الوقت ظهرا، والحانوت خلوا من العملاء، والشارع مقفرا من المارة، فإنها أمرت الشاب بأن يذهب لتناول طعامه، وحينئذ خلا لها الجو، فأخذت تتصفح الدفاتر، وتُراجع الأسماء والأرقام، بصبر وجلد واهتمام، وما أبطأت أن وجدت أن الأمور تسير كما توقعت. وأن فرانك يفتقر في عمله للحزم والحصافة وبُعد النظر. وأن الديون التي لم تُسدد، وانقضت شهور على موعد سدادها تربو على خمسمائة دولار وأنه من بين المدينين كثيرين ممن تعرفهم حق المعرفة، ورأت أسماء المدينين تتكرر في أكثر الصفحات فقالت بتبرم وضجر:

"إذا كانوا عاجزين عن السداد فلماذا يواصل التعامل معهم؟؟ إن أكثرهم قادرون على الوفاء، إذا شدد عليهم النكير وألحف في المطالبة، وإذا كانت مدام إيزلنج قد استطاعت أن تقيم ستين دولاراً.. كلا.. كلا.. إن فرانك ضعيف الإرادة طيب القلب والقوم يستغلون ضعفه وطيبة قلبه، ولو كان قد حصل نصف هذه الديون، إذن لم عجز عن شراء المصنع؟.. ودفع ضريبة (تارا) في وقت واحد.. ولكن كيف بالله يستطيع إدارة المصنع إذا كان قد جعل من الحانوت ما يُشبه أن يكون معهداً خيرياً؟؟ لا شك أنني أستطيع إدارة الحانوت والمصنع خيراً منه".

وبهرتها هذه الفكرة الفجائية، فجمدت في مكانها، وراحت تُقلب الفكرة على كُل وجوهها. لقد علموها أن المرأة لا تستطيع وحدها شيئا دون معونة الرجل، ولكنها أشرفت على شؤون (تارا) دون أن يعاونها أحد، وكان التوفيق حليفها... فلماذا لا تعاود الكرة وتغامر في ميدان العمل؟!

وفجأة، فتح باب الحانوت، ولفح الهواء البارد وجهها؛ فرفعت رأسها ورأت رجلا طويلا القامة يجتاز الحانوت في طريقه إليها، وهو يمشي برشاقة الهنود الحمر؛ فأمعنت النظر في وجهه، وسقط القلم من يدها، وكان القادم هو الكابتن بتلر!! كان يرتدي ثوباً أنيقاً، ومعطفاً فخماً، وقبعته العريضة تُظلل وجهه الأسمر الحليق. رفع قبعته وأحنى قامته محييا، وقال وعيناه الجريئتان تنهبان وجهها وجسدها:

- طاب يومك يا عزيزتي مدام كنيدي.

فبُهتت، وتجاوز قلبها نبضه، وخُيل إليها أنها ترى شبحاً، ثُم ملكت نفسها بسُرعة، ورفعت رأسها، وحدجته بنظرة باردة وسألته:

- ماذا تفعل هنا؟!

- علمت أنك تزوجت؛ فجئت مُسرعاً لأعبر لك عن تهاني القلبية.

تذكرت سكارليت ما لقيت على يديه من المذلة والإهانة فاحمرّ وجهها وصاحت:

- لا أدري كيف تجد الجرأة على التطلع في وجهي.

- على العكس، كيف تجدين أنت الجرأة على التطلع في وجهي؟!

- مما يدعو إلى الأسف حقا، أنهم لم يشنقوك.

- أعتقد أن هناك كثيرين يُشاطرونك الرأي، ولكن لِم هذا التجهم يا عزيزتي؟! ألم ينقض على اجتماعنا الأخير من الوقت ما يكفي لهضم دعابتي الصغيرة؟

- دعابتك!؟ إنني لن أهضمها، ولن أنساها.

- بل ستنسينها، وإذا كُنت الآن تصطنعين الغضب فلأنك تحسبين أن ذلك أبقى على كرامتك، وأجدى على كبريائك، هل تسمحين لي بالجلوس؟

- كلا.

فغاص في مقعد بجانبها، وقال وهم يبتسم:

- قيل لي، أنك لم تستطيعي انتظاري ولو أسبوعين، حتى أبرح السجن. فيا للرجال من غدر النساء!!

وتأوه بتهكم، ولكنها صمتت، فاستطرد:

- أنبئيني فيما بين صديقين قديمين، يفهم كُلِ منهما صاحبه، أما كان

خيراً لك لو أنك انتظرت حتى أبرح السجن؟ أم أن للزواج من فرانك كنيدي فتنة تستهويك أكثر من معاشرتي بغير زواج؟

فرمقته شرراً وقالت:

- لا تكن غبياً.

- هل تستطيعين على الأقل أن تُشبعي فضولي لمعرفة حقيقة طالما أذهلتني؟ ألم تشعري كامرأة بنفور واشمئزاز من الاقتران، ليس فقط برجل واحد وإنما برجلين لا تحبينهما، بل ولا تحسين نحوهما بمجرد العطف؟ أم أن ثقتي في رقة نساء الجنوب وشدة حساسيتهن لم تكن قط في محلها؟

فهتفت تزجره:

- بتلر...

- لقد هداني التفكير لجواب عن هذا السؤال، وهو أنه في النساء صلابة وقساوة وجلداً لا تتفق مع ما تعلمناه بالصغر من أن المرأة مخلوق ضعيف رقيق شديد الحساسية، هذا لأنني شخصياً أعتقد في صحة النظرية الأوربية التي تقول بفصل الزواج عن الحب بأن الزواج يجب أن يكون للمنفعة والحب للمتعة، نظرية وجيهة.. أليست كذلك؟

ودت لو في استطاعتها أن تصرخ في وجهه: «كلا.. إنني لا أتزوج للمنفعة» ولكن لم يكن في مقدورها أن تقول له هو هذا الكلام، فقالت في برود لكي تُغير مجرى الحديث:

- كيف استطعت الإفلات من السجن؟

هز كتفيه بقلة اكتراث وأجاب:

- الأمر بسيط، لي صديق يشغل مركزاً خطيراً في الحكومة واشنجتون وكان صديقي هذا أحد الذين باعوني الأسلحة والذخائر التي وردتها لحكومة الجنوب، فلما هددته بالفضيحة، سعى سعيه، واستخدم نفوذه لإطلاق سراحي، فالواسطة هي كل شيء، فلا تنسي ذلك إذا قُبض عليك، الوساطة هي كل شيء، سواء كان الإنسان بريئاً أو مُذنباً. كلا.. ولا حرج عليَّ الآن وقد أصبحت حُراً من أن أعترف بأنني مذنب كقابيل؛ لقد قتلت ذلك الزنجي لأنه أهان امرأة بيضاء، وماذا كان في وسع أي أمريكي أن يفعل غير ذلك؟ فإنني أصرح كذلك بأنني قتلت ضابطاً من الشماليين في عراك نشب بإحدى الحانات، ولما كُنت لم أحاسب على هذه الجريمة، فأكبر الظن أن أحد الضعفاء المساكين قد أدى الحساب عوضاً عني.

وكان يتحدث عن جرائمه ببساطة جعلت الدم يجمد في عروقها، وهمت بأن تُعبر عن فزعها واستنكارها، ولكنها تذكرت فجأة ذلك اللص الذي قتلته ووارته في حديقة (تارا) وأدركت أنها لا تستطيع أن تقف من

(بتلر) موقف الحكم ويداها مُلطختان بالدماء كيديه. قال:

- ما دمت أريد الخلاص من الأعباء التي تُثقل ضميري، فإنني أقول لك فيما بيننا، وأرجو ألا تبوحي بذلك لأحد، إن الذهب عندي، وقد أودعته أحد البنوك في (ليفربول).

- الذهب!!

- نعم.. الذهب الذي بذل الأعداء جهود الجبابرة لمعرفة مكانه أو مصيره، إن قعودي عن مُساعدتك لم يكن عن شُح أو نذالة كما توهمت يا سكارليت، ولكني كنت على يقين من أنني إذا كتبت لك صكاً اهتدى به الأعداء لمكان الذهب.

- هل تعني أنك... أنك استوليت حقا على ذهب الحكومة؟؟

- كلا.. إنني لم أستول على الذهب كله، فقد كان هناك ستون شخصاً يشتغلون مثلي بالتهريب، وهؤلاء قد أودعوا ذهبه في «ناساو» و«إنجلترا» و«كندا»، أما أنا فأملك ما يقرب من نصف مليون دولار، فتصوري يا سكارليت أن كل هذا المبلغ كان في متناول يدك لو لم تركبي رأسك وتسارعي إلى الزواج.

- نصف مليون دولار!!

أحست بما يُشبه أن يكون ألماً جُسمانياً عندما فكرت بهذا المبلغ

الجسيم، ولم تُقم وزناً لعبارته الساخرة الأخيرة، بل ولم تسمعها.. نصف مليون دولار!! هل يُمكن أن يكون لهذه الثورة الهائلة وجود في هذا العالم التعس الفقير؟؟ هل يُمكن أن تكون هذه الثروة كلها في حوزة رجل واحد لا يعبأ بها ولا يحتاج إليها، بينما هي لا ملك من دنياها غير زوج مريض، وهذا الحانوت المُظلم القذر؟! وهل من الإنصاف أن يملك وغد كهذا كل هذه الثروة، بينما هي بحملها الثقيل لا تملك إلا هذا القليل؟؟ أحست بأنها تمقته كما لم تمقته في أي وقت مضى، وقررت ألا تنفخ في خيلائه بتهنئته على توفيقه وحسن طالعه، وبحثت بذهنها عن كلمة تخدش شعوره، وتُعكر عليه صفو حياته، قالت:

- أتظن أنه من الأمانة أن تحتفظ بهذا الذهب!! فاستيلاؤك عليه يُشبه أن يكون سرقة، بل إنه سرقة بكل ما بالكلمة من معنى، وهذه ليست أخلاق النبلاء.

نظر إليها بحدة وهتف:

- وممن سرقت؟؟

فصمتت، وحاولت أن تعرف ممن سرق حقاً، ولم يسعها إلا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بأنه لم يفعل إلا ما فعله فرانك بنطاق ضيق، استطرد:

- إنني ربحت نصف هذه الثروة بعرق جبيني بمعونة أولئك الشماليين

الكرام الذين تطوعوا لخيانة وطنهم ببيع الأسلحة لأعدائه لقاء ربح يسير وربحت بعضها من القطن الذي اشتريته بثمن بخس بداية الحرب وبعضها من المضاربة بأثمان المواد الغذائية عندما اشتد الحصار، والباقي هو ذهب الحكومة، أو على الأصح هو ثمن قطنها الذي نجحت في تهريبه رغم الحصار، واستطعت بيعه في ليفربول بثمن لم يكن يحلم به أشد المُتفائلين. إنني اؤتمنت على هذا القطن لأبتاع بثمنه أسلحة وذخائر، وكانت الأوامر التي صدرت إليَّ في هذا الصدد صريحة واضحة، وهي أن أودع الثمن بنوك إنجلترا باسمي لتطمئن مصانع الأسلحة للتعامل معي، ولكن الأعداء ضيقوا الحصار علينا، وأصبح التهريب مُستحيلا فبقي الذهب مكانه، فماذا كان في مقدوري أن أفعل؟! هل كان يجب أن أسترد الذهب وأعود به كالأحمق لكي يستولي عليه الشماليون؟ وهل كان الذنب ذنبي في أن الحصار اشتد على موانينا!! أو في أننا خسرنا الحرب؟! لا أنكر أن الذهب ذهب حكومة الجنوب، ولكن أين حكومة الجنوب؟! حدثيني، لمن يجب أن أعطي هذا الذهب؟! إنني أكره أن يقول الناس عني أنني سرقت

وأخرج من جيبه لفافة تبغ، وأشعلها وراح يُدخن ببطء، ويرقبها بقلق مصطنع، كأنه يُعلق على رأيها كل الأهمية.

نظرت إليه سكارليت من ركن عينها، وقالت لنفسها: "قبحه الله، إن الإنسان لا يستطيع أن يقارعه الحجة بالحجة". أجابته:

- بمقدورك أن توزع هذا الذهب على الفقراء وذوي الحاجة، لقد ذهبت حكومة الجنوب، ولكن كثيراً من عائلات الجنوب تتضور جوعاً. ولا تجد مأوى.

فقهقه ضاحكاً وقال:

- ما أظرفك عندما ترتدين ثوب الرياء!! قولي الصدق دائماً يا سكارليت لأنك لا تُجيدين الكذب، ولأن الإيرلنديين أتعس الكاذبين بالعالم إنك لم تُقيمي وزناً قط لقضية الوطن ولا شك أنك لا تُقيمين وزناً كذلك للجياع والعراة من أهل هذا الوطن، وإنني واثق من أنك كُنت تصرخين احتجاجاً، لو أنني اقترحت التبرع بهذا الذهب، ولم أبدأ باعطائك منه نصيب الأسد.

فقالت في برود وكبرياء:

- إنني لست بحاجة إلى نقودك.

- بل أنت بحاجة إليها، ولو لوحت لك الآن برزمة من ورق النقد لانقضضت عليها انقضاض الأسد على فريسته.

- إذا كنت ترمى لإهانتي والسخرية من فقري، فإنني أوثر الانصراف.

همت بالوقوف، ولكنه أسرع إليها وضغط كتفها وأعادها لمكانها وقال ضاحكاً:

- كم أود لو تروضين نفسك على سماع الحقيقة دون أن تغضبي وتثوري!! أنت لا تحفلين بذكر الحقائق عن غيرك من الناس...

إنه لم يأت للتهكم عليها والسُخرية منها، وإنما أتى ليستوثق من أنها وفقت للمبلغ الذي ذهبت في طلبه لحد التفريط في سُمعتها وشرفها. عرفت الآن أنه ما كاد يُطلق سراحه حتى أسرع إليها، وإن لم تبد عليه مظاهر الإسراع، لكي يُقرضها المبلغ إذا كانت لا تزال بحاجة إليه، وأيقنت أنها لو صارحته بهذه الحقيقة التي اكتشفتها لأنكرها ومضى يُهينها ويسخر منها.. حقا إنها لا تفهم هذا الرجل، فلعله يحبها حُبا لا تطوع له كبرياؤه أن يعترف به، أو لعل له غرضا آخر.. من يدري؟

- كلا، الذئب لا يعود الآن على باب (تارا)، لقد حصلت على النقود.

- إنني واثق من أنك لم تحصلي عليها بغير عناء!! هل قدرت على ضبط شعورك حتى وضع فرانك خاتم الخطوبة في إصبعك؟

لم يسعها إلا أن تبتسم لهذا التلخيص الصادق لسلوكها، قال:

- الآن.. حدثيني عن فقرك.. هل خدعك الوحش فرانك فيما يتصل بمركزه المالي؟ إذا كان ذلك فإنه يستحق التأديب لأنه غرر بامرأة ضعيفة لا نصير لها. اصدقيني القول القول يا سكارليت، يجب ألا تكتمي عني شيئاً، إنني أعرف أفظع مساوئك.

- كلا.. إنه لم يخدعني.. ولكن إننا نكون أحسن حالاً إذا استطاع

تحصيل ديونه، ولكنه لا يُطالبهم. ويقول الرجل الكريم يجب ألا يحرج رجلاً كريماً مثله، وهكذا قد تنقضي شهور وربما أعوام قبل أن نسترد نقودنا.

- ماذا في ذلك؟؟ ألا تجدين ما تقتاتين به.. إلى أن يسترد نقوده؟

- نعم... ولكني بحاجة إلى هذه النقود في الحال.

تذكرت مصنع الخشب؛ فسألها:

- لماذا؟؟ هل من ضرائب جديدة؟؟

- وهل ذلك من شؤونك؟؟

- طبعاً، لأنك تتأهبين لأن تسأليني قرضاً، وأنا على استعداد لأقراضك دون حاجة لذلك العرض الذي اقترحته عليَّ في السجن، اللهم إلا إذا أصررت.

- إنك أبشع.

- كلا.. إنما أردت فقط أن أطمئنك من هذه الناحية، أنني على استعداد لإقراضك المبلغ الذي تُريدين بشرط أن أعرف مصيره، وأظن أن ذلك من حقي.

- هذا شأني الخاص.. لن أخبرك.

- كيف ستُخبرين زوجك عن مصدر المال؟!

- سأخبره بأنني بعت قرطي، وسأعطيك هذا القرط كرهينة.

- لا حاجة بي إليه.

- إني زاهدة فيه، ولا أريده، وأوثر النقود عليه.

فصاح في ضجر:

- يا إلهي.. ألا تفكرين في غير النقود؟!

حولت إليه عينيها الخضراوين، وأجابت في صراحة:

- كلا، لقد وجدت أن النقود هي كُل شيء بالعالم، وإني أشهد الله على أنني اعتزمت ألا تفرغ يدي منها، سأثرى يوماً ما، وآكل من الطعام ما أشتهي وأرتدي من الثياب ما أريد، ولن أدع أحداً يأخذ تارا، ولن يعرف ولدي معنى الجوع، ولن تموت أسرتي جوعاً، هكذا اعتزمت، وإنني مُصممة على عزمي، إنك لا تفهم لأنك كلب أناني، ولم تر بعد إنساناً يُريد أن ينتزعك من بيت آبائك ليقذف بك لعرض الطريق، ولم تُعان البرد والجوع والعمل بالحقل حتى يوشك ظهرك أن ينقصم.

فقال في هدوء:

- إنني عملت في جيش الجنوب ثمانية شهور، ولا أعلم أن هناك معهدا

أفضل منه في تخريج الجياع.

- جيش الجنوب؟! وهل تعلمت في جيش الجنوب أن تحرث الأرض وتجني القطن؟! هل... ولكن لماذا تضحك مني؟!

فألقى بيده على يدها، وقال بصوت أجش:

- إنني لا أضحك منك، ولكني لا أتمالك في الضحك كُلما رأيت الفارق العظيم بين ما أنت الآن، وما كنت منذ عهد غير غير بعيد؟ إنني ما زلت أذكرك كما رأيتك لأول مرة ببيت جون ويلكس، كنت ترتدين ثوباً حريرياً أخضر، وكُنتِ تخوضين لركبتيك بين عشاقك والمولعين بك، وإني أراهن على أنك ما كنت يومذاك تعلمين كم «سنتا» في الدولار... كان همك الوحيد أن توقعي (إشلي) في حُبك..

جذبت يدها من يده بعنف وقالت:

- إذا أردت ألا نختلف فدع الحديث عنه أنت تعلم أنك لا تستطيع أن تفهمه.

- أما أنت فتفهمينه ككتاب مفتوح، أليس كذلك؟ كلا يا سكارليت إذا كُنت سأقرضك مالاً فأحتفظ لنفسي بحق التحدث عن إشلي ويلكس بالأسلوب الذي يروقني، وإني أنزل عن ربح نقودي لقاء هذا الحق، لأن هناك أشياء كثيرة عن هذا الشاب أريد أن أعرفها.

- لا أود أن أقحمه في حديثنا.

- بل يجب، إن النقود في يدي، فيجب أن تكون الكلمة لي عندما تصيبين ثروة سيكون في مقدورك أن تتحدثي فيما تريدين، لا فيما يُريد الآخرون، قد يُخيل إليَّ أنك ما زلت مولعة به.

- كلا.

- هذا واضح من اهتمامك بالدفاع عنه.

- إنني أدافع عن جميع أصدقائي إذا استهدفوا لنقد لا مُبرر له.

- لندع هذا الآن.

وفكرت في إشلي الذي كان في مقدوره أن يُثنيها عن عزمها.. وحبست أنفاسها.. نعم.. كان في مقدوره أن يُثنيها، فلو أنه قال لها كلمة واحدة حلوة تُنعش آمالها ما فكرت قط في زيارة بتلر، ولكنه لم يتحدث إليها عن الشرف، ولا شيء عن الشرف. إن بتلر على حق!! إن إشلي لم يكن يعلم بنواياها.. إنه أشرف وأنبل من أن يسمح لذهنه بأن ينسب إليها مثل النية الأثيمة التي انتوتها، وهذا الرجل لا يُريد إلا يقوض حُبها، وهدم إذن ما تحرص عليه، وتعتز به، وفي مُستقبل الأيام عندما يقف الحانوت على قدميه ويعطي المصنع ثماره ستجزي بتلر عن محاولاته الأثيمة لإذلالها، وتحطيم قلبها.

الفصل الثامن عشر

تأوه فرانك، وأنَّ أنين الحيوان المذبوح، ولعن الساعة التي تحدث فيها لسكارليت عن مصنع الخشب، وكأنما لم يكفها أنها باعت الكابتن بتلر ـ من دون الناس جميعاً ـ قرطها الثمين، وابتاعت المصنع بغير علمه ومشورته، بل راحت كذلك تُهيمن على شؤون المصنع دونه، كأنها لا تثق به ولا تطمئن إلى حزمه، وحُسن إرادته. من ذا الذي سمع بشيء كهذا؟؟ امرأة تعمل في قطع الخشب وصقله وبيعه؟؟ إنه لم يسمع قط بأن في (أتلانتا) أو بأية مدينة بالعالم كله سيدة تعمل في ميدان الصناعة والتجارة على قدم المساواة مع الرجال. وكان يعلم أنها تتخلف عن المصنع يوماً أو يومين بالأسبوع لتطوف بالمتاجر لعرض أخشابها، وفي تلك الأيام كان يتمنى لو باستطاعته أن يغوص في الأرض، أو يتوارى في أحد أركان الحانوت. فلا يراه أحد. كان الناس جميعاً يتحدثون عنها، وربما كانوا يتحدثون عنه كذلك لأنه ترك لها الحبل على الغارب، وسمح لها بأن تجلب العار على بنات جنسها جميعاً، وزاد الطين بلة وجود الكابتن بتلر، وتردده على بيت العمة (بيتي)، وكان فرانك يمقته أشد المقت مُنذ تعامل معه قبل الحرب واصطحبه لمزرعة (أوكس) وقدمه فيه لأصدقائه. كان يمقته لجرأته ووقاحته، وينفر منه لجشعه ومضارباته في أقوات الناس أبان الحرب، ويحتقره لقعوده عن حمل السلاح في سبيل الوطن.

وكانت سكارليت تبغض الأطفال، ولا تكتم زهدها فيهم، ولكن

الأطفال عادة لا ينتظرون حتى يُدعوا. لذلك كان غضب سكارليت ورعبها لا حد لهما، حين أحست ذات يوم بالجنين يتحرك في أحشائها.

أصبحت سكارليت ومركبتها من المناظر المألوفة بشوارع أتلانتا، وكانت تقضي بعض ساعات النهار بالمصنع، فتُشرف على العُمال، وتُضيق الخناق على جونسون بقدر ما تستطيع، ثُم تعود للمدينة، وتطوف بالنجارين والمقاولين والبنائين وتتقدم بجرأة لكل شخص تعلم أنه يعتزم بناء دار أو حانوت، وتلجأ لكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة لاجتذاب العملاء، والقضاء على منافسيها، فتتوسل تارة بأنوثتها، وضعفها، وسحر عينيها، وتزعم تارة أخرى أن بضاعتها أجود ما في السوق، وتحمل على مُنافسيها، ولا تتورع عن الطعن في ذممهم والانتقاص من نوع بضاعتهم، وكان في طليعة منافسيها رجل يملك مصنعا في طريق (ديكاتور) وقد حاول هذا الرجل أن يُقاتلها بسلاحها، ويُميط اللثام عن كذبها وخداعها فكانت محاولته وبالاً عليه إذ استنكر الناس من رجل أبيض أن يحمل تلك الحملات القاسية على امرأة ضعيفة تنتمي لأسرة كريمة.

وعرفت سكارليت أساليب الرجل وعلمت بما يقول فيها وصممت في كبرياء وأنفة، ثُم حانت لها الفرصة فجمعت قواها، وتحولت إليه وإلى عملائه، وباعت أفضل بضاعتها بأبخس الأثمان، لتدلل على قناعتها، وطهارة ذمتها، وكانت النتيجة أن أفلس الرجل وابتاعت سكارليت مصنعه بالثمن الذي عرضته، وما أن استولت سكارليت على مصنع منافسها حتى برزت لها مشكلة البحث عن رجل أمين يُشرف على إدارة المصنع الجديد

لم تكن رجلا من طراز جونسون، فقد كان هذا التعس رغم أنها ضيقت الخناق عليه لا يزال يسرقها ويبيع خشبها دون علمها، قالت لنفسها: "ليس أيسر من العثور على رجل أمين، فما أكثر الرجال الذين يتضورون جوعاً في الشوارع بلا عمل، وكل يوم يستقبل فرانك بحانوته عاطلاً أو عاطلين، ممن قاتلوا معه في الحرب"، ولكنها لم تلبث أن عدلت عن هذا الرأي وقالت: "إن الحرب قد وضعت أوزارها منذ عام، والرجل الذي يوفق إلى عمل خلال عام هو رجل لا يصلح لشيء"، وتفاقمت المشكلة حتى أصبحت شغلها الشاغل، وكانت تُريد أن تُنظم أعمالها قبل أن يتضخم بطنها وتعجز عن العمل، ووقع اختيارها آخر الأمر على ريئيه أيزلنج، ابن مدام إيلزنج وشقيق (فاني).

قالت لنفسها: "إنه غبي لا يعرف الألف من الياء، ومن المؤكد أنه دون جونسون خبرة ودربة، ولكنه أمين على الأقل، ولن يسرقني".

كانت تطلب الأمانة في الغير، بقدر تفريطها في أمانتها. لم تر في الدنيا بخيلاً أحرص منها على مالها، فهي تحصي مالها مراراً كل ليلة، وتحمل منه حول جسدها ما تستطيع حمله، وتخفي الباقي تحت حجر في الموقد، أو بين صفحات الكتاب المُقدس، وتُرسل بعض أرباحها (تارا) في كل شهر، وترد إلى (بتلر) بعض ماله، وتكدس الباقي، وانقضى الربيع، وأقبل الصيف وتضاعف عملها، وزاد تضخمها، وفي تلك الأيام الحافلة بالقلق والمتاعب لم يكن في دنياها إلا رجل واحد يفهمها ويعطف عليها وتستطيع الركون إليه، وذلك هو رايت بتلر كان يتوارى عن عينيها أياماً وأسابيع في

رحلات غامضة لمدينة (نيو أورليان)، وعلى الرغم من أنه كان يلزم الصمت بصدد هذه الرحلات فإنها كانت تشعر شعوراً مُهماً لا يخلو من الغيرة بأن لرحلاته صلة بإحدى النساء، وخلال إقامته بأتلانتا كان يقضي وقته بلعب الميسر أو عند «فلورانس واتلنج» وهي غانية ذائعة الصيت يختلف لحانتها الأثرياء من فتيان العصر، وقد كف بغتة عن زيارتها في بيت العمة بيتي كى لا يخدش شعور فرانك بتردده على امرأته وهي بذلك الحال من الحمل، ولكنه كان يُصادفها بعودتها من المصنع فيشد جواده وراء مركبتها ويجلس معها في المركبة. وكانا دئماً يفترقان قبل الوصول للمدينة ولكن نبأ هذه المقابلات ما لبث أن ذاع في (أتلانتا)، وأضاف الناس جريمة جديدة لقائمة الجرائم الكثيرة التي ارتكبتها سكارليت بحق التقاليد والمُجتمع.

فطنت سكارليت إلى أن هذه المقالات لا يُمكن أن تكون من عمل الصدفة وحدها، ولاحظت أنها تتوالى وتتعدد بالأسبوع الواحد، وأصبحت يومية بالفترة التي تفاقمت فيها حوادث اعتداء الزنوج على السيدات البيض، وعجبت لماذا يتهالك عليها الآن وهي في تضخمها أبعد ما تكون عن الفتنة. ومهما يكن السبب، فإنها كانت تُرحب بقدومه وتشعر بأن أحاديثه تُنعشها وتُنشطها وتفعل في حواسها فعل الخمر التي تعلمت في المُدة الأخيرة أن تختلس منها جُرعات، لكي تهدئ أعصابها وتنسى همومها ومتاعبها.

الفصل التاسع عشر

قررت أن ترحل إلى (تارا) لتقضي بها شهرين عندما يقترب موعد الوضع ويتعذر عليها العمل في (أتلانتا)، ورحلت، ولكن على غير ما كانت تشتهي، وقبل الموعد الذي حددته فقد جاءتها رسالة من ويليم ينبئها فيها بوفاة «جيرالد أوهارا» واستقبلها (ويليم) في المحطة، وعاونها على الصعود إلى ذات المركبة التي فرت بها من (أتلانتا) إلى (تارا) منذ عامين. وبدأت المركبة رحلتها إلى (تارا)، ولم ينطق (ويليم) بكلمة. وحمدت له سكارليت هذا الصمت. وشملها سكون الحقول. وفعل في نفسها المضطربة فعل التوبة في نفس المذنب. وعجبت كيف استطاعت أن تحيا كل هذه الشهور بعيداً عن هذا النسيم البليل وهذه الحقول الخضراء وهذا السكون الشامل.

قال ويليم فجأة:

- أنت الآن رأس الأسرة يا سكارليت، وبودي أن أستطلع رأيك في أمر ما

- ما هو يا ويليم؟

- هل تُقرين زواجي من سولانج؟

فبُهتت، ونظرت إليه، كأنها لا تصدق أذنيها، لم يخطر ببالها قط

أن تجد سولانج زوجاً بعد أن فقدت فرانك ههتفت:

- يا إلهي.. ماذا تقول؟

- هل توافقين؟؟

- طبعاً، ولكن.. إنك أدهشتني.. لقد كُنت أعتقد أنك شغوف بكارين.

فتنهد وأجاب:

- هذا صحيح.. ألم تقبلك زوجاً؟

- لم أسألها.

- أنت معتوه ولا شك، سلها يا رجل. إنها خير لك من عشر من أمثال سولانج.

فقال في حزن:

- إنني لم أسألها، لأنني أعرف جوابها سلفاً. لما نزلت بها هذه الكارثة الجديدة قررت أن تدخل الدير في (شارلستون).

- أنت تمزح بغير شك.

- كنت أعلم أن النبأ سيُدهشك ولكنه الحقيقة، وإني أطلب منك ألا تلومي كارين. ولا تسخري منها، بل دعيها تذهب فذلك كُل ما تريده لقد تحطم قلبها.

لم تنم سكارليت بتلك الليلة إلا قليلاً، وما أن بزغ الفجر حتى

غادرت فراشها، وجلست على مقعد أمام النافذة، واعتمدت رأسها المُتعب بين كفيها وأرسلت بصرها لحقول القطن المُترامية خلف الأجران، وكان كُل شيء هادئاً ساكناً مُنعشاً، وبعد أن ووري جيرالد التُراب جوار هيلين بكت سكارليت طويلاً لبكاء كارين وبورك، حمل كُلِ منهم أحزانه لغرفته وانتهزت سكارليت هذه الفرصة للتحدث إلى إشلي، نظرت إلى نفسها بالمرآة، وانكمشت لمجرد التفكير في أنها ستُقابله، وبين أحشائها طفل رجل آخر، وكانت تُحبه، وتعلم أنه يُحبها وقد جاء هذا الطفل غير المرغوب فيه ليكون رمزاً حياً لخيانتها، وعبثها بقلبه، ولكنه سيفهم، ويُقدر بغير شك.

ووجدته في غرفته يكتب رسالته لأخته (هانيا)، ولما أبصر بها أطرق برأسه، وراح يعبث بالقلم، ولم يكن مُنذ قدومها قد بادلها غير التحية، وكلمة عزاء، ولم ينظر في عينيها قط ، وهو لا ينظر إليها الآن ولا يُحول عينيه عن يديه، كأنه يراهما لأول مرة. فقالت له:

- إنني بحاجة إليك في (أتلانتا) يا إشلي، فقد تنقضي بضعة شهور قبل أن أسترد نشاطي وحريتي، وأشرف على أعمالي، ولعلك ترى أنني... أنني...

- أوه يا سكارليت.. بحق السماء.. ألا تُجنبينني الحديث في هذا؟؟

ونهض إلى النافذة وأطل منها، قالت في ضراعة:

- أمن أجل هذا ترفض النظر إليَّ؟؟ إنني أعلم أن منظري...

فتحول إليها بسرعة، وقال وعيناه تتألقان:

- لا محل للحديث عن منظرك، أنت تعلمين أنك دائماً فاتنة في نظري.

فامتلأت نفسها سعادة وغبطة، واغرورقت عيناها بالدموع قالت:

- هذا كرم منك، فقد كُنت أشعر بالخجل من أن تراني في...

- تشعرين بالخجل؟! ولماذا تخجلين؟ أنا الذي يجب أن أخجل ولولا بلادتي وجمودي، ما وقعت في هذه الورطة، وما خطر لك قط أن تقترني بفرانك. كان ينبغي ألا أدعك تبرحين (تارا) فتباً لي، وتباً لغباوتي، كان يجب أن أعلم أنك في يأسك لا تترددين في... في...

وتجهم وجهه، وأحست سكارليت بقلبها يثب بين ضلوعها ترى هل ندم على أنه لم يفر بها؟؟ استطرد:

- كان أقل ما يجب عليَّ عمله، أن أسطو أو أقتل لأحصل على قيمة الضريبة.

- كان من الضروري لي أن أرحل على كُل حال، فإنني ما كانت لأسمح لك بأن تفعل شيئاً كهذا، ومهما يكن الأمر فقد انتهى كل شيء الآن.

فأجاب في بطء ومرارة:

- نعم.. انتهى كل شيء الآن، وبعت نفسك لرجل لا تحبينه وحملت طفلاً لهذا الرجل، لكيلا أموت مع أسرتي جوعاً.

كان صوته ينم عن ألم من جرح داخلي لا يزال ينفث دماً،

وأحست بموجة يأس تجتاح حواسها وتملأ عينيها بدموع الخجل، ولاحظ إشلي خجلها، وانكسار قلبها، فلانت صلابته، ونظر إليها مُشفقا وهتف:

- لا تحسبي أنني ألومك يا سكارليت، كلا بحق السماء، أنت أشجع امرأة عرفتها، وأنا لا ألوم إلا نفسي.

أطل من النافذة مرة أخرى، ولزمت سكارليت الصمت وقتاً طويلاً وانتظرت أن تعاوده تلك الرقة التي تحدث بها مُنذ لحظة عن فتنتها، وأملت أن تسمع منه كلمة حلوة تدخرها، كانت طيلة الشهور الأخيرة تعيش بذكرياتها، وتغذي نفسها بما ادخرت من أحاديثه حتى أتت على ذخيرتها.. إنه يُحبها، وهذا واضح في كل قسمة من قسمات وجهه، وفي كل كلمة لوم وجهها إلى نفسه، وفي نفوره من أنها تحمل في أحشائها طفلاً لرجل آخر، ولكنها تُريده على أن يعبر عن شعوره بالألفاظ، تُريد أن تجتذبه لاعتراف شامل، ثُم تذكرت وعدها له بالحفل بألا تفرض عليه حُبها فرضاً، وأدركت أن آهة حب واحددة تفلت من بين شفتيها أو نظرة حنين واحدة إلى ساعديه وقبلاته، تكفي لإفساد خطتها، وتشديد عزمه على الرحيل إلى (نيويورك). قالت:

- لا تلم نفسك يا إشلي، كيف يُمكن أن يكون الذنب ذنبك؟؟ أنك ستأتي معي إلى (أتلانتا) لمعاونتي.. أليس كذلك؟

- كلا...

فقالت بصوت يرتجف:

- ولكني أعتمد عليك يا إشلي، إنني بحاجة إليك، وفرانك في شغل بحانوته، ولا قدرة له على مساعدتي، ولا أدري كيف أجد رجلاً آخر إذا رفضت أنت، كل رجل نشيط بأتلانتا يشغل مركزاً والعاطلون لا يصلحون لشيء.

- لا فائدة يا سكارليت.

- تعني أنك تُؤثر الرحيل لنيويورك والتعاون مع الأعداء على الرحيل لأتلانتا؟؟

فقطب حاجبيه وسأل:

- من قال لك أنني أنوي الرحيل إلى «نيويورك»؟

- ويليم.

- نعم، إنني اعتزمت الرحيل لقد كتب لصديق عرفته برحلته لأوروبا يعرض عليَّ عملاً في أحد بنوك «نيويورك»، وذلك خير لنا جميعاً، إنني لن أفيدك، لأنني لا أدري شيئاً في تجارة الأخشاب.

- ولكنك لا تدري من أعمال البنوك أكثر مما تدري في تجارة الأخشاب، وسيكون مُرتبك عندي أضعاف مرتبك في البنك.

فاهتز في مكانه وتنبهت سكارليت إلى أنها قد خدشت شعوره، وقالت شيئاً ما كان يجب أن تقوله.. أجاب:

- لا أريد مرتباً أكثر مما يستحقه عملي، وقد حان الوقت الذي يجب

أن أقف فيه على قدمي وأجعل فيه من نفسي إنساناً نافعاً، وحسبي أنني كُنت عالة عليك حتى الآن.

- إنني أعرض عليك نصف أرباح المصنع يا إشلي، وسيكون في مقدورك أن تقف على قدميك لأن العمل عملك، ولك فيه نصيب.

- ذلك لا يغير من الواقع شيئاً، لأنني لم أشتر هذا النصيب بمالي وسأحصل عليه كهبة، وحسبي ما أصبت من هباتك يا سكارليت.

- إنك لم تأخذ شيئاً بغير مقابل، بل كنت تؤدي عملاً.

قال بسخرية:

- هذا صحيح.. إنني الآن أجيد قطع الخشب وحرث الأرض.

فصاحت في يأس والدموع تملأ عينيها:

- ماذا بك يا إشلي؟ ماذا حدث لك منذ افترقنا!؟ ما هذه المرارة التي تملأ نفسك؟

- ماذا حدث لي!؟ حدث لي شيء عجيب يا سكارليت. إنني فكرت ولم أكن أفكر قبل رحيلك، كنت قانعاً بالطعام والشراب والمأوى، ولما رأيتك تذهبين إلى «تارا» وعلى كتفيك أثقال تكفي لقصم ظهور الرجال أحسست بأنني أقل من رجل بل وأقل من امرأة، وهو إحساس لا تطيب معه الحياة، وقد اعتزمت ألا أحيا به، فلقد خرج أكثر الرجال من الحرب بأقل مما خرجت، ولكن انظري إليهم الآن.. كلا..

كلا.. سأرحل إلى «نيويورك».

- ما دمت تريد الرحيل ابتغاء العمل، فلماذا لا ترحل إلى «أتلانتا»؟ إن مصنعي....

- كلا يا سكارليت، هذه فرصتي الوحيدة، وأملي الأخير، وإذا رحلت إلى «أتلانتا» وعملت بخدمتك ضعت إلى الأبد وأضعت آخر أمل لي بأن أقف وحدي على قدمي.

فنظرت في عينيه الصافيتين، وعمدت إلى أسلوب جديد، قالت:

- ولكن في مقدورك أن تبتاع المصنع مني تدريجياً. فتُصبح صاحبه و...

فصاح بحدة:

- كلا يا سكارليت، قُلت لك كلا، توجد أسباب أخرى.

ورمقها بنظرة عاصفة أخيرة، ثم اجتاز الغرفة مسرعاً، وهم بالانصراف، وأدركت سكارليت أن المعركة انتهت، وأنها خسرتها، وغلبها التعب، والحزن، واليأس، فانهارت أعصابها فجأة وصاحت: "أواه يا إشلي"

وتهالكت على مقعد، وبكت بصوت مسموع. وشعرت به يرتد عن الباب في الحال وسمعت صوته اليائس يردد اسمها، ودوى في أذنيها على أثر وقع خطوات تدنو من الغرفة بسرعة، وسمعت ميلاني تصيح:

- سكارليت.. ماذا بك!؟ ستقتلين نفسك وطفلك.

ولكن سكارليت دفنت وجهها في المقعد وأمعنت في البكاء، وصاحت:

- إنه وضيع... إنه مقيت.

فهتفت ميلاني:

- ماذا صنعت بها يا إشلي؟ ماذا قلت لها؟ أتريد أن تقتلها؟!

فرفعت سكارليت رأسها، وصاحت وقد انسدل شعرها على كتفيها، وبللت الدموع وجهها:

- لا تلوميه.. إن من حقه أن يصنع ما يشاء.

فقال أشلي وهو شاحب الوجه:

- أصغي إليَّ يا ميلاني.. دعيني أوضح لك ما حدث، لقد فكرت سكارليت فعرضت عليَّ عملاً بأتلانتا كمدير لأحد مصنعيها.

فقالت سكارليت مُستنكرة:

- كمدير؟ إنني عرضت عليك نصف المصنع، ولكنه...

- ولكنني أنبأتها بعزمي على الرحيل لنيويورك.. بيد أنها...

أسندت سكارليت رأسها على كتف ميلاني، وأضاء بقلبها بصيص الأمل، وأيقنت أن ميلاني بما طُبعت عليه من إخلاص ووفاء وشدة حساسية سوف لا تتواني عن الانتصار لها، وذلك ما حدث، فقد تحولت

ميلاني إلى زوجها كحمامة وديعة غضبى وأهوت عليه بمنقارها لأول مرة في حياتهما الزوجية وصاحت:

- كيف رفضت سؤالها يا إشلي، بعد كل هذا الذي صنعته من أجلنا؟ لم يكن من الوفاء ولا من الشهامة أن ترفض، وأنت ترى الطفل في... إنها عاونتنا حين كنا بحاجة إلى العون؛ فكيف تتنكر لها الآن وهي بحاجة إلى معونتك؟

نظرت سكارليت لإشلي من ركن عينها ورأت الدهشة مسيطرة على وجهه، ودهشت سكارليت بدورها، وعجبت لغضبة ميلاني، وكانت تعلم أنها تُحب زوجها وترى فيه ملاكاً يسمو على أخطاء البشر وخطاياهم، فقالت ميلاني:

- كيف يُمكن أن تتردد يا إشلي، فكر فيما صنعته من أجلنا، ومن أجلي، لقد كدت أموت جوعاً على فراش الوضع لولاها، إنها، نعم، إنها قتلت رجلاً في ذودها عنا هل علمت بذلك قبلاً؟ إنها عملت في الحقل كالعبيد لإطعامنا، وكُلما تذكرت، أواه، أيتها العزيزة الباسلة الأمينة...

وقبلت رأس سكارليت بإخلاص، وحب.

قال إشلي:

- لا حاجة بك إلى تعداد ما فعلته من أجلنا.

- لا تنس يا إشلي أن تعاونك معها معناه كذلك أننا سنعيش في (أتلانتا)

مع أصدقائنا ومواطنينا، وإذا رحلنا للشمال وجدنا أنفسنا بين أعداء وطننا، واضطررنا أن نبعث ولدنا لمدارسهم، ليكون موضع هزء زملائه وسخريتهم.

هُنا نظر إشلي لسكارليت نظرة شاردة وقال بصوت لا يخلو من المرارة:

- سكارليت، إنني سأذهب لأتلانتا، ليس في مقدوري أن أناضلكما معاً.

ودار على عقبيه، وانصرف من الغرفة.

الفصل العشرون

واختارت ميلاني لإقامتها بيتاً في شارع (إيفي) خلف بيت العمة (بيتي). كان بيتاً صغيراً مُشيداً بالطوب، وقد خُيل إلى سكارليت أنه أبشع بيت وقع عليه بصرها، ولكنه كان في نظر ميلاني بيتها الخاص وأحب إليها من بيت (جون ويلكس) على روعته وفخامته، وأثث إشلي بيته من حانوت (فرانك)، وأبى إلا أن يكون أثاثاً رخيصاً مُتناهياً في البساطة، لكيلا يُثقل نفسه بالديون، وألم ذلك «فرانك» الذي كان يُحب «إشلي» ويحترمه ويود من كل قلبه أن يهبه أفخم الأثاث بغير ثمن. وأحزن سكارليت، وحز في قلبها أن ترى بيت إشلي بشعاً خلواً من الأثاث الأنيق والستائر الفاخرة..

ولكن ميلاني كانت ترى غير ذلك وتؤكد في غير خجل أنها فخورة به سعيدة فيه، وعلى الرغم من سعادتها ومرحها فإنها كانت هزيلة عليلة بادية الضعف والسقم، وكان الوضع قد كلفها صحتها، وأعقبه العمل الشاق الذي كانت تُؤديه في حقول تارا، فذهب بما بقي لها من قوة وصحة، وبدت نحيفة هزيلة حتى تكاد عظامها تبرز من بشرتها الرقيقة البيضاء، وكانت عيناها الواسعتان هُما كُل ما بقي لها، فلم يُغير الألم والحُزن والعمل الشاق من نقاوتهما وعذوبتهما، وكانتا عيني امرأة سعيدة، وامرأة تعصف حولها الزوابع ولا تقوى على قلقلة معدنها القوي، ولطالما نظرت إليها سكارليت بغيرة وحسد وعجبت كيف استطاعت أن تحتفظ

بصفاء هاتين العينين. ماذا قال بتلر مرة عن عيني ميلاني؟؟ آه.. نعم.. قال إنهما تشبهان حسنتين في عالم سيء، وقال عن عينيها هي، أنهما عينان جائعتان كعيني القطة.

ما أن استقر المقام بإشلي في بيته الصغير، حتى أرسل إلى أخته «هانيا» في «ماكون» يدعوها للإقامة معه، فلبت الدعوة على عجل.

لم تكن قد رأته منذ شهور، فاغتبطت لقدومه، وجرى ذهنها فجأة إلى إشلي، وأحست بأن شيئاً خاصاً به يُقلقها ويُثقل ضميرها، وأقبل عليها بتلر، فوضعت على شفتيها أعذب ابتسامة، وحمدت الله على أنها استردت رشاقتها بعد الوضع، ولن يجد بتلر سبيلاً للتهكم عليها، والسخرية منها. صاح وهو يضحك:

- طفل جديد؟.. حقاً إنها مُفاجأة ظريفة.

انحنى فوقها ورفع الغطاء عن وجه الطفلة، فاحمر، وجه سكارليت وغمغمت:

- لا تكن أبله، كيف أنت يا رايت، لقد طالت غيبتك هذه المرة.

- هذا صحيح.. دعيني أحمل الطفل ما أشبهه بأبيه لا تنقصه إلا اللحية والشارب.

- إنها طفلة.

- هذا أفضل، إن الذكور عبء ثقيل، لا تضعي ذكوراً بعد الآن يا

سكارليت.

فهمت بأن لديها كفايتها، وبأنها لن تضع ذكوراً ولا إناثاً، ولكنها أمسكت وبحثت في ذهنها عن موضوع آخر للحديث، سألته:

- هل كانت رحلة موفقة؟ أين ذهبت هذه المرة يا رايت؟

- ذهبت إلى «كوبا» و«نيو أورليان» وغيرهما.

أشعل لفافة تبغ، قالت:

- أنت تذهب كثيراً لنيو أورليان، ولا تقول لي لماذا؟

- إنني رجل كثير المشاغل، وأعمالي تدعوني إلى التردد على هذه المدينة.

فهتفت وهي تضحك:

- أعمالك؟ إنك لم تُؤد عملاً طيلة حياتك، أنت رجل خامل.. متى عدت من رحلتك؟

- عدت أمس، وقضيت السهرة في حانة «فلورانس وأتلنج» حيث يسمع الإنسان أنباء المدينة، إنها مستودع عام لأخبار الناس.

فصعدته بعينين متألقتين ورأت أن تُغير مجرى الحديث للمرة الثانية، قالت:

- ما بالك لا تنبئني بسر رحلاتك لنيو أورليان، هل تعلم ماذا يقول

الناس في هذه الرحلات؟... إنهم يقولون...

وترددت..

- ماذا يقولون؟

- يقولون أن لك عشيقة هناك، وأنك تنوي الاقتران بها أصحيح هذا يا رايت؟

كانت قد سمعت بذلك حقاً، وخالجها شعور بالغيرة لم تدر له سبباً، وحدجها بتلر بنظرة طويلة، حتى احمرت وجنتاها خجلاً، وقال:

- وماذا يضيرك لو صح هذا؟

- يسوؤني أن أفقد صداقتك.. هذا ما هنالك.

انحنت فوق طفلتها، وضحك بتلر قائلاً:

- قولي لأصدقائك الفضوليين، أنني إذا تزوجت، فلأنني لم أستطع الاستيلاء بوسيلة أخرى على المرأة التي أريدها، وأنا لم ألق بعد المرأة التي لا أرى مناصاً من الاقتران بها.

فاضطربت، وأحست بالحرج، وتذكرت يوم تحدث إليها بهذا البيت عينه، وقال لها أنه ليس بالرجل الذي يصلح للزواج، ولمح لأنه يريدها عشيقة له، ثم تذكرت موقفها معه في السجن، وأخجلتها الذكرى.. قال:

- ولكن دعينا من هذا الآن، ولنتحدث فيما أهم.

فانكمشت وتأهبت لاستقبال العاصفة، قال وهو يحدجها بعينين ضيقتين:

- عندما أقرضتك النقود لتبتاعي المصنع اشترطت أمراً ووافقت أنت عليه، وهذا الشرط هو ألا تستخدم النقود في إعالة إشلي ويلكس.

- إنني رددت إليك نقودك، والمصنع ملك لي الآن، ولا شأن لك بتصرفاتي.

- هل لك أن تُنبئيني كيف حصلت على المال الذي دفعته سداداً لدينك؟

- من بيع الخشب طبعاً.

- إنك ربحته من المصنع الذي اشتريته بمالي، وآويت إشلي ويلكس في هذا المصنع، أنت امرأة بلا شرف، ولولا أنك أوفيت دينك، لكان من دواعي سروري أن أطالبك به الآن فإذا عجزت طرحت المصنع للبيع بالمزاد العلني.

كان يتكلم في هدوء، ولكنها رأت شرر الغضب يتطاير من عينيه فسارعت لنقل ميدان القتال لأرض العدو، وقالت:

- لماذا تكره إشلي كل هذه الكراهة؟، كأني بك تغار منه.

فقهقه ضاحكاً وقال:

- ما بالك تضيفين الغرور للعار؟ أما زلت تتوهمين أنك أجمل امرأة في

المدينة، وأن كل إنسان يتفانى في حُبك؟

- لا أتوهم شيئاً، ولكني لا أجد تفسيراً آخر لهذه الكراهية التي تأكل قلبك.

- ابحثي عن تفسير آخر يا صغيرتي، لأنني أؤكد لك أنني لا أكرهه، ولا أحبه، ولا أشعر نحو الذين على شاكلته إلا بالشفقة والرحمة.

- الشفقة؟!

- نعم.. مع قليل من الاحتقار، والآن قطبي جبينك وانفشي ريشك، وقولي أنه يُساوي ألف وغد من أمثالي، وإنني لا أصلح لتنظيف حذائه، ومتى فرغت من ذلك أوضحت لك ما أعني.

- لا يهمني ماذا تعني.

- سأوضح ماذا أعني على كل حال، لأنني لا أحب لك أن تعقدي آمالاً كاذبة على غيرتي المزعومة، إنني أشفق عليه لأنه كان ينبغي أن يموت، ولم يمت، واحتقره لأنه لا يعلم ماذا يجب أن يصنع بنفسه بعد أن تهدمت دنياه، مثلما تهدمت حياتك.د

- أعلم أنني ضربت عرض الأفق بأكثر الفضائل التي نشأت بأحضانها، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟ لقد كنت أشعر بأنني أشق بقاربي الثقيل بحراً خضماً وسط عاصفة هوجاء، ووجدت أنه لكي يظل القارب طافياً فوق الماء يجب أن أُلقي إلى البحر بالأشياء التي تبدو أقل أهمية من سواها.

- هكذا ألقيت بالشرف والكبرياء والصدق والفضيلة والإحسان.. صدقت يا سكارليت، فهذه أشياء لا أهمية لها حينما يكون القارب مُشرفاً على الغرق، ولكن انظري حولك لأصدقائك تجدي أنهم إما قد وصلوا لشاطئ السلامة بقواربهم وأحمالهم أو قنعوا بالغرق وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم.

- تلك هي الحماقة، إن في الوقت مُتسعاً لكل شيء، ومتى ملكت ناصية الثروة، أمكنني أن أسترد ما فقدت.

- ليس من السهل إنقاذ الشُحنة الغارقة، وأخشى متى استطعت تعويم الشرف والصدق وسائر الفضائل التي قذفت بها للبحر أن تجديها وقد أتلفها الماء.

ونهض فجأة وتناول قبعته؛ فسألته:

- هل تريد الانصراف؟

- نعم، لأريحك من وجودي، إنني أتركك للبقية الباقية من ضميرك.

تريث قليلاً، ونظر للطفلة، وبسط لها إصبعه لتعبث به، وقالت:

- لا شك أن فرانك يختال الآن تيهاً وفخراً.

- طبعاً.

- ولا شك أنه يضع آلاف الخطط والمشروعات لمُستقبل طفلته.

- أنت تعرف جنون الرجال بالأطفال.

- إذن قولي له إنه إذا كان يُحب طفلته ويريد أن يسهر على مستقبلها بنفسه، فخير له أن يقضي سهراته في بيته.

- ماذا تعني؟

- لا أعني غير ما قلت.

- أيها المخلوق القذر.. أتتهم فرانك المسكين بأنه...

- بأنه يقضي سهراته مع النساء.

وانفجر ضاحكاً وصاح:

- يا إلهي.. كلا.. لست أعني هذا.

وانصرف وهو يقهقه.

الفصل الحادي والعشرون

ما أن استردت سكارليت قوتها ونشاطها حتى عادت لبسط إشرافها كاملاً على المصنعين، ولاحظت مع مرور الأيام أن الإنتاج في نقص مُستمر رغم الإقبال على طلب الخشب والتهافت على البناء والتعمير؛ فعكفت على دراسة عوامل نقص الإنتاج، واكتشفت أن الزنوج منذ أوحى إليهم الشماليون معاني الحرية والمساواة قد أضحوا عُنصراً مُتمرداً مغروراً لا يميل للطاعة ولا يصلح للعمل، فصحت عزيمتها على التخلص من جميع الزنوج في المصنعين، والاستعاضة عنهم بالسجناء، وكانت الحكومة راغبة في التخلص من حراسة السجناء وإطعامها، وقد أجازت لأصحاب الأعمال تشغيلهم والاستفادة منهم في مشروعات التعمير لقاء إطعامهم، ومنحهم أجوراً تافهة، فرأت سكارليت بما طُبعت عليه من الجشع أنها تستطيع مُضاعفة الإنتاج بإرهاق هؤلاء السجناء، وتشغيلهم لأقصى حد.

في يوم عاصف من أيام شهر مارس، تأهبت سكارليت لزيارة مصنعها الجديد في طريق «ديكاتور» للوقوف على نتيجة تجربتها الجديدة، وكان الخروج من المدينة في تلك الأيام ضرباً من المجازفة، فقد استفحل خطر الزنوج، وتعددت حوادث بطشهم وعداواتهم على السيدات البيض اعتماداً على حماية الشماليين لهم وشدهم أزرهم

وتصميمهم على مساواة الزنوج بالبيض بالحقوق والواجبات ومنحهم حق التصويت في الانتخابات، وكان الجنوبيون قد رفضوا القانون الذي وضعه الشماليون وكفلوا فيه للزنوج الحرية والمساواة وحق التصويت، وجاء هذا الرفض صفعة على وجوه الشماليين الغاضبين فأخذوا ولاية «جورجيا» بالشدة، واعتبروها في حالة عصيان وثورة، وأعلنوا فيها الأحكام العرفية، ولم يزدد الزنوج من كل ذلك إلا وحشية وعتواً، وكانوا يعلمون أن حراب الشماليين تسندهم. وأن الشماليين مُصممون على حمايتهم، ولو اضطروا إلى إثارة حرب جديدة ضد الجنوب الذي لا يزال يئن تحت ثقل الهزيمة..

وذهبت سكارليت للمصنع وعادت في المساء وقلبها مُفعم بالغبطة والأمل.. نعم.. لقد نجحت التجربة وأثمرت، وزاد الإنتاج للضعف، وقلت الأجور للنصف، وإذا استمر الحال لعامين أو ثلاثة فسيجتمع عندها من المال ما يُساعدها على ابتياع مصنع آخر. وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق، فأمرت عملاقاً من عمالها يدعى (سام) بأن يُرافقها في عودتها، وأبطأ العامل قليلاً ريثما يستبدل ثيابه، ولم تُطق سكارليت صبراً، فسارت بمركبتها بالطريق لأتلانتا، بأمل أن يلحق بها «سام»، وانصرفت للتفكير ولاحظت فجأة أنها بوسط الغابة وأن الشمس قد توارت والريح تعصف بأغصان الشجر وتئن أنيناً مُخيفاً، وإنها لا تبعد كثيراً عن خيام الزنوج، فأحست بالرعب والفزع وجذبت عنان الجواد، ونظرت وراءها تبحث عن «سام»، وبهذه اللحظة برز من وسط الغابة رجل أبيض ضخم

الجسم مُهلهل الثياب يتبعه زنجي فحل عريض الكتفين له صدر كث الشعر كالغوريلا، فساطت جوادها في الحال وأخرجت مسدسها من مخبئه، وأسرع الجواد، وأبصر الرجل الأبيض بالمسدس بيدها فرفع ساعديه فوق صدره، وقال مُستجدياً:

- قطعة نقود يا سيدتي.. إنني جائع.

فصاحت بصوت مرتجف:

- أفسح الطريق.. ليس معي نقود.

بأسرع من لمح البصر انقض الرجل الأبيض على الجواد وأمسك بعنانه، وصاح بالزنجي:

- اطرحها أرضاً، ربما كانت النقود في صدرها.

مر بها كل ذلك وكأنها في حلم، فأشهرت مسدسها بسرعة البرق، وهتف بها هاتف ألا تُطلق النار على الرجل الأبيض لكيلا تُصيب الجواد، ورأت الزنجي مُقبلاً على المركبة فصوبت إليه وأطلقت ولم تعرف هل أصابته أم أخطأته ولكنها أحست بيد قوية تنتزع المسدس من قبضتها ورأت الزنجي يثب للمركبة بجوارها وينقض عليها. ويجتذبها من المركبة ليطرحها أرضاً؛ فراحت تدفعه بيديها بكل ما أوتيت من قوة، وباللحظة التالية كانت أصابع الزنجي تعبث بثوبها، وتُمزق الثوب من العنق حتى الوسط. وشعرت بيد الزنجي تلمس صدرها، واستولى عليها ذُعر لم تشعر

بمثله قبلاً. وراحت تصرخ كأن بها مسا، صاح الرجل الأبيض:

- اكتم أنفاسها، واطرحها أرضاً.

ووضع الزنجي يده على فمها، فعضته بكل قوتها وعادت للصراخ، وحينئذ سمعت صوت (سام) وهو يصيح: "تشجعي يا سيدتي".

فذُعر الزنجي، ووثب من المركبة، وأهوت سكارليت على الجواد بسوطها، فانطلق يعدو بأقصى سرعته، ولما أحست بأنها أصبحت في مأمن، نظرت خلفها لمكان الحادث، ورأت الرجل الأبيض مُلقى على الأرض، وسام مُقبلاً نحوها، وكان الدم والعرق مُختلطين على وجهه، وسألها وهو يلهث: "هل أصابك أذى؟؟"، فلم تقو على الكلام، وانخرطت في البكاء.

الفصل الثاني والعشرون

في تلك الليلة عندما رافقها فرانك هي والعمة (بيتي) والطفلين والعم بيتر والمربية العجوز لبيت ميلاني، تركهم هناك، وانصرف مع إشلي، شعرت سكارليت بأنها تكاد أن تختنق غيظاً وغضباً، فكيف يتركها بهذه الليلة دون الليالي جميعاً لكي يشهد اجتماعاً سياسياً؟؟ ولم تنقض ساعتان على حادث الاعتداء عليها، فلا شك أنه وغد أناني، إنه لم يصغ لتفاصيل الحادث في هدوء كما لو كان يصغي لقصة مُسلية! وكانت تُريده أن يسمع قصتها باهتمام، وأن يُرفه عنها، ويثور غضباً ويُهدد بالانتقام أو فعل أي شيء بدلاً من الهدوء المُزعج والسكون المُهين.

اجتمعت سكارليت وميلاني وهانيا والعمة بيتي حول الموقد، وأخذت ميلاني تشتغل بالتطريز وتتحدث عن طفلها، وكفت فجأة عن الكلام، فقد استقرت عيناها على (هانيا) الشاحبة الوجه وبعينيها نظرة بُغض واستنكار، قالت لها ساخرة:

- كم يسرني أن أعلم لماذا ترمقينني هكذا؟ هل تغير لون وجهي؟

فلمعت عينا هانيا وأجابت:

- لن أحرمك من هذا السرور، اعلمي إذن أنني أكره أن تنتقصي من قدر رجل مثل مستر فرانك، ولو عرفت أن...

فصاحت ميلاني تزجرها: "هانيا!!"

قالت سكارليت: "أظن أنني أعلم بزوجي منك..."

فأجابت هانيا:

- الحق يا سكارليت أوهارا إنني لا أستطيع أن أهضم حديثك عن الحماية والعناية، ولو كان يهمك حقاً أن تكوني في حمى ومأمن إذن لما جازفت بنفسك في الطرقات وذهبت تذرعين شوارع المدينة وتتحدثين للذين يعرفونك والذين لا يعرفونك كمن تُريد استجداء إعجاب الرجال، إنك تستحقين ما حدث لك اليوم، ولو كانت هناك عدالة لوجب أن يكون جزاؤك أشد.

فصاحت ميلاني: "صه يا هانيا.. صه." فقالت سكارليت:

- دعيها تتكلم وتنفث سمومها، إنني أعلم أنها تبغضني، وأنها من الجُبن بحيث لا تجسر على إظهار بُغضها، أما عن إعجاب الناس الذي تزعم أنني أستجديه فإنها لو وجدت من يُعجب بها لسارت في الشوارع عارية الجسد.

ارتجفت هانيا من هول الإهانة، وصاحت:

- نعم إنني أبغضك، ولم يمنعني الجبن من إظهار بُغضي كما تتوهمين إنما منعني شيء لا تستطيعين فهمه، ومنعني أننا في زمن يتعين علينا فيه أن نتكاتف، وننسى أحقادنا التافهة لكي يرى أعداؤنا أننا شعب نبيل جدير بالحياة، ولكي يتسنى لهذا الوطن أن ينهض من كبوته، وينفض عنه غبار الهزيمة، ولكن الجشع أعماك عن اعتبارات الشرف

والكرامة فلم تتركي وسيلة للحط من قدر نسائنا وامتهان رجالنا بنظر الأعداء إلا توسلت بها، وها أنت بسلوكك الذي لا يصح أن يوصف إلا بأنه كان بصقة بوجوه الجنوبيين قد أغريت الزنوج بالاعتداء عليك ودفعت رجالنا لتعريض حياتهم للخطر في سبيل...

صاحت بها ميلاني في غضب:

- اصمتي.. إنها لا تعلم.. وقد وعدت...

وثبت سكارليت على قدميها، وهتفت في غضب:

- ما هذا الذي لا أعلمه؟؟

وما كادت تُلقى سؤالها حتى سمعت طرقاً شديداً بالباب؛ فساد الصمت لحظة ثم صاحت ميلاني:

- من هذا؟

أجابها صوت من الخارج:

- أنا الكابتن بتلر.

دخل بتلر وهو يُسرع الخُطا ووقف بباب الغرفة التي اجتمعت فيها النسوة، وقال مُحدثا ميلاني:

- أين ذهبوا؟ أنبئيني بسرعة.. إنها مسألة حياة أو موت.

نهضت هانيا بخفة القط قائلة:

- لا تصارحيه، إنه جاسوس يعمل مع الشماليين.

ولكنه تجاهلها قائلاً:

- أسرعي، فربما لا يزال ثمت وقت.

- ولكن.. ماذا حدث؟ وكيف علمت؟

- يا إلهي، إنهم كانوا موضع شُبهة منذ وقت طويل ولكنهم كانوا أذكياء أما الليلة، تسألينني كيف علمت؟ كُنت ألعب الورق مع ضابطين ثملين من الضباط الشماليين، فعرفت الحقيقة، لقد فطن الشماليون إلى أن أمراً لا بد أن يحدث الليلة فتأهبوا، ونصبوا شباكهم وسيقع الحمقى في الفخ وهم لا يشعرون.

ترنحت ميلاني في مكانها كمن أصيب بضربة ساحقة ووثب بتلر نحوها، وساعدها على الجلوس، وصاحت هانيا وهي تنظر نحو بتلر بغيظ واحتقار:

- لا تُنبئيه إنه يستدرجك إنه جاسوس، أما سمعته يقول إنه كان يلعب مع الضُباط الشماليين؟

للمرة الثانية تجاهلها بتلر، ولم يحول بصره عن بصر ميلاني. قال بإلحاح:

- خبريني.. أين ذهبوا؟ هل يجتمعون في مكان معين؟

لاحظت سكارليت رغم حيرتها وذعرها أن وجهه كالصحيفة البيضاء لا يُعبر عن شيء، أما ميلاني فلا بد أنها قرأت في وجهه ما حملها على الثقة به، قالت بصوت خافت مُرتجف:

- إنهم ذهبوا لخيام الزنوج في طريق ديكاتور، وهم يجتمعون عادة في بيت (سوليفان) الشيخ.

- شكراً لك.. سألحق بهم، وإذا جاءكم الشماليون فتجاهلن كل شيء.

دار على عقبيه، وانصرف مسرعاً، وساد الصمت وقتاً طويلاً إلى أن صرخت العمة بيتي في فزع:

- إذا جاءنا الشماليون؟ يا إلهي...

قالت سكارليت:

- ما معنى كُل هذا؟؟ سأجن إذا لم تنبئيني.

ابتسمت هانيا ابتسامة صفراء:

- تسألين ما معنى هذا؟! معناه أنك ربما تكونين سبباً في هلاك إشلي ومستر كنيدي، دعي ميلاني إنها توشك أن تفقد الرشد، وأظن أنه ينبغي علينا أن نُصارحك، ولكنك كُنتِ مشدوهة مُحطمة الأعصاب بعد الحادث الذي وضع لك، فلم نر من الحكمة أن نضاعف قلقك وانزعاجك لا سيما ونحن نعرف استنكارك للجمعية ونفورك منها.

- الجمعية؟؟ تعنين جمعية (كو ـ كلاكس ـ كلان)؟؟

وظهرت لها الحقيقة، وهتفت:

- لا شك أن إشلي ليس عضواً في الجمعية، وكذلك فرانك، إنه وعدني..

قالت هانيا:

- إن إشلي عضو فيها بغير شك، وكذلك فرانك، وكل رجل من الجنوب يستنكر عدوان الزنوج على النساء البيض، وتُحركه النخوة للأخذ بالثأر، كان يجدر بك أن تفخري بزوجك لا أن تنكمشي هكذا كما لو كان قد أتى أمراً إداً.

بهذه اللحظة طرق الباب مرة أخرى، ولكن بعنف، وحبس النسوة أنفاسهن وتبادلن نظرة ذُعر وفزع، وتكرر الطرق بشدة؛ فهمست ميلاني:

- افتح الباب يا بيتر؟!

كان القادم في هذه المرة ضابطاً من الشماليين على رأس ثلة من الجُند، وأحست سكارليت بشيء من الارتياح حين رأت الضابط وعرفته، وكان أحد أصدقاء بتلر، وقد ابتاع منها خشباً لمنزله، وعرفها الضابط بدوره؛ فرفع قبعته مُحيياً، وقال:

- طاب مساؤك يا مدام كنيدي؟؟ أين مدام ويلكس؟؟

هتفت ميلاني بكبرياء:

- أنا، هل لي أن أعرف سبب إزعاجنا بمثل هذه الساعة؟

- أريد أن أتحدث إلى مستر ويلكس، ومستر كنيدي.

- إنهما ليسا هنا.

وجلس الجندي منتظراً، وبعد قليل سمعن على الأثر وقع حوافر

جياد تدنو، ثم سمعن صوت بتلر وهو يترنم بأغنية «متى تنتهي الحرب القاسية»، ولكنه لم يكد يفرغ من المقطوعة الأولى، حتى اختلط بصوته صوتان صاخبان آخران، تدل نبراتهما على أنهما لرجلين ثملين، وتبادلت النساء نظرة دهشة وعجب حين عرفن فيهما صوت إشلي ورينيه إيلزنج، وأصدر الضابط أمراً وخف الجنود لإنفاذ أمره، وسمعت النساء جلبة وصخباً، يتخللهما صوت الضابط وهو يصيح:

- اعتقلوا هذين الرجلين.

وثبت ميلاني للباب وفتحته وصاحت:

- جئ به يا كابتن بتلر، يُخيل إلي أنك أثملته مرة أخرى حتى فقد صوابه.. جيء به.

أجابها الضابط:

- يؤسفني أن أخبرك بأنني مُكلف بإلقاء القبض على زوجك.

- مكلف بالقبض عليه؟! لماذا؟! لأنه ثمل؟! إذا ألقيتم القبض على جميع السكارى لوجب أن تمتلئ السجون بنصف رجال المدينة.

بعد جلبة وجدل دخل إشلي وهو يترنح بين رينيه وبتلر، وكلاهما ليس أفضل منه حالاً، وكان إشلي شاحب الوجه زائغ البصر مُشعث الشعر، وقد توارى حتى أخمص قدميه تحت معطف بتلر، ودخل الضابط بأثرهم، وبعينيه نظرة حيرة وشك، ونظرت سكارليت لميلاني، ثُم لإشلي، وهمت بأن تُصيح (إنه ليس إشلي)، ثُم أمسكت بغتة وعضت شفتها،

وأدركت أنها تشهد قطعة تمثيلية، ولكنها قطعة رائعة تتصل بالحياة والموت، صاحت ميلاني باشمئزاز:

- ألق به في هذا المقعد يا كابتن بتلر، وابرح هذا البيت بالحال، كيف تجسر على الظهور أمامي بعد أن أثملته إلى هذا الحد؟؟

فاستند بتلر على المقعد ليمنع نفسه من السقوط، وتحول للضابط وقال:

- انظر إليها كيف تشكرني، لأنني لم أترك زوجها يموت سُكراً على قارعة الطريق.

صاحت ميلاني:

- وأنت يا إشلي ألا تخجل من نفسك؟؟ ألا تستحي من زمالة وغد كهذا يثملك كل يوم حتى يفقدك وعيك؟؟

فغمغم إشلي، ورأسه يتمايل فوق كتفيه:

- إنني لست ثملاً جداً، يا ميلاني.

- احمله إلى غرفته كالعادة يا بيتر.

فقال الضابط:

- ولكن.. يجب أن أعتقلهما.

فأجابه بتلر:

- إنني لا أعلم أن السُكر جريمة.. يا إلهي.. إن هناك خمسين شاهداً

يقرون أنهما قضيا السهرة عند فلورانس.

- إذا ثبت هذا.

وهز الضابط كتفيه واستطرد:

- حسناً، سأتركهما الآن. إنما يجب أن يمثلا غداً أمام المُحقق، وستكون مسئولاً عنهما إذا تخلفا.

وانصرف الضابط، وبعد فترة بسيطة فُتح الباب، ودخلت هانيا يتبعها الدكتور (ديني) وهو شيخ مُتقدم في السن، عُرف ببراعته، وصدق وطنيته. فالتفت بتلر لسكارليت قائلاً:

- لا عمل لنا هُنا، هلمي بنا إلى الغرفة الأخرى.

لما وقفا أمام الموقد ونظرت سكارليت لوجهه الهادئ، وعينيه الغامضتين، عاودها ذلك القلق المُبهم الذي انتابها قبيل انصراف رينيه، فسألته:

- وهل ذهب فرانك إلى بيت فلورانس؟

- كلا.

صمت قليلاً ثم قال:

- رينيه ينقله الآن لبُقعة مُقفرة وراء بيت فلورانس.

لقد أصابته رصاصة قضت عليه، ولم يبزغ فجر اليوم التالي حتى كان حديث المأساة التي وقعت بالمساء على كل لسان، فعرف الناس

جميعاً كيف قتل فرانك كنيدي وتوماس والبورن، وكيف جرح إشلي وهو يُحاول الفرار بجثة فرانك، ولم يهون من نقمة الناس على سكارليت إلا علمهم بأنها فقدت زوجها وأنها تعلم بمصرعه، ولا تجسر على الاعتراف بأنها تعلم حتى تكتشف السلطات الجثة وتُخطرها، ولم يأت المساء حتى كان الناس جميعاً يتحدثون بالدور الذي لعبه الكابتن بتلر ولا يتمالكون أنفسهم من الابتسام، وبتلك الليلة لم يذق الدكتور ميد طعم النوم، وكان ناقماً على نفسه، وعلى بتلر، وعلى كُل إنسان صادفه في الطريق في ذلك اليوم وضحك في وجهه، وقد قال لزوجته المرة تلو الأخرى، إنه كان يُؤثر الاعتراف والشنق على التسليم بأنه قضى السهرة عند فلورانس والتنج، فأجابته زوجته:

- ولكن كل إنسان يعلم إنك لم تذهب إلى هناك لكي...

- إن الشماليين لا يعلمون، وسيسخرون مني، ثم إن هذه إهانة لك أيضاً أيتها العزيزة، لأنني كُنت دائماً أخلص لك

فابتسمت مدام ميد، وضغطت بيدها الهزيلة على يد زوجها وقالت:

- إنني أعلم ذلك، فإنني أوثر أن تكون قد ذهبت إلى ذلك البيت على أن تستهدف شعرة من رأسك للخطر.

فصاح الطبيب في ذعر:

- هل تدركين ما أنت قائلة يا مدام ميد؟

- نعم.. إنني فجعت في دارس، وفجعت في فيليب. ولم يبق لي سواك

وإني أوثر أن تجعل مقامك في ذلك البيت دائماً، على أن أفجع فيك.

صمت لحظة، ثُم انفجر غاضباً وصاح:

- كلا، إن الموت أحب إليَّ من أن أكون مديناً بحياتي لهذا الوغد بتلر، هذا الجبان الذي لم يحمل السلاح في...

فقاطعته مدام ميد:

- لقد أكدت لي ميلاني أنه حمل السلاح عقب سقوط أتلانتا.

- هذا كذب، إن ميلاني تصدق كل ما يقال لها، على أن الشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو لماذا فعل بتلر كل هذا؟ إنني أكره الخوض في أعراض الناس ولكنني سمعت لفظاً كثيراً حول صلته بمدام كنيدي.. ولا بد أنه فعل ما فعل من أجلها.

- لو كان الأمر خاصاً بسكارليت ما حرك ساكناً، بل لقد كان يسره أن يرى فرانك كنيدي مدلى من حبل المشنقة، إنني أعتقد أنه فعل كل هذا من أجل ميلاني.

- هل أفهم من ذلك أن بينهما...

- كلا.. ولكنني أعلم أنها تجله وتحترمه مُنذ سعى سعيه لمعرفة مكان زوجها عندما وقع في الأسر، وإنصافاً للرجل أقول إنني لم أره قط يبتسم بحضرة ميلاني تلك الابتسامة الوقحة التي تُغري المرء بأن يصفعه، إنه أمامها مثال الرجل الرقيق المُهذب، وأنا أعتقد أنه فعل ما

فعل لأجلها أولاً، وللدعاية ثانياً، إنه يعلم أننا نبغضه فأراد أن يضعكم بمأزق لتختاروا بين الاعتراف بزيارة بيت فلورانس، فتخجلوا أنفسكم ونساءكم أمام الشماليين، أو الاعتراف بالحقيقة، فتُشنقوا...

أنَّ الطبيب أنين الحيوان الجريح:

- إنني رأيته يبتسم عندما أدخلنا ذلك البيت.

أنهت سكارليت حديثها بسرعة وخلت بنفسها في غرفتها، ولم يُعكر عليها أحد خلوتها، وظن الجميع أن من الرحمة بها ألا يُزعجها أحد.

طرق الباب بتلر واقترب منها يُحدثها قائلاً:

- إنني مسافر في الغد؟ وإنني عاشق متهور لا أعرف كيف أسيطر على عواطفي، ولكن لعلي لم أعرف كيف أُعبر عن شعوري.

قبل أن تُدرك ما حدث كان قد جثا عند قدميها ووضع يده فوق قلبه، وراح يُردد على عجل:

- اصفحي عن جرأتي يا عزيزتي سكارليت، ولكن لا يريب أنه لم يغب عن إدراك أن صداقتي لك تطورت في العهد الأخير لعاطفة أعمق وأنبل وأكثر قداسة، أتسمحين لي بأن أسمى هذه العاطفة؟ آه.. إنه هو الحب الذي بعث في نفسي هذه الجرأة.

- انهض يا سيدي.. إنك تبدو مُضحكاً.

- كفى يا سكارليت، قولي إنك ستقترنين بي عند عودتي، أو أقسم أنني لن أبرح هذا المكان، سأحمل قيثارة وأترنم بأغنيات الحُب تحت نافذتك في كُل ليلة حتى أحملك على الاقتران بي إنقاذاً لسمعتك.

- رايت.. كُن عاقلاً.. إنني لا أريد أن أتزوج.

- لا تريدين؟ إنه ليس الحياء الذي يمنعك... فما هو السبب إذن؟

وفجأة وثب وجه إشلي في ذهنها، إنه هو السبب الحقيقي الذي يحول دون زواجها، إنها ملك لإشلي مُنذ الأزل وحتى الأبد، إنها لم تكن في يوم من الأيام ملكاً لشارل، أو لفرانك، ولا يمكن أن تكون لرايت.

- قولي نعم.. قولي نعم.. عليك اللعنة..

وكان وجهه مُلتصقاً بوجهها، وعيناه تُحدقان بعينيها حتى خُيل إليها أنها ترى فيهما العالم بأسره.. همست على غير وعي منها:

- نعم...!

لم يكن في نيتها أن ترضخ لإرادته، ولا أن تعد، ولكن قوة قاهرة هي التي سيرتها، وهي التي أنطقتها، ومال إليها كأنما يهم بتقبيلها، وأطبقت جفنيها ورددت رأسها إلى الوراء، وانتظرت، ولكنه نكص على عقبيه وتركها.

سافر بتلر وبعد مُدة ليست بطويلة بعث ببرقية مُقتضبة جاء فيها: "ميلاني مريضة.. عودي حالا".

وصل القطار مُتثاقلاً لأتلانتا ووجدت بتلر في انتظارها، روعها منظر وجهه أشد مما روعتها برقيته، هتفت في ذُعر:

- هل...

- كلا.. لم تزل على قيد الحياة.

ساعدها على الوثوب للمركبة وأمر السائق:

- إلى شارع «إيفي» بأقصى سرعة.

حاولت سكارليت عبثاً أن تقرأ ما يدور بخلده، سألته:

- ماذا بها؟ لم أكن أعلم أنها مريضة. لقد كانت بخير حال بالأسبوع الماضي فهل أصيبت في حادث؟ أواه يا رايت آمل ألا يكون الأمر خطيراً كما...

فأجاب بصوت هادئ:

- إنها تحتضر.. وتُريد أن تراك..

- ميلاني؟ كلا! هذا مستحيل. ماذا حدث لها؟

- إنها أجهضت.

فذُهلت، ولم تُصدق أذنيها:

- هل كُنتِ تجهلين أنها حامل؟

دخلت مُسرعة، ووجدت إشلي وهانيا والعمة بيتي بالردهة؛ فوقفوا

جميعاً وأشاحت هانيا بوجهها المُمتقع، واقترب منها إشلي وهو جامد الوجه زائع البصر كمن يمشي في حلم... همس:

- إنها تسأل عنك، ولم تكف عن السؤال عنك.

فنظرت إلى غرفة ميلاني، وسألت:

- هل أستطيع أن أراها الآن؟

- كلا.. إن الدكتور «ميد» عندها، يسرني أنك جئت يا سكارليت.

فقالت وهي تخلع معطفها وقبعتها:

- إنني جئت بأسرع ما استطعت ولكن لا شك أنها... قُل إنها أحسن حالاً يا إشلي! قل إنها أحسن حالاً...

لكنها قرأت الجواب في عينيه، وامتلأ قلبها بخوف عجيب أقوى من القلق وأقوى من الحُزن، وقالت لنفسها تُطمئنها: «ذلك مُستحيل، إن الأطباء يخطئون لا أستطيع أن أصدق، سأصرخ إذا صدقت، يجب أن أفكر في شيء آخر».

هتفت:

- إن ميلاني لم تُنبئني، ولو أنبأتني ما رحلت إلى «شارلستون»؟

نظر إليها إشلي بعينين مُعذبتين وأجاب:

- إنها لم تُنبئ أحداً يا سكارليت، ولم تُنبئك أنت خاصة لكيلا تهجريها، أرادت أن تلزم الصمت حتى تطمئن، ثُم تفاجئكم بالنبأ وتضحك،

وتقول لكم أن الأطباء كثيراً ما يُخطئون...

كانت تصبو لطفلة، وكانت سعيدة، إلى أن حدث هذا فجأة وبلا سبب على الإطلاق، وفُتح باب الغُرفة بهدوء، وخرج الدكتور ميد، وأغلق الباب وظل واقفاً في مكانه لحظة، ولحيته البيضاء مُنكسة فوق صدره، ثُم نظر إليهم، واستقرت عيناه أخيراً على وجه سكارليت، فقال لها بصوت أجش:

- هل عدت؟

ثم اقترب منها، وهمس، وفي عينيه نظرة ذات معنى:

- إنها تريد التحدث إليك، فلا تُزعجيها وهي على فراش الموت باعترافات قد تؤلمها.

فُتح الباب قبل أن تتمكن من الإجابة، ودفعها إلى الداخل بشيء من الغلظة والخشونة، وأغلق الباب مرة أخرى، وكانت غُرفة صغيرة مُظلمة رخيصة الأثاث لا تحمل شيئاً من دلائل الرغد والرفاهية، وقد تمددت ميلاني بالفراش، وغاص جسدها الصغير الهزيل تحت أغطيته، حتى ليكاد الفراش أن يكون خلواً منها، واستطاعت سكارليت برغم الظلام أن تتبين وجه ميلاني، فإذا هو جامد شاحب كقطعة من الشمع الأصفر، وقد غاصت عيناها في محجريهما الواسعين، وأحاطت بهما دائرة حمراء مؤلمة..

وكانت ترجو أن يكون الطبيب مُخطئاً، ولكنها لم تكد تُبصر بها

حتى فهمت وصدقت، فلقد أبصرت بوجوه كهذا الوجه على أسرة الموت في المستشفيات إبان الحرب. واقتربت من الفراش، والذُعر يقبض قلبها بأصابع من فولاذ، وشعرت للمرة الأولى في حياتها بأن ميلاني كانت سيفها ودرعها وطمأنينتها وقوتها، قالت لنفسها وهي تغوص على حافة الفراش: "ليتني أستطيع أن أرد الموت عنها".

أمسكت باليد الهزيلة المُتراخية فوق الأغطية، فسرت برودتها في جسدها، همست: "هأنذا يا ميلاني". فتحت ميلاني عينيها، ونظرت إليها طويلاً كأنما لتقنع نفسها بأنها سكارليت حقاً، ثُم أغمضت عينيها، والتقطت أنفاسها بصعوبة، وهمست:

- "هل تعدينني؟"

- بكل شيء.

- ولدي... اعتني به.

فأطرقت سكارليت برأسها وخنقتها العبرات، ولم تقو على الكلام، وضغطت على يد ميلاني على سبيل الجواب. همست ميلاني قائلة:

- إنه يدين لك بحياته.. هل تذكرين؟

هل تذكر؟! إنها لا تستطيع أن تنسى، وما زالت تذكر ذلك اليوم القائظ المخيف يوم أولدتها ابنها، وتذكر كذلك كم كانت تبغضها، وتسأل الله لها أن تموت، هتفت:

- أعدك.. بأن يكون كولدي.

- سيذهب إلى المدرسة، وإلى الجامعة.

- طبعاً، لجامعة (هارفار)، ثُم إلى (أوروبا)، وسيكون له كُل ما يُريد: جواد، وبندقية للصيد، وإشلي، تشددي، وهيمني على أعماله، هل تفهمينني؟؟

- سأعنى به، وأهيمن على شؤونه، ولن أدعه يشعر...

فابتسمت ميلاني ابتسامة باهتة، والتقت عيناها بعيني سكارليت، وتعلقتا بهما طويلاً كأنما لتُسجلا هذا التفاهم المتبادل على حماية إشلي من هذا العالم المُخيف دون أن يشعر من هذه الحماية يما يخدش شعوره أو يُهين رجولته، ثُم أغمضت ميلاني عينيها، وارتسمت على وجهها الشاحب آية ارتياح وطمأنينة، وهمست:

- أنتِ نشيطة، وباسلة، وطالما أحسنت إليَّ...

رفعت سكارليت يدها إلى فمها لتمنع نفسها من أن تصيح: «كلا.. لقد أسأت إليك، إنني لم أفعل قط شيئاً من أجلك، كل ما فعلته كان من أجل إشلي».

فُتح الباب في هذه اللحظة، وأطل منه الدكتور ميد، وأومأ إليها أن تنصرف، فانحنت فوق الفراش، وهي تبذل جهد الجبابرة لتمنع نفسها من البكاء، ورفعت يد ميلاني، وألصقتها بخدها، وهمست: "طاب مساؤك"

همست ميلاني بصوت لا يكاد يُسمع:

- عديني.

- سأعدك بكل شيء أيتها العزيزة.

- الكابتن بتلر، رفقاً به.. إنه يُحبك كثيراً..

فغمغمت سكارليت في دهشة:

- رايت! آه.. نعم.. حقاً.

قبلت اليد الهزيلة وتركتها على الغطاء، ووقفت سكارليت بالردهة مذعورة، وألقت نيران المرقد حولها ظلالا. خيل معها كأن المكان يزخر بالأشباح، وكان الهدوء حولها شاملاً. فارتجفت. وهمست:

- أين إشلي؟.. لا بد أنه في غرفته.

قصدت إلى غرفته وطرقتها ولم تسمع جواباً ففتحت الباب وأطلت ورأته واقفاً يتأمل قفازاً مُرقعاً من قفازات ميلاني كأنه يراه للمرة الأولى. همست بصوت يرتجف:

- إشلي...

نظر إليها ورد القفاز إلى مكانه في رفق كأنه من زجاج، ورأت سكارليت في عينيه خوفاً يُضارع خوفها، وضعفاً يتضاءل أمام ضعفها.. هتفت:

- إنني خائفة يا إشلي.. أمسك بي..

أراد أن يخطو ولم يستطع حراكاً ونظر حوله في فزع ويأس كمن

يبحث عن شيء ولا يجده.. قال:

- كُنت بحاجة إليك، كُنت أريد أن أنطلق في البحث عنك كما يبحث الطفل عمن يُطمئنه ويُشجعه ويُرفه عنه، ولكن ماذا أرى؟ طفلة أشد مني خوفاً تهرع إليَّ في طلب الترفيه والتشجيع..

فصاحت:

- أنت؟؟ أنت لا تخاف، لقد كنت دائماً قوياً.

أجاب بصوت يرتجف:

- كُنت قوياً فقط لأنها وراءي، والآن ذهبت كُل قوتي معها.

كان صوته الخافت ينم عن يأس شديد، فصعدته بعينيها وسقط ساعدها إلى جنبها، شعرت في هذه البرهة القصيرة بأنها فهمته لأول مرة في حياتها، همست:

- إنك أحببتها كثيراً.. أليس كذلك؟

- إنها كانت حلمي الأوحد الذي يتنفس ويتحرك ولا يموت أمام الحقائق.

قالت بمرارة:

- كم كنت قصير النظر؟ كيف لم تر قبلاً أنها تساوي ألف امرأة؟

- أواه يا سكارليت لو تعلمين ماذا قاسيت مُتذ قال الطبيب...

- كان يجب أن تعلم مُنذ وقت طويل يا إشلي بأنك تُحبها من دوني،

ولو أدركت ذلك إذن لتبدل كل شيء، وما تركتني كل هذا الزمن مُعلقة بأطراف حديثك عن الشرف والتضحية، ولكنك لم تُدرك ذلك إلا وميلاني على فراش الموت، والآن تدرك أنك كنت تحبها، وإنك كُنت فقط تشتهيني كما يشتهي الرجل إحدى الغانيات.

فانكمش تحت وقع كلماتها كما لو كانت سياطا تُلهب جسده، والتقت عيناه بعينيها كمن يضرع إليها أن تصمت، على أن كُل قسمة من قسمات وجهه كانت تعترف بأنها لم تقل إلا صدقاً.. ووقف جامداً، صامتاً، مُطرقاً برأسه كالمذنب أمام تضحيته، وخلال هذا الصمت انفثأ غضبها، وأفسحت النقمة سبيلاً للشفقة ممزوجة بالاحتقار، وأحست بأنها قد ركلت رجلاً أعزل كسير القلب، وتذكرت وعدها لميلاني، وشعرت بوخز الضمير فقالت في رفق:

- معذرة أيها العزيز إنني أشعر بألمك، وأرثى لك، ولكن لا تنس أنها لم تعلم شيئاً ولم ترتب في شيء.

فخطا نحوها بسرعة، وألقى بنفسه بين ساعديها، وانفجر باكياً، ونهضت سكارليت على أصابع قدميها لكي تسند وجهه على وجهها وهمست وأصابعها تُجري فوق شعر رأسه:

- لا تبك أيها العزيز.. إنها تُريدك أن تكون قوياً شُجاعاً.. إنها ستراك بعد لحظة فلا تدعها ترى دموعك.

أمسك بها كما يُمسك الغريق بمُنقذه وهتف:

- ماذا أصنع الآن؟؟ ليس في مقدوري أن أعيش بدونها.

تذكرت كلمة قالها بتلر:

- لقد خُلقت الأثقال للأكتاف القوية التي تستطيع حملها.

حسناً، إن كتفيها قويتان، فلتحمل الأثقال عن كتفيه الضعيفتين الخائرتين، وبسطت كتفيها كما فعلت بالحقل ذات يوم، وطبعت على خده المُبلل بالدموع قُبلة إشفاق باردة سريعة، همست:

- سوف نرى ماذا نستطيع عمله.

وبهذه اللحظة سمعا صوت الدكتور ميد بالردهة وهو يصيح:

- إشلي.. أسرع.

هتفت سكارليت وقد غاص قلبها، وارتسم الذعر في عينيها:

- يا إلهي، أسرع.

لما وجدته مُسمراً في مكانه دفعته بيدها نحو الباب، وأحست بالإعياء، وتعب الأعصاب، وتهالكت على أحد المقاعد، وغاصت كُل مشاعرها، فهي لم تحس ألماً، ولا حزناً، ولا ندماً، ولا دهشة.. شيء واحد فقط كان يملأ ذهنها المكدود، وهو أن إشلي لا يُحبها ولم يُحبها قط، وهي لا تشعر من ذلك بالحزن أو الأسف أو الندم، وقالت لنفسها:

"لم يكن له وجود إلا بمُخيلتي، لقد صنعت من الأوهام شيئاً أحبته وقد مات هذا الشيء كما ماتت ميلاني. نعم، إنني صنعت من الخيال ثوباً

أحببته، وكُلما رأيت إشلي، ألقيت الثوب عليه وأحببته ولم تنفذ عيناي لقرارة نفسه، ولم أره على حقيقته، وظللت أحب الثوب دونه"..

وعادت بها الذاكرة إلى الماضي، فتخيلت «تارا» وحقولها، وإشلي مُقبلاً نحوها بجواده، وأدركت أن كل ما كان يطوف في خيالها في ذلك العهد لم يكن إلا عبث أطفال، وأن إشلي لو لم يتمنع عليها في البداية لكان حظه عندها كحظ غيره من الفتيان الذين تهالكوا عليها فتنكرت لهم وترامو على قدميها فركلتهم.

قالت لنفسها في مرارة: "لقد حدث ما طالما رجوته، كُنت أرجو دائماً أن تموت ميلاني ليخلو لي الجو، وقد ماتت ميلاني، وخلا لي الجو، ولكني لا أريده، ولن أريده، ولو قدم إليَّ صحفة من الفضة، ولكنه سيظل مشدوداً إلى عنقي بقية حياتي، وسيكون لزاماً عليَّ أن أعنى به، فلا يموت جوعاً، ولا يخدش الناس شعوره، سيكون طفلاً جديداً يتعلق بذيلي. لقد فقدت عاشقاً، وكسبت طفلاً، ولولا أنني وعدت ميلاني.. ما همني ألا أراه إلى الأبد".

الفهرس